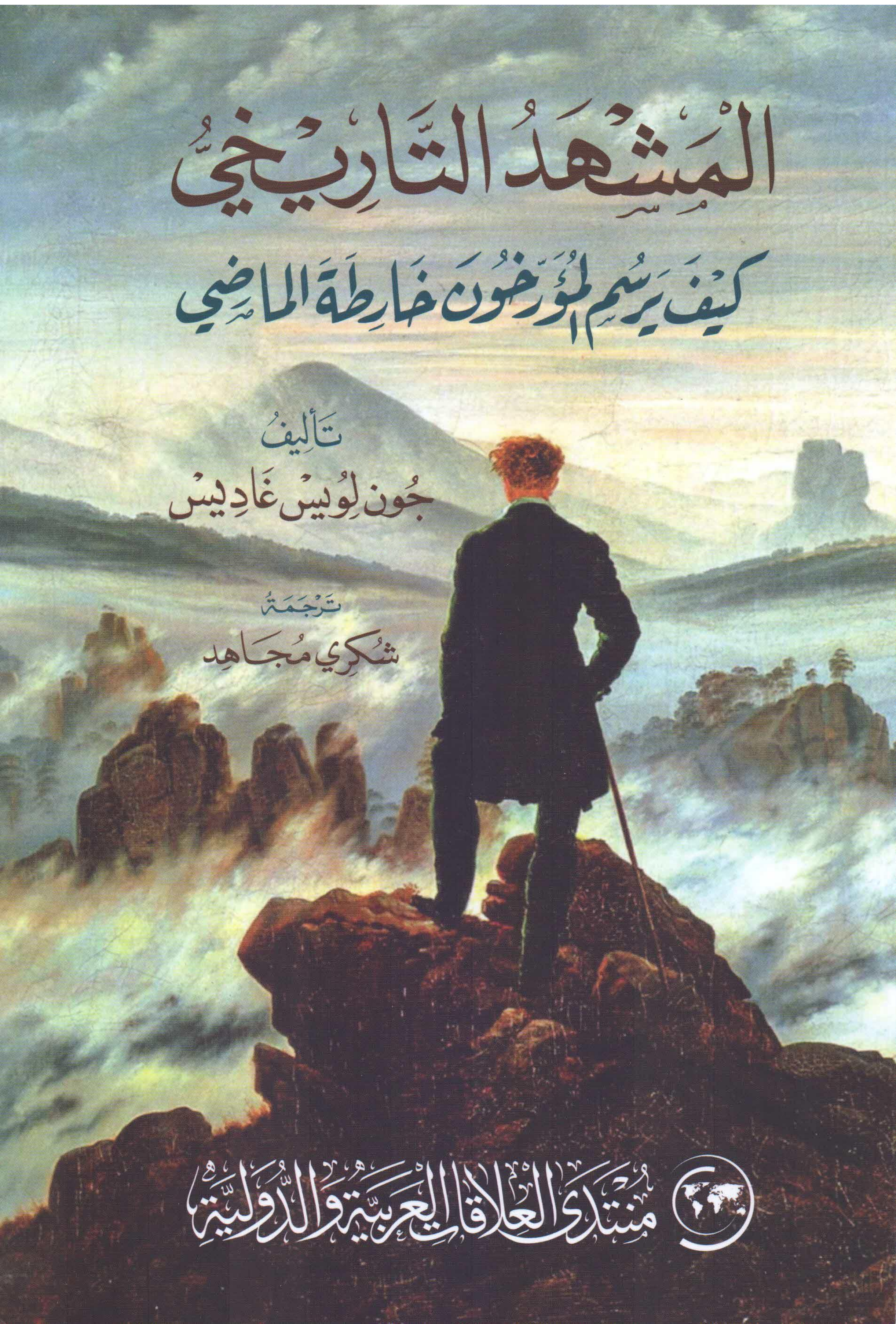

المشهد التاريخي
كيف يرسم المؤرخون خارطة الماضي
تأليف
جون لويس غاديس
ترجمة
شكري مجاهد
منتدى العلاقات العربية والدولية

المشهد التاريخي

يقلب كتاب **المشهد التاريخي** الجدل القديم بين العلم والتاريخ رأسًا على عقب، ملقيًا نظرة فاحصة على مهنة المؤرخ وإشكالاتها، ومقيمًا الحجة على أهمية الوعي التاريخي وضرورته في عالم اليوم.

يجادل جون لويس غاديس بأن المنهج التاريخي أعقد بكثير مما يدركه حتى المؤرخون أنفسهم، مع أنه لا يصعب فهمه أو تفسيره. فكما يرسم علماء الخرائط المشاهد الجغرافية مكانيًا، يتمثّل المؤرخون ما لا يستطيعون استعادته زمانيًا. وبفعلهم ذلك يجمع المؤرخون بين منهجيات الفنانين والجيولوجيين وعلماء الحفريات وعلماء الأناسة والأحياء التطورية؛ وتتوازى مقارباتهم بأشكال مثيرة مع علوم الفيزياء الحديثة ونظريات الفوضى والتعقيد ونظمها؛ ولا تشبه كثيرًا ما يحدث في العلوم الاجتماعية، حيث يبدو البحث عن متغيرات مستقلة في نظم ساكنة منفصلاً عن عالم الواقع كما نعرفه.

من، إذن، يستحق أن نخلع عليه أو نخلع عنه صفة العلمية؟

يتقصى غاديس هذا السؤال أيضًا، على طريقة مارك بلوخ و إي. إتش. كار، وبأسلوبهما الساحر، فيبقى كتابه **المشهد التاريخي** في آن مقدمة جذابة في المنهج التاريخي للمبتدئين، وتأكيدًا لفاعلية هذا المنهج وقوته وكفاءته بيد ممارسيه المختصين، وتحديًا صارخًا لعلماء الاجتماع والعلوم الطبيعية، ونقدًا لاذعًا لادعاءات ما-بعد الحداثة بأننا لا نستطيع معرفة شيء عن الماضي.

"متعة للقراءة، واحتفاء خفيف الظل بكل الأنساق الفكرية المرتبطة بالتاريخ الإنساني والطبيعي"، **وليم ماكنيل**

جون لويس غاديس

أستاذ التاريخ العسكري والبحري بجامعة ييل. من كتبه **نحن الآن نعرف**، و**السلام الطويل**، و**استراتيجيات الاحتواء**.



السعر:
20 ريالاً قطرياً - 5.50 دولارات





ISBN: 978-9927-103-81-0

هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

المشهد التاريخي

كيف يرسم المؤرخون خارطة الماضي

تأليف

جون لويس غاديس

ترجمة

شكري مجاهد



John Lewis Gaddis, *The Landscape of History: How the Historians Map the Past*, London: OUP, 2002.

إقرار

صدرت الطبعة الأولى من المشهد التاريخي: كيف يرسم المؤرخون خارطة الماضي باللغة الإنكليزية أصلاً في عام 2002، وتصدر هذه الترجمة بالاتفاق مع دار نشر جامعة أوكسفورد. يتحمل منتدى العلاقات العربية والدولية مسؤولية الترجمة الحالية من العمل الأصل، ولا تتحمل دار نشر جامعة أوكسفورد أية مسؤولية قانونية عن أية أخطاء أو حذوفات أو عدم دقة أو التباسات ترد في هذه الترجمة، أو أية خسائر تنجم عن الاعتماد عليها.

Acknowledgement

The Landscape of History: How the Historians Map the Past, FIRST EDITION, FIRST EDITION, was originally published in English in 2002. This translation is published by arrangement with Oxford University Press. THE FORUM FOR ARAB AND INTERNATIONAL RELATIONS is responsible for this translation from the original work and Oxford University Press shall have no liability for any errors, omissions, inaccuracies or ambiguities in such translation or for any losses caused by reliance thereon.

عنوان الكتاب: المشهد التاريخي
كيف يرسم المؤرخون خارطة الماضي
تأليف: جون لويس غاديس
ترجمة: شكري مجاهد
200 صفحة - 16.5 × 24 سم.
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 368/ 2016
الرقم الدولي (ردمك): ISBN: 978-9927-103-81-0

الطبعة الأولى 2016.

إلى توني

حب العمر وعمر مليء بالحب

المحتويات

تصدير

تتكـرم عـليّ جامعـة أكسـفورد مرة أخـرى وتهيء لي الظـروف لتأليف كتـاب آخر. المناسـبة هذه المرة شغل كرسي جورج إيسـتمان للأساتذة الزائرين بكلية باليول لعام 2000/ 2001، الذي يرجع تاريخه إلى عام 1929، وكان من بين شاغليه: فيلكس فرانكفورتـر ولينـوس بولينـغ وويلارد كوين وجـورج ف. كينـان وليونيل تريلينغ وكليفورد غيرتز ووليم هـ. ماكنيل وناتالي زيمون ديفيس وروبين وينكس. وتقديرًا للمركـز الذي شـغله أسـلاف في تنوع هـذه الأسـماء وتميزها، لا يرى مـن يختارون شاغل كرسي إيستمان ضرورة لتقديم تعليمات تفصيلية لشاغلي الكرسي الحاليين عما يتوقعون منهم. لم يحدد خطاب تعييني إلا «المشـاركة في 24 عـمـلًا أكاديميًا في أثناء فصـول العام الأكاديمي الثلاثة.» ثم أضاف، على نحو دقيق كما أدركت «أن أسـتاذ كرسي إيستمان يتمتع بدرجة مرونةٍ كبيرةٍ تمكنه من تعديل الأنشطة التدريسية ودمجها مع المشروعات البحثية التأليفية التي يرغب شاغل الكرسي في متابعتها».

عندمـا واجهـت هذا الأفـق الرحب في هذا الجو المواتي، حـرت أول الأمر كيف أوظـف وقتي. قلت إن أحد الاحتمالات هو ببسـاطة أن أحـضر المآدب، فإن مآدب الأسـاتذة في أكسـفورد بالتأكيـد مـن «الأعـمال الأكاديميـة». احتـمال آخـر هو أن أخصـص الوقـت في عمل بحثي، لكن ذلـك قد يخيب أمل مضيفيّ، فهم بلا شـك يتوقعون نوعًا من الظهور بينهم. وكان الاحتمال الثالث أن ألقي محاضرات في تاريخ الحرب الباردة، لكنني فعلت هذا حين كنت أستاذًا زائرًا شاغلاً لكرسي البروفيسور

هارمزويـرث قبل ثماني سـنوات ونشرت هـذه المحاضرات.[1] وبالرغـم من التغير السريع الذي يطرأ على مجال كهذا، لا يعقل أن أجد جديدًا أقوله.

وفي النهايـة، اسـتقر رأيي على شيء مختلف تمامًا: سلسـلة محـاضرات ألقيها، كما حـدث من قبل، في مبنى مدارس الاختبارات (Examination Schools) في شـارع هاي سـتريت عن موضوع طموح جدًا وهو كيف يفكر المؤرخون. وكان لي أهداف عدة مـن هذا المشروع، أولها تقديم العرفان لمن رحل من الباحثين والعلماء، والأحياء من طلابي، فقد تعلمت من هؤلاء وهؤلاء. وأخص من العلماء مارك بلوخ و إ. هـ. كار إذ دفعتنـي المقدمتـان اللتان كتباهمـا على الترتيب لكتابي حرفة المـؤرخ وما التاريخ؟ إلى التفكـر في عمـل المؤرخـين. وأمـا الطلاب فهم تلاميـذي الحاليـون والخريجون بجامعـات أوهايـو وييـل وأكسـفورد، الذين قضيت معهـم وقتًا طويلًا في مناقشـة هذين العملين وأعمالٍ أخرى ليست في ذيوعهما عن المنهجية التاريخية.

يتفـرع الهـدف الثاني عـن الأول. فقد بدأت أقلق مـن احتمال أن تكـون قراءاتي الواسـعة وأحاديثي بدأت تُحدث في عقلي شـيئًا يشـبه ما يصفه سيرفانتس عندما قرأ رجل من لامانشـا عـددًا أكثر من اللازم من كتب مغامرات الفرسـان، «فقد غمس عقلـه في هـذا اللون من الدرس حتى إن... عقله جـف [و] في النهاية وصل إلى حد الجنـون.»[2] في هـذه المرحلـة من عمري شـعرت بالحاجة إلى أن أتحقق من الأشـياء وأميّزها، خشية أن أبدأ في الهجوم على طواحين الهواء. وبالطبع يحتمل أنني وصلت بالفعل إلى هذه المرحلة، وأن هذه المحاضرات كانت طليعة الهجوم -لكنني سـأترك هذا لتقدير قرائي.

كان هـدفي الثالث -سـواء قـدرت المخاطر السـاكنة في الهدف الثـاني أم لا- هو إجـراء بعض التحديث. فقـد وقع الكثير منذ أن أعدم النازيـون بلوخ عام 1944، الـذي ترك وراءه عملًا كلاسـيكيًا توقف قبل أن ينتهي مثل جملة ثيوسـيدايدس(*)،

(*) ثيوسـيدايدس (460-400 ق.م) مؤرخ إغريقي شهير، صاحب كتاب تاريخ الحرب البلوبونيزية، =

ومنـذ أن أكمل كار الأوفـر حظًا محاضرات جورج ماكـولي تريفيليان، التي صارت عمـلًا كلاسـيكيًا، في كامبريـدج، عـام 1961. لكـن تصـوري أننا مـن نحتاج إلى التحديـث وليـس بلـوخ وكار. فقد اسـتشرف الرجـلان تطورات معينـة في العلوم الطبيعيـة والحيويـة قربـت هذين المجالين العلميـين أكثر من ذي قبل ممـا كان يفعله المؤرخـون دائمًا. وقد أغفل أغلب العلماء الاجتماعيين هذه الاتجاهات، بل إن أغلب المؤرخين الذين قرأوا ودرسـوا بلـوخ و كار، تجاهلوا ما كان هذان المؤلفان يُلمّحان إليه من تداخل المنهج التاريخي ومناهج ما يعرف بالعلوم "الصلبة".[3]

يشـير هذا إلى هدفي الرابع، وهو تشـجيع إخواني المؤرخـين على جعل مناهجهم أكثـر وضوحًـا للناس. فنحن غالبًا ما نقاوم هذا، وعادة ما نعمل بأسـاليب شـديدة التنـوع، لكننـا فيها جميعًـا نفضل أن يخفي الشـكل عمله. فنحن نجفل من أن يشـبه مـا نكتـب تصميمًا مثل تصميم مركز بومبيدو في باريـس، الذي يفخر بوضع الدرج المتحـرك والسـباكة والأسـلاك وأنابيب المجـاري في «واجهات» المبنـى حتى يراها الجميـع. نحـن لا نشـكك في ضرورة هذه الأشـياء، بـل في الرغبـة في إظهارها. إن عدم إقبالنا على كشف أدواتنا غالبًا ما تتسبب في إرباك طلابنا -بل في إرباكنا نحن، أحيانًا- في إدراك طبيعة ما نفعل تحديدًا.

لم يكـن بلـوخ وكار يتمتعان بكثـير صبرٍ على مثل هـذه البسـاطة المنهجية،[4] مما يقـودني إلى هـدفي الأخير، وهو يتعلق بالتدريس. من المدهش أنه مع طول المدة التي انقضـت منـذ أن كتبا مقدمتيهـما في المنهج التاريخي لم يظهر أفضل منهما يسـتخدم في الفصل الدراسي حتى الآن.[5] وليس السـبب الوحيـد أن بلوخ وكار كانا منهجيين مبرزيـن: فقـد ظهر بعدهمـا كثيرون بعضهم يفوقهـما مهارة، لكنهما تميـزا بالوضوح والإيجاز واللماحية -أو بتعبير موجز- الرشـاقة التي عبّرا بها عن نفسـيهما. فقد أثبتا

= ويعـد أول المؤرخين الإغريـق الذين أعطوا للعوامـل الاقتصادية والاجتماعية أهميـة خاصة. ووقع عليه عبء كتابة تاريخ حقبة غريبة من حياة الحضارة التي ترعرع في ربوعها. (جميع الحواشي السفلية للمترجم)

إمكانية مناقشة شيء مثل أنابيب المجاري بأسلوب رشيق. ولا يحاول أن يفعل هذا اليوم إلا منهجيون قليلون، وهذا هو السبب في أنهم في الغالب يخاطبون أنفسهم ولا يصلون إلى أغلبنا. أنا متأكد أن مجرد التطلع إلى تمثيل نموذج هذين السَلَفين العظيمين يكشف أن لدي شيئًا من دون كيشوت، لكني أحب على الأقل أن أحاول.

لا يبقى سوى أن أشكر من جعلوا هذا المشروع حقيقة: آدم روبرتس الذي بكرمه اقترح رحلةعودة لزيارة أكسفورد منذ ثماني سنوات عندما كنت أنافس للحصول على الزيارة الأولى، وجمعية باحثي رودس الأمريكيين لدعم كرسي أستاذية إيستمان وتوفير هذا السكن المريح في دار إيستمان، ورئيس كلية بليول ومنتسبيها، الذين أسهموا بطرق كثيرة جدًا في إشعاري وزوجتي توني بأننا محل ترحيب، والطلاب وأعضاء هيئة التدريس والأصدقاء الذين حضروا محاضراتي، وقدموا عنها ملاحظات ثاقبة كثيرة جدًا في مدة الأسئلة التي تلتها، وريان فلويد المساعد البحثي بجامعة ييل، وهو شخص لا يكل. وأخيرًا أشكر قراء ناقدين ومدققين كثرًا قرأوا مسودات هذه الفصول وأخص منهم إنديا كوبر وتوني دورفمان ومايكل فريم ومايكل غاديس وألكسندر جورج وبيتر جينا ولورنز لوثي ووليم هـ. ماكنيل وإيان شابيرو وجيرمي سوري. كما أحب أن أشكر ميكروبات أكسفورد فقد كانت أكثر استجابة من ثماني سنوات مضت.

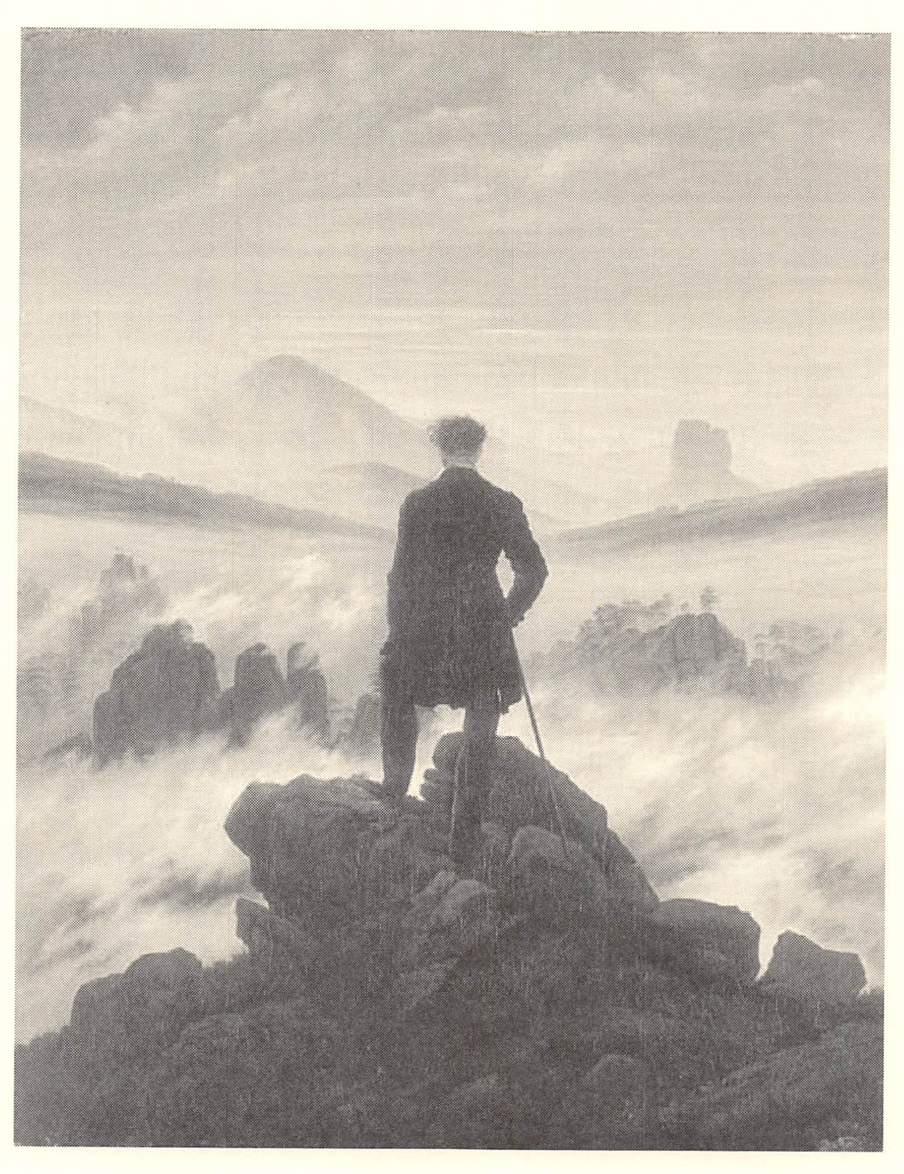
ظهرت أجزاء مما يلي في أماكن أخرى: في مقال «مأساة تاريخ الحرب الباردة»، **مجلة التاريخ الدبلوماسي**، العدد 17، شتاء 1993، ص: 1-16 ("The Tragedy of Cold War History," *Diplomatic History* 17, Winter 1993, pp. 1-16)؛ وكتاب **في التاريخ المعاصر: محاضرة افتتاحية ألقيت بجامعة أكسفورد في 18 أيار/ مايو 1993**، أكسفورد: كلاريندون برس، 1995 (*On Contemporary History: An Inaugural Lecture Delivered before the University of Oxford on May 1993, Oxford: Clarendon Press, 1995*)؛ ومقال "التاريخ والنظرية ودراسة العلاقات الخارجية"، في كتاب **شرح العلاقات الدولية منذ عام 1945**، تحرير نيري وودز، نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد،

1996، ص: 32-48 ("History, Science, and the Study of International Relations," in *Explaining International Relations since 1945*, ed. Ngaire Woods, New York: Oxford University Press, 1996, pp. 32-48)؛ ومقـال " التاريـخ والنظرية والأرضية المشـتركة، مجلة الأمن الدولي 22، صيف 1997، ص: 75-85 ("History, Theory, and Common Ground," in *International Security* 22, Summer 1997, pp. 75-85)؛ ومقـال "في الاعتـماد المتبادل بين المتغيرات؛ أو، كيف يفكر المؤرخون"، المجلة الدورية لمركز ويني للعلوم الإنسانية، جامعة ييل، شباط/ فبراير 1999 ("On the Interdependence of Variables; or, How Historians Think," Whitney Humanities Centre *Newsletter*, Yale University, February 1999)؛ ومقـال "دفاعـا عن التعميـم الخاص: إعـادة كتابة تاريخ الحـرب الباردة"، في كتاب جسـور وحدود: المؤرخون وعلماء السياسـة ودراسـة العلاقـات الدولية، تحريـر كولن إلمان وميريـام فنديوس إلمان، كيمبردج، ماساتشوسـتس: مطبعة معهد ماساتشوسـتس للتقنيـة، 2001 ("In Defense of Particular Generalization: Rewriting Cold War History," in *Bridges and Boundaries: Historians, Political Scientists, and the Study of International Relations*, ed. Colin Elman and Miriam Fendius Elman, Cambridge, Mass.: MIT Press, 2001). أما مقولة الكتاب الرئيسـة فآمل أن تكون جديدة، وأثق أنها كذلك.

والإهداء، هذه المرة، لا يمكن أن يتوجه إلا للشخص الذي غير حياتي.

نيوهيفين

نيسان/ أبريل 2002



كاسبر ديفيد فريدريش، "طوّاف فوق بحر من الضباب" (حوالي عام 1818، هامبورغ كانشتوله، هامبورغ، ألمانيا/ مكتبة بريدجمان للفنون.)

الفصل الأول

المشهد التاريخي

شـاب حاسر الرأس يرتدي معطفًا أسـود يقف على حافة صخرية عالية. ظهره إلينا ويسـتند إلى عصـا تحميه مـن دفع الرياح التي تتطاير منها خصلات شـعره. ينبسـط أمامه مشـهد يغلله الضباب تظهر فيه على البعد أشـكال رائعـة لنتوءات صخرية لا يظهر إلا جزء منها بسـبب بُعد المسـافة والضباب. في الأفق البعيد تظهر عن يسـاره جبال وعن يمينه سهول، وفي أفق أبعد -على غير يقين- هناك محيط. وربما كان ضبابًا أيضًا يتداخل مع السـحب بحيث لا يمكن التمييز بينهما. هذه لوحة مشـهورة تعود إلى عام 1818 وهي لوحة كاسبر ديفيد فريدريش «طواف فوق بحر من الضباب»، وهي تحدث انطباعًا متناقضًا؛ إذ توحي بالسـيادة على المشـهد، وبضآلة الفرد فيها في آن واحد. لا نرى وجه الشاب، لذلك من المستحيل أن نعرف هل الاحتمالات التي يواجهها تأخذ الأنفاس فرحًا أم فزعًا أم الاثنين معًا.

استخدم بول جونسـون لوحة فريدريش منذ بضع سـنوات غلافًا لكتابه ميلاد العـصر الحديـث ليوحي بصعـود الرومانسـية وقدوم الثـورة الصناعيـة.[1] وأحب أن أسـتخدمها هنا لأسـتحضر شـيئًا شـخصيًا وهو فهمي لجوهر الوعي التاريخي، وأعترف أنه فهم شـديد الخصوصية. ربما لا يكون سـبب استخدامي لتشبيه المشهد الجغرافي واضحًا للجميع. لكنني أدعو إلى التفكير في قوة هذه الاستعارة من ناحية،

ومن ناحية أخرى في هذا الجمع الفريد بين الاقتصاد والتكثيف الذي تعبر به الصور المرئية عن الاستعارات.

إن أفضل مقدمة أعرفها للمنهج العلمي هي كتاب جون زيمان **المعرفة الموثوقة: استكشاف أسس الإيمان بالعلم**، حيث يُبيّن أن الرؤى العلمية الثاقبة غالبًا ما تنبع من إدراك أشياء مثل: «كون سلوك الإلكترون داخل الذرّة، «مثل» ذبذبة الهواء في إناء اسطواني، أو أن التجمع العشوائي لسلسلة طويلة من الذرات في جزيء بوليمري (مركب) «مثل» حركة سكير يمشي في حقل أخضر.»[2] يضيف عالم الأحياء الاجتماعية إدوارد أو. ويلسون قائلًا: «لا نستطيع حتى الآن إدراك الواقع ووصفه دون نغمة تردد. لكن خير طريقة لوصفه هي الطريقة التي أدركناه بها، وهي تحتفظ بقدر من الحيوية في التصوير ومخاطبة المشاعر.»[3] وأعتقد أن هذه نقطة التقاء بين العلم والتاريخ والفن: فالثلاثة يعتمدون على المجاز وعلى إدراك الأنساق، وإدراك أن شيئًا «مثل» شيء آخر.

وأنا أرى أن وقفة طوّاف فريدريش -هذه الصورة الرائعة، لظهر إنسان أمام ناظري الرسام وكل من رأى اللوحة- «مثل» وقفة المؤرخين. يعتقد أغلبنا أن مهمتنا هي أن نولي ظهورنا لأي طريق نسير فيه، ثم نركز اهتمامنا على ما تجاوزناه. ونفخر أننا لا نحاول التنبؤ بالمستقبل، مثلما يحاول زملاؤنا في علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة. نقاوم أثر الاهتمامات المعاصرة فينا- فمصطلح «المضارعة» أو «المعاصرة» لا يعد مديحًا بين المؤرخين. إننا نقتحم المستقبل بشجاعة وعيوننا مثبتة على الماضي: وبتعبير صريح جريء أقول إن الصورة التي نقدمها إلى العالم هي صورة مؤخِّرة.[4]

1

من المؤكد أن المؤرخين يفترضون بعض أشياء عما سيأتي، فمن المؤكد مثلًا أن الزمن سيواصل المرور والجاذبية ستواصل التمدد في الفضاء، وأن الفصل الدراسي الأول بجامعة أكسفورد سيستمر كما كان لسبعة قرون كئيبًا ومظلمًا ورطبًا. لكننا لا نعرف هذه الأشياء عن المستقبل إلا بمعرفتنا بالماضي: وبدون هذه المعرفة لم نكن لنملك أدنى فهم لهذه الحقائق الأساسية، ناهيك عن الكلمات التي تعبر عنها، بل عمن نكون وعن موقعنا وهويتنا. إننا لا نعرف المستقبل إلا بما نسقطه عليه من الماضي. بهذا المعنى فإن التاريخ هو كل ما نملك.

لكن التاريخ، من منظور آخر، شيء يستحيل امتلاكه؛ لأنه ما إن نع ما يحدث حتى يكون قد تفلت من أيدينا، أي لا نستطيع أن نعيشه مرة أخرى أو نسترجعه أو نستعيده، كما هو الحال في التجارب المعملية أو المحاكاة الحاسوبية، ولا نملك سوى «تمثيله». يمكننا أن نصور الماضي مشهدًا قريبًا أو بعيدًا، كما فعل فريدريش إذ صور ما يراه طوافه من مرتقاه العالي. يمكننا أن نتبين أشكالًا عَبْر الضباب والسديم، ثم نتفكر في معناها حتى إننا نتفق أحيانًا على هويتها. لكن قبل أن نخترع آلة للسفر عبر الزمن لا يمكننا أن نعود إلى الماضي لنستيقن.

إن قصص الخيال العلمي هي التي ابتدعت آلات الزمن. من هذا روايتان حديثتان، الأولى من تأليف كوني ويليز وهي كتاب يوم الدينونة والثانية من تأليف مايكل كريشتون وهي مسارات زمنية. وتصور الروايتان طالبين للدراسات العليا متخصصين في التاريخ بجامعتي أكسفورد وييل على الترتيب، يستخدمان هذه الآلات ليعودا إلى إنجلترا وفرنسا في القرن الرابع عشر بغرض البحث لرسالتيهما للدكتوراه.[5] ويقدم المؤلفان أشياء يمكن للسفر عبر الزمن أن يفيدنا بها، مثل أن يعطينا «حسًا» بزمن أو بمكان بعينه. تستثير الروايتان جو الأحراش الأكثف والهواء الأنقى وطيور أوروبا القروسطية الأعلى صوتًا وتغريدًا. وكذلك الطرق الموحلة

والطعام المتعفن والناس كريهي الرائحة. لكنهما لا يثبتان أننا نستطيع بسهولة إدراك الأنساق الكبرى لعصر ما عندما نزوره؛ لأن الشخصيات لا تنفك تعلق في تعقيدات الحياة اليومية التي غالبًا ما تضيق منظورها، ومن هذه التعقيدات الإصابة بالطاعون أو التعرض للحرق على الخازوق أو قطع الرأس.

ربما كان هذا ما يخلق التشويق الروائي، أو ما يرفع مقابل تحويل الرواية إلى فيلم سينمائي. ولكني أميل إلى الاعتقاد في فكرة أكبر هنا، وهي أن الخبرة المباشرة للأحداث ليست بالضرورة أفضل سبيل لفهمها؛ لأن مجال رؤيتك لا يتجاوز نطاق حواسك. فعندما تحاول الحفاظ على حياتك وسط مجاعة أو الهروب من عصابة قطاع طرق أو القتال مرتديًا لباس حرب حديدي سابغ، فإنك ستعجز عن القيام بدور المؤرخ. فليس معقولًا أنك ستجد الوقت لمقارنة الظروف في فرنسا القرن الرابع عشر الميلادي بظروفها تحت حكم شارلمان أو الرومان، أو مقارنة التوازيات المحتملة في الصين في حقبة مينغ أو بيرو قبل كولومبس. ولأن الفرد مقيد بحواسه ومدى قدرته على التركيز، كما يقول مارك بلوخ في كتابه حرفة المؤرخ: «فإنه لا يدرك أبدًا أكثر من قطعة ضئيلة في نسيج أحداث من كل شكل ولون ... وفي هذا الصدد، فإن دارس الحاضر ليس أفضل حالًا من مؤرخ الماضي.»[6]

إنني أعتقد جازمًا أن مؤرخ الماضي أفضل حالا من المشارك في الحاضر؛ لأنه ببساطة يملك أفقًا أوسع. اقتربت غرترود ستاين من هذا السبب في سيرتها الموجزة لحياة بيكاسو التي ظهرت عام 1938، إذ تقول: «عندما كنت في أمريكا سافرت لأول مرة بالطائرة أغلب الوقت، وعندما كنت أنظر إلى الأرض، كنت أرى خطوط المدرسة التكعيبية مرسومة في وقت لم يكن أي رسام قد ارتقى بطائرة. رأيت على الأرض خطوط بيكاسو المتداخلة تذهب وتروح تنمو وتدمر نفسها.»[7] فقد كان ما يحدث هنا حرفيًا هو انفصال عن المشهد وبالتالي ارتقاء فوقه، وهو ترك المعتاد مما أتاح إدراكًا جديدًا لما هو حقيقي. كان هذا ما رآه الأخوان مونغولفييه من بالونهما الذي طارا به فوق باريس في عام 1783، أو الأخوان رايت من أول «طائر» لهما في عام 1903، أو رواد فضاء السفينة أبوللو عندما داروا حول القمر في ليلة عيد

الميلاد عام 1968، فصاروا أول بشر يرون الأرض على خلفية ظلام الفضاء. وهذا، بالطبع، ما يراه طوّاف لوحة فريدريش من قمة جبله، كما فعل عدد لا يحصى من الناس دفعهم الارتقاء عن الأرض إلى تحويل منظورهم وتوسيع خبرتهم.

يردنا هذا إلى شيء يفعله المؤرخون؛ لأنك إن تصورت الماضي مشهدًا، فإن التاريخ هو وسيلة تمثيله، وفعل التمثيل هذا هو ما يرقى بنا فوق المألوف، فيتيح لنا أن نعايش افتراضيًا ما لا نستطيع أن نعايشه مباشرة: أي يتيح منظورًا أوسع.

2

فما الذي نجنيه من هذا المنظور؟ أشياء كثيرة، فيما أعتقد، أولها إحساس بالهوية يوازي عملية النمو. إن الصعود في طائرة يجعلك تحس بأنك كبير وضئيل في آن واحد. ولا يسعك إلا أن يملأك إحساس بالسيادة، إذ تفصلك خطوط الطيران التي اخترتها عن الأرض، وتصعد بك فوق اختناقات المرور التي تحيط بالمطار، وتكشف آفاقًا رحبة تمتد وراءه -بافتراض أنك حظيت بمقعد بجوار النافذة، وأن اليوم صحو بلا غيوم، وأنك لست ممن يخافون الطيران فيغلقوا أعينهم من لحظة الإقلاع إلى الهبوط. ومع ارتقائك في الجو، لن يسعك إلا أن تلاحظ ضآلة حجمك بالنسبة للمشهد الواقع أمامك؛ فالتجربة تحبس الأنفاس فرحًا وفزعًا.

وهكذا الحياة. فنحن نولد وكل منا متمركز حول نفسه، ولا ينقذنا من هذه الصفة إلا كوننا رضّعًا ومن ثم شديدي الجهال. فما النمو في الأساس إلا التخلص التدريجي من هذه الصفة، فنحن نقع في بحر انطباعات، وفي هذه الأثناء نزيح أنفسنا عن عروشنا -أو على الأقل يفعل معظمنا هذا- عن موقع مركز الكون الذي بدأنا منه. يشبه هذا الإقلاع في طائرة إذ يقتضي ترسيخ الهوية إدراك عدم أهميتنا النسبية في المخطط الأكبر للموجودات. أتذكُر ما شعرتَ به عندما جاء أبواك على غير توقع بشقيق أو شقيقة، وعندما ألقيا بك في أحضان روضة الأطفال؟ أو ما

شعرت به عندما دخلت أول مدرسة عامة أو خاصة، أو وصلت إلى أماكن مثل أكسفورد أو ييل أو مدرسة هوغوارتس للسحر والشعوذة؟[8] أو عندما صرت مدرسًا تواجه أول فصل مليء بالتلاميذ المتجهمين الضجرين المتكاسلين الأنانيين؟ وما إن تتخلص من عقبة، تظهر أخرى. يقلص كل حدث من سلطتك في الوقت الذي ظننت أنك صرت صاحب سلطة.

إذا كان هذا معنى النضج في العلاقات الإنسانية -أي إدراك الهوية عن طريق إدراك عدم الأهمية (الضآلة)- فإنني أعرّف الوعي التاريخي بأنه إسقاط ذلك النضج عبر الزمن. فنحن نفهم قدر ما سبقنا وعدم أهميتنا بالنسبة إليه. نعرف مكاننا وندرك أنه ليس بالكبير. يقول المؤرخ جيفري إلتون: «إن مجرد معرفة سطحية بوجود أعداد لا تحصى من البشر عبر آلاف السنين كفيل بأن يصوّب النزوع المعتاد المراهق إلى ربط العالم بالذات بدلًا من ربط الذات بالعالم»، فالتاريخ يعلمنا «هذه التكيفات والدروس التي تحول المراهق إلى راشد، وهي بلا شك مساهمة كبيرة في تعليم الشباب»،[9] وقد عبّر مارك توين عن هذا تعبيرًا أفضل:

> استغرق إعداد العالم [لحياة الإنسان] مئة مليون سنة، وهذا دليل على أنه صنع من أجله. وأظن هذا. لا أعرف. لو كان برج إيفل يمثل عمر العالم الآن، فإن طبقة الطلاء على طرف قمته تمثل نصيب الإنسان من ذلك العمر، فهل من شخص يعتقد أن طبقة الطلاء هذه هي الغرض من بناء البرج، وأعتقد أن الناس سيفعلون ذلك، لا أدري.[10]

ثمة مفارقة هنا، فعلى الرغم من أن اكتشاف الزمن الجيولوجي أو «العميق» قلص من أهمية البشر في التاريخ الإجمالي للكون، فهو، في نظر تشارلز داروين و ت. هـ. هكسلي ومارك توين وكثيرين غيرهم أيضًا أزاح الإله عن مكانته المركزية -ولم يعد هناك غير الإنسان.[11] لم يؤد إدراك ضآلة الإنسان، كما هو متوقع، إلى تعزيز دور الحضور الإلهي في تفسير شؤون الإنسان، بل كان له أثر عكسي. فقد أتاح ظهور

وعي علماني، ألقى مباشرةً بمسؤولية ما يحدث في التاريخ على الناس الذين يعيشون عبر التاريخ، لحسن حظهم أو لسوئه.

وعليه فما أراه أنه كما يتطلب الوعي التاريخي انفصالًا -أو قل ارتفاعًا- عن المشهد، أي الماضي، فإنه يتطلب أيضًا لونًا من الارتحال: أي القدرة على التنقل بين التواضع والتسيد. وقد عبر نيكولو مكيافيللي عن هذا تعبيرًا دقيقًا في تصديره الشهير لكتابه الأمير؛ إذ سأل راعيه لورينزو دي ميديتشي: ماذا لو أن «رجلًا وضيعًا تجرأ فناقش وقدم قواعد ليحكم بها الأمراء؟» ولأنه مكيافيللي فقد أجاب بنفسه عن سؤاله:

> فكما أن رسامي مشاهد الطبيعة يقفون في السهل ليتأملوا طبيعة الجبال والأماكن المرتفعة، وليتأملوا طبيعة الأماكن المنخفضة، فإنهم يقفون على قمم الجبال، فكذلك المعرفة السليمة بطبيعة الناس تفرض على المرء أن يكون أميرًا، وحتى يعرف طبيعة الأمراء على أحسن وجه لا بد أن يكون واحدًا من الناس.(12)

فإنك تشعر بالضآلة، سواءً كنت من حاشية حاكم أم رسام أم مؤرخ؛ لأنك تدرك تفاهتك وسط كون لا نهائي. تعلم أنك لن تحكم مملكة أبدًا، أو تضع في رسمك ما تراه في الأفق البعيد، أو تمسك في كتبك أو محاضراتك بكل ما حدث، ولو في أصغر موضع من الماضي. لذا فخير ما تفعل، حيال أمير أو مشهد طبيعي أو حيال الماضي هو أن تمثل الواقع، أن تتجاوز التفاصيل وأن تبحث عن الأنساق الكبرى، أن تفكر كيف تستخدم ما ترى لتحقيق ما وضعت من أهداف.

إن فعل التمثيل هذا يجعلك تشعر أنك كبير الحجم؛ لأنك القائم على عملية التمثيل، أنت من تقع عليك مسؤولية جعل المعقد مفهومًا لنفسك أولًا ثم للآخرين. إن القوة الكامنة في عملية التمثيل يمكن أن تبلغ قدرًا عظيمًا، ويقينًا أدرك مكيافيللي

هذا. فأي نفوذ يمتلكه لورينزو دي ميديتشي اليوم، بالمقارنة بالرجل الذي طلب أن يكون معلمه؟

نخلص من ذلك إلى أن الوعي التاريخي مثل النضج، يخلف عندك شعورًا متناقضًا بالأهمية والتفاهة في آن واحد. فأنت مثل طوّاف فريدريش، تهيمن على مشهد طبيعي يظهرك ضئيلًا. أنت معلق بين رؤيتين متناقضتين، لكن حالة التعلق هذه هي بعينها موطن هويتك -سواءً كنت شخصًا عاديًا أم مؤرخًا. فالشك في النفس ينبغي أن يسبق الثقة بالنفس. كما ينبغي لهذا الشك أن يصاحب الثقة بالنفس ويتحداها وبذلك يفرض عليها الانضباط.

3

كان مكيافيللي يجمع الصفتين على نحو مدهش، فقد كتب الأمير، وقال بلا تواضع مخاطبًا لورينزو دي ميديتشي: «تذكر أنه ليس هناك من هبة أقدمها لك أعظم من أن أمنحك القدرة على أن تفهم، في مدة قصيرة جدًا كل ما تعلمته وفهمته في سنوات طويلة بعد مشاق كثيرة خضتها ومخاطر.» كان غرض فعل التمثيل هو التكثيف؛ فقد سعى إلى حزم قدر هائل من المعلومات في شكل مكثف سهل الاستخدام، حتى يتمكن راعيه من إتقانه سريعًا. فليس من المصادفات أن الكتاب قصير. قدم مكيافيللي خبرته التاريخية مكثفة بحيث توسّع الخبرةَ الشخصية لمن يتمثلها. «بما أن جل الناس يمشون في دروب طرقها غيرهم... فعلى العاقل دائمًا أن يحاكي أكثرهم تفوقًا، فإن لم تمكنه قدراته من بلوغ ما بلغوه، فإنه على الأقل قد اقتفى أثرهم.»[13]

وما يلي هو أقرب ما استطعت الوصول إليه من تلخيص لمنافع الوعي التاريخي. وسر إعجابي بالمنظور التاريخي أمران: أولًا أننا نتعلم من الماضي، بسعي منا أو بغير سعي؛ لأن الماضي هو قاعدة البيانات الوحيدة المتاحة لنا. ثانيًا، الأحرى بنا أن

نحـاول فعـل ذلك بطريقة منهجية. وقد فصل إ.هـ. كار في النقطة الأولى عندما قال في كتابـه ما التاريخ؟ إن حجم المخ البشري وقدرته على التفكير ليسـت أكبر مما كانا عليـه منذ خمسـة آلاف عام، لكن لا يعيش بأسـلوب الحياة في ذلـك الماضي إلا قليل جدًا من الناس. ويواصل قائلًا إن فاعلية التفكير الإنساني «تضاعفت أضعافًا كثيرة بالتعلـم وبدمـج ... خبرة الأجيال التي تعاقبت في هـذه الحقبة.» ربما لا يتم توارث الصفات المكتسـبة عـلى المسـتوى البيولوجي، لكنه يحدث في الشـؤون الإنسـانية: «فالتاريخ هو التقدم عن طريق نقل المهارات المكتسبة من جيل لآخر.»[14]

وكما أوضح جوناثان هسلام كاتب سيرة كار، فإن فكرة كار عن التقدم في تاريخ القـرن العشريـن مقلقة؛ لأنها تميـل إلى ربط التقدم بتراكم السـلطة في يد الدولة.[15] لكـن كار في كتابـه مـا التاريخ؟ يطرح مقولة أوسـع وأقل إثارة للخـلاف وهي: إذا اسـتطعنا أن نوسّع مدى خبرتنا لنتجاوز ما واجهناه أفرادًا، وإذا استطعنا أن نستفيد مـن خـبرات الآخريـن الذيـن واجهوا مواقـف مشـابهة في الماضي -فـإن فرصنا في التصرف بحكمة لا بد أن تزيد بقدر هذه الاستفادة- ولكن ليس هناك من ضمانات.

ويعود هذا بنا إلى النقطة الثانية، وهي السعي إلى التعلم المنهجي من الماضي. على المؤرخين ألا يوهموا أنفسهم بأنهم يملكون الوسيلة الوحيدة التي تنتقل بها المهارات المكتسـبة مـن جيل إلى الذي يليـه. فالثقافة والديـن والتكنولوجيـا والبيئة والتراث يمكنها جميعًا أن تفعل هذا. لكن ربما كان التاريخ خير طريقة لتوسـيع الخبرة بحيث يتحقق أوسع مدى ممكن من الاتفاق على أهمية هذه الخبرة.[16]

أعلـم أن هذا القول سـيثير اعتراضًا أو دهشـة؛ لأن المؤرخـين غالبًا ما يختلفون. ونحـن نرحب بفكـرة المراجعة ولا نثق بفكـرة الطريقة القويمة، ليـس فقط لأنه لا يسعنا غير ذلك، بل لأننا لو فعلنا لخرجنا من المجال برمته. وقد اعتنقنا في السنوات الأخـيرة رؤى بعـد حداثية تتعلق بنسـبية كل الأحكام التاريخيـة -أي عدم انفصال المراقـب عـما يراقبـه- على الرغم مـن أن بعضنا يشـعر أننـا كنا على علم بهـذا طيلة الوقـت.[17] باختصـار، يبـدو أن الأرضيـة التي يقـف عليها المؤرخـون أرض لينة

القوام، ومن ثم لا يملكون أساسًا لادعاء وجود أي إجماع على ما يقوله لنا التاريخ، فيما يتعلق بالحاضر والمستقبل.

لن يثمر أي نمط بحثي في الوصول إلى مثل هذا الإجماع ما لم يسأل: مقارنةً بمَ؟ والغالبية تقصر عن الوفاء بهذا الشرط. إن سيطرة المنهجيات «القويمة» على النحو الظاهر في مجالات الدين والثقافة ليدل على غياب الاتفاق من القاعدة؛ مما يولد الحاجة إلى فرضه من أعلى. فالناس يتفاعلون مع التكنولوجيا والبيئة بطرق كثيرة ومتمايزة وهذا يتحدى فكرة التعميم. تتجلى التقاليد بأشكال مختلفة في المؤسسات والثقافات المتنوعة حتى يكاد يغيب أي اتفاق حول معاني الماضي. والمنهج التاريخي بهذا المعنى يفوق كل ما عداه.

ولا يقتضي الأمر اتفاقًا بين مستخدمي المنهج التاريخي على تحديد دقيق لهوية «دروس» التاريخ، فالإجماع يمكن أن ينطوي على تناقضات. من النضج أن تدرك وجود صور متنافسة من الحقيقة، وأنك نفسك لا بد أن تختار أيها ستعتنق. والوعي التاريخي يقتضي إدراك الشيء نفسه، أي عدم وجود تأويل «صحيح» للتاريخ، لكن فعل التأويل نفسه توسيع افتراضي للخبرة التي يمكن أن تنتفع بها. فلن يفيد أميرًا أن تقول له إن الماضي يقدم دروسًا بسيطة أو إنه في بعض المواقف لا يقدم أي دروس على الإطلاق. يقول مكيافيللي في أحد المواضع: «يستطيع الأمير أن يكسب الناس بطرق عدة، لا يمكن أن نرسي لها قواعد لأن الطرق تختلف باختلاف الظروف.» لكن الطرح العام ما يزال صالحًا، وهو أن الأمير يجب أن يحرص على ود الناس لأنه لا خير في عداوتهم.(18)

يقربنا هذا مما يفعله المؤرخون -أو على الأقل، ترديدًا لقول مكيافيللي، يقتفي أثر ما يفعلون: أي تأويل الماضي من أجل الحاضر بهدف التحكم في المستقبل، مع تجنب تعليق القدرة على تقويم الظروف المحددة التي يمكن أن يعمل فيها المرء وعلاقة أفعال الماضي بها. إن تراكم الخبرة لا يعني تطبيقها آليًا لأن جزءاً من الوعي التاريخي

هو القدرة على رؤية مواطن الاختلاف والتشابه وإدراك أن التعميمات لا تنطبق دائمًا على الظروف الخاصة.

قد يبدو هذا مخيفًا -حتى تنظر في مجال آخر من النشاط الإنساني يسود فيه التمييز بين العام والخاص، حتى لا نكاد نذكره، وهو عالم الرياضة الواسع. فلكي تصل إلى الإتقان في كرة السلة أو كرة المضرب أو حتى البريدج لا بد لك من معرفة قواعد اللعبة ومن ممارستها. لكن هذه القواعد وما يعلمك المدرب أن تطبقه منها ليست إلا تكثيفًا للخبرة المتراكمة، فهي تؤدي الغرض نفسه الذي أراده مكيافيللي من تقديم كتاب الأمير إلى لورينزو دي ميديتشي. ما هي إلا تعميمات، أي خلاصات وتكثيفات للماضي حتى يفيد منه المستقبل.

لكل مباراة تلعبها سماتها الخاصة: مثل مهارة الخصم ومستوى إعدادك والظروف التي تجري فيها المنافسة. والمدرب الكفؤ لا يضع خطة لتنفذ آليًا طيلة المباراة، بل عليك أن تترك مساحة كبيرة لاختيارات اللاعبين التي يحكمون فيها عقولهم. إن روعة الرياضة تكمن في تقاطع العام مع الخاص. وهكذا الحياة.

لا تقدم دراسة الماضي دليلًا إرشاديًا موثقًا للتنبؤ بالمستقبل. لكن عملها هو إعدادك للمستقبل بتوسيع الخبرة التي تزيد مهارتك وقدرتك -وحكمتك إن سار كل شيء على أحسن وجه. فربما صدق قول مكيافيللي بأن: «الحظ هو حاكم نصف أفعالنا»، لكن يصدق كذلك أن «الحظ يترك النصف الآخر أو ما يقرب من النصف نتحكم فيه.» أو كما قال أيضًا: «لا يريد الرب أن يفعل كل شيء.»[19]

4

ولكن كيف تقدم الخبرة التاريخية بغرض توسيع الخبرة الشخصية؟ إذا قدمت معلومات أقل من اللازم نزعت الجدوى من عملية التعلم، وإذا أفرطت فيما تقدمه

وضعت على النظام أحمالًا زائدة وعرضته للانهيار. فعلى المؤرخ أن يحدث توازنًا، ومعنى ذلك إدراك التناسب بين التمثيل الحَرْفي والمجرد. وأضرب المثال على ذلك بلوحتين شهيرتين عن موضوع واحد.

الأولى لوحة جان فان آيك الرائعة «زواج جيوفاني أرنولفيني»، من عام 1434، التي توثق علاقة بين رجل وامرأة بتفاصيل شديدة الدقة، حتى إننا نرى كل طية في ملابسهما وكل هدبة في شريط الزينة والتفاحات التي على عتبة النافذة، والأحذية على الأرض وشعرات الكلب الصغير، وصورة الفنان نفسه منعكسة في المرآة. الصورة مدهشة لأنها أقرب ما تكون إلى الواقعية الفوتوغرافية قبل أربعة قرون من اختراع التصوير الفوتوغرافي. لم تكن هذه اللوحة لترسم إلا في عام 1434 ولم يكن ليصور بها إلا الزوجان أرنولفيني ولم تكن لترسم إلا في مدينة بروغر. نكتسب من هذه اللوحة خبرة افتراضية عن زمن ومكان بعيدين لكنهما محددان بدقة.

والآن نقارنها بلوحة بيكاسو «العاشقان»، وهي رسم بالحبر وألوان الماء والفحم أنجزها سريعًا في عام 1904. والصورة مثل صورة آيك لا لبس في موضوعها لكن بعد استبعاد كل شيء: الخلفية والأثاث والأحذية والكلب وحتى الملابس، حتى لم يبق سوى جوهر الموضوع. ما لدينا مجرد توصيل لخبرة افتراضية نوعية يفهمها فورًا كل البشر من لدن آدم وحواء. هدف هذا الرسم هو التجريد الذي ينبع من غياب السياق، وهو الذي يبرزها على هذا النحو المؤثر عبر الزمان والمكان.

نتحول الآن بقفزة واسعة إلى ثيوسيدايدس، الذي أجد فيه خصوصية فان آيك وعمومية بيكاسو. فهو أحيانًا مفصلٌ إلى حد الفوتوغرافيا في قصصه وكأنه يكتب سيناريو حديثا. يحكي لنا، مثلًا، عن محاولة بلاتيه لاقتحام سور بيلونوني، حيث يتقدم الجنود بالقدم اليسرى وحدها منتعلة حتى يتجنبوا التزحلق في الوحل، وحيث يتسبب سقوط بلاطة سقف واحدة في تنبيه المهاجمين. وهو يضعنا في قلب الهجوم الأثيني على بايلوس في عام 425 قبل الميلاد بدرجة من الدقة تستحضر اللحظات الأولى المدهشة في فيلم ستيفن سبيلبيرغ «إنقاذ الجندي ريان» حيث

وضعنـا على شـواطئ نورماندي عـام 1944 ميلاديـة. يجعلنا نسـمع أصوات أنين المـرضى والجرحى في صقلية «ينادون عاليًا عـلى كل رفيق أو قريب يرونه ويتعلقون برقـاب زمـلاء الخيمة لحظة الرحيل، ويتبعونهم حتى يبلـغ بهم الجهد حده، وعندما تخـور قوى أبدانهم ينادون السـماء مرارًا وتكرارًا ويصرخون ملء حناجرهم سـاعة يتركهم زملاؤهم».[20] باختصار، نجد فيها صدق الخصوصية التي تضعنا وسطهم ببراعة كأننا في إحدى آلات الزمن التي أبدعها مايكل كريشتون.

لكـن ثيوسـيدايدس يختلـف عـن كريشـتون في أنه أسـتاذ في التعميـم. فهو، كما يخبرنـا، يخاطـب بعمله الباحثـين «الذين يريـدون معرفة دقيقة بالمـاضي تعينهم على تفسـير المسـتقبل، الذي في مسار البشرية حتمًا يشـبه الماضي، إن لم يكن انعكاسًا له.» كان يعلم أن التجريد -أو لنقل الانفصال عن السـياق على طريقة بيكاسـو- هو ما يجعل التعميمات تعيش صالحة عبر الزمن. فهو يحكي أن الأثينيين خاطبوا المتمردين الميتيلينيـين، بقـول يحمـل مبـدأً خالدًا، وهـو أن الأقويـاء يفعلون ما يقـدرون عليه والضعفـاء يعانـون ما يكرهون عليـه، وتلا ذلك أن الأثينيين «قتلـوا كل من أخذوا من الرجال وباعوا النساء والأطفال رقيقًا، ثم أرسلوا خمس مئة مستعمر ليستوطنوا المكان.» ثيوسـيدايدس يخبرنـا أيضًا بوجود اسـتثناءات لأي قاعـدة: فعندما يتمرد الميتيلينيون ويهزمهم الأثينيون، يراجع الأقوياء أنفسـهم فجأة ويرسلون سفينة ثانية تلحق بالأولى لإلغاء الأمر بذبح الضعفاء واسترقاقهم.[21]

يأتي هذا التوتر بين التعميم والتخصيص -بين التمثيل الحرفي والتجريدي- عندما تدخـل عالم نقل الخبرة الافتراضية. فإن أي حكاية تاريخية بسـيطة مليئة بالتفاصيل، مهـما كانت دقتها، تحبسـك في زمن ومكان محدديـن. وتجاوزها يأتي بتجريدها، لكن التجريد عمل اصطناعي يقتضي اختزالًا لوقائع معقدة. ويماثل هذا ما حدث في عالم الفـن عندمـا بدأ في نهاية القرن التاسـع عشر في الابتعاد عـن التمثيل الحرفي للواقع. كان أحـد أهداف الانطباعية والتكعيبية والمسـتقبلية إيجـاد طريقة لتمثيل الحركة من داخل وسـائط اللون والقماش والإطار وهي بطبيعتها سـاكنة. نشـأ التجريد كأحد

صور التحرر، كرؤية جديدة للواقع يوحي بشيء من تدفق الزمن.[22] لكن التجريد لم ينجح إلا عن طريق تشويه المكان.

على النقيض من ذلك، يستخدم المؤرخون التجريد لتجاوز قيد مختلف، وهو انفصالهم زمنيًا عن موضوعاتهم. يتعايش الفنانون مع الموضوعات التي يمثلونها، معنى هذا وجود إمكانية دائمة لتحويل الرؤية وتعديل الضوء أو تحريك النموذج المرسوم.[23] ولا يستطيع المؤرخون ذلك؛ لأن ما يمثلونه كائن في الماضي ولا سبيل أمامهم للتغيير فيه أبدًا. لكنهم يستطيعون ذلك باستخدام ذلك الشكل الخاص من التجريد المعروف بالسردية، فيصورون الحركة عبر الزمن، وهو ما لا يملك الرسام إلا الإشارة إليه.

لا بد دائمًا من تحقيق توازن، لكن كلما طال الزمن الذي تغطيه السردية، قلت التفاصيل المقدمة. ويستحضر هذا مبدأ عدم اليقين عند هايزنبيرغ، لأن القياس الدقيق لأحد المتغيرات في إطاره يجعل متغيرًا آخر غير دقيق.[24] يشير هذا إلى إحدى النقاط الأساسية في الوعي التاريخي: أي التوتر بين الحرفي والمجرد، بين الوصف التفصيلي لما يقع في موضع ما في الماضي، من ناحية، والتصوير السريع لما يمتد عبر أحقاب كثيرة من الزمن، من ناحية أخرى.

5

يعود هذا بنا إلى «طوّاف» فريدريش، وهو تمثيل فني يقترب من الإشارة المرئية إلى جوهر الوعي التاريخي. ظهر الشاب إلينا، يشرف من علٍ على مشهد أرضي بعيد، ولا ينغمس فيه. هناك توتر بين العظمة والضآلة، فتشعر بأنك ضخم وصغير في آن واحد، قطبا التعميم والتخصيص، الهوة بين التمثيل التجريدي والحرفي. لكنّ الصورة بها شيء آخر وهو حس الفضول الممزوج بالرهبة والعزم على اكتشاف

الأشياء -على اختراق الضباب واستخلاص الخبرة وتصوير الواقع- وهذا انعكاس لرؤية فنية وحساسية علمية في الوقت نفسه.

كتب هارولد بلوم عن شكسبير أنه خلق مفهومنا عن أنفسنا عن طريق اكتشاف طرق -لم تُعرف من قبل- لتصوير الطبيعة الإنسانية على المسرح.(25) وأعتقد أن فيلم جون مادن «شكسبير عاشقًا» يعرض هذا ويجعله يحدث فعلًا على الشاشة: فهي اللحظة التي ظهرت فيها مسرحية روميو وجولييت على المسرح لأول مرة، عندما ألقيت الأبيات الأخيرة، وعندما يجلس الجمهور في حالة انبهار كامل، صامتين مغمضي العينين فاغري الأفواه لا يعرفون ماذا يفعلون. إن ولوج أرضٍ لم توطأ من قبل، في المسرح أو التاريخ أو شؤون الإنسان، هو ما يحدث هذا الشعور بالانبهار. ربما كان هذا سر ختام فيلم «شكسبير عاشقًا» بمشهد بداية مسرحية الليلة الثانية عشرة حيث شخصية فيولا بعد تحطم سفينتها، وعلى جزيرة مجهولة تملؤها الأخطار لكن إمكاناتها غير محدودة. وكما في لوحة فريدريش «الطوّاف»، الذي لا نرى فيه إلا ظهر الشخصية، في هذا المشهد الأخير الطويل الذي تخوض فيولا فيه الماء لتصل إلى الشاطئ.

لكنني لا أقصد أن المؤرخين يستطيعون أداء دور غوينيث بالترو بأي قدر من المصداقية. فالمفترض فينا أن نكون مدونين للأحداث بصرامة وتجرد ولا نسمح لعواطفنا أو حدسنا بالتأثير في عملنا، أو هكذا ما تربينا عليه من تراث. مع ذلك فعندي قلق من أن عدم سماحنا لهذه الأشياء ولشعور الإثارة والدهشة الذي ندخله على عمل التاريخ، يجعلنا نفقد كثيرًا من جوهر هذا المسعى. إن أول ما وضع شكسبير على لسان شخصية فيولا من شعر كانت كلماتٍ مليئة بالذكاء والفضول وشيء من الخوف، هذه الكلمات تصلح أن تكون منطلقَ أي مؤرخ يتأمل المشهد التاريخي: «أي البلاد هذه، يا أصحاب؟»

الفصل الثاني

الزمان والمكان

من الأشـياء المدهشـة في المشهد الأخير لفيلم «شكسبير عاشـقًا» أنه يوحي بوفرة في الزمان والمكان: أي الانفتاح على كل الاحتمالات ولا شيء مستبعد. يقول الشـاعر أنـدرو مارفيل ناعيًا عدم توفرهما: «ليتنا كنا نملـك ما يكفي من الدنيا والزمان.»[1] لكن في هذه الصورة السينمائية لظهر إنسـان وشاطئ خال وقارة غير معروفة، يبدو أنهما متوفران.

بطبيعـة الحال، فإن آحاد المؤرخـين مقيدون مثل مارفيل بالزمـان والمكان، لكن التاريـخ بوصفـه مجالًا للبحـث لا يخضع لهذا القيـد. ينفصل المؤرخون عن مشـهد المـاضي ويرتقـون فوقه، لذلـك فهم قـادرون على التحكـم بالزمان والمـكان بطرق يعجزون عنها لو كانوا أناسًـا عاديين، يسـتطيعون تكثيف هذين البعدين وتمديدهما ومقارنتهـا وقياسـهما، بل تجاوزهما، كما يفعل الشـعراء وكتاب المـسرح والروائيون وصناع الأفلام تمامًا. والمؤرخون بهذا المعنى تجريديون، فالتمثيل الحرفي للواقع ليس مهمتهم.

مـع ذلك عليهـم أن ينجزوا هـذه الصياغات بحيث يراعون معايير الاسـتوثاق الموجودة في العلوم الاجتماعية والطبيعية والحيوية. وفي المعتاد، لا يتوقع الفنانون أن

تراجع مصادرهم، لكن المؤرخين يفعلون.[2] تجعلنا هذه الحقيقة معلقين بين الفنون والعلوم: نشعر بحرية الارتفاع عن قيود الزمان والمكان واستخدام خيالنا، والتجرؤ على ارتياد ما لم يرتده أحد من قبل أو تيسر له ارتياده. وربما عبّر عن هذا كتاب سيناريو فيلم «ستارتريك» (طريق النجوم) في بحثهم الدائب عن أحوال تصف ما يستخدمونه من أفعال. لكننا لا بد أن نفعل هذا بطريقة تقنع طلابنا وزملاءنا وأي شخص آخر يقرأ عملنا، أن هذه الارتحالات عن البعدين اللذين نعيش فيهما حياتنا المعتادة تمنحنا بالفعل معلومات موثقة عن طريقة حياة الناس في الماضي. وليست هذه بالمهمة السهلة.

1

سأبدأ مناقشتي لهذه المهمة بواحدة من أشهر حالات إعادة ترتيب الزمان والمكان (ناهيك عن النوع)، وهي رواية فيرجينيا وولف أورلاندو. فهي تبدأ وتنتهي ببطلها الذي تحمل الرواية اسمه (الذي يتحول إلى امرأة في نهاية الرواية) يجلس في هدوء على تل تحت شجرة سنديان ضخمة، حيث يستطيع أن يرى نحو ثلاثين مقاطعة إنجليزية «أو ربما أربعين إذا كان الطقس رائعًا.» يمكن رؤية دخان لندن وقمم أبراجها من اتجاه والقناة الإنجليزية من اتجاه آخر والقمة الصخرية المنحدرة وأطراف سنودن الحادة في اتجاه آخر. يعود أورلاندو إلى هذا المكان بانتظام لنحو ثلاثة قرون ونصف دون أن تبدو عليه مظاهر الشيخوخة. تفتتن به إليزابيث الأولى، لكن أورلاندو الأنثى -فهناك تحول في الجنس غير متوقع من بعد الثلث الأول للرواية حتى النهاية- ما زالت في أبهى منظر في حكم جورج الخامس. فما الذي يحدث هنا؟

أولًا، شخصية أورلاندو تصوير متخفٍ على نحو مكشوف لعشيق وولف، فيتا ساكفيل -ويست: فأي هدية خير من تحرير شخص كهذا من قيود الزمان والمكان

والنوع؟ لكن الرواية هي رؤية وولف للسيرة الروائية كجنس أدبي -لا سيما الأعمال الضخمة الرئيسة التي تتناول «الحياة والأزمنة» التي كان يفضلها الناس في العصر الفيكتوري.[3] وهي تحكي لنا عن أحد الأعوام غير المفعمة بالأحداث في حياة أورلاندو، فتقول: «حل نوفمبر.»

> بعد نوفمبر يأتي ديسمبر. ثم يناير وفبراير ومارس وأبريل. بعد أبريل يأتي مايو. ويليه يونيه ويوليه وأغسطس ثم سبتمبر، ثم أكتوبر، ومن ثم نجد أنفسنا مرة أخرى في نوفمبر، بحصاد عام كامل. هذه الطريقة في كتابة السيرة جرداء، على الرغم من مميزاتها، وربما اشتكى القارئ، لو اتبعناها، وقال إنه يستطيع أن يردد التقويم السنوي بنفسه ويوفر على نفسه المبلغ الذي يجده الناشر ثمنًا مناسبًا للكتاب.

والأهم لأغراضنا، كما يوحي هذا المقتبس، أن رواية أورلاندو احتجاج على التمثيل الحرفي للواقع. وتبرز وولف هذه النقطة، وتوضحها بغير لبس في فقرة عن طبيعة الزمن: «الساعة الواحدة، إذا حلت في عنصر الروح الإنسانية الغريب، يمكن أن تتمدد لتكون خمسين أو مئة ضعف الساعة الزمنية، من جانب آخر، فإن ساعة كاملة يمكن أن تمثلها ساعة العقل بثانية واحدة. هذا التمايز غير العادي بين الوقت في الساعة الزمنية والوقت في العقل، ليس معروفًا كما ينبغي ويستحق استقصاءً أشمل.»[4]

والآن نأخذ باقتراحها لنرى إلى أين يأخذنا. لطريقة التقويم المكتبي في كتابة التاريخ، سوابق قديمة على شكل تواريخ حولية تصف بدقة أحوال الطقس والمحاصيل ومنازل القمر بالإضافة إلى الأحداث غير العادية. لكن كما يذكر فيلسوف التاريخ هايدن وايت فإن الأحداث المسجلة بترتيب وقوعها الدقيق، سرعان ما يعاد ترتيبها في شكل قصة لها بداية واضحة ومنتصف ونهاية.[5] ثم تصير هذه القصص تواريخ، ويصير تحليل وايت لها بعد هذه النقطة مثقلًا بالرطانة

العلمية. ولكن يكفي القول إنه عندما يكتب عن «إيجاد الحبكة» وأنواع التفسير مثل «الشكلي والعضوي والآلي والسياقي»، فإن ما يصفه حقًا هو تحرر المؤرخ من حدود الزمـان والمـكان: حريـة بذل الاهتمام لأشـياء أكثر من غيرها، ومن ثـم نبذ الترتيب الزمني الصارم، أي رخصة الربط بين أشياء لا يربطها المكان، ومن ثم إعادة ترتيب الجغرافيا.

هذه الإجراءات أساسـية، حتى إن المؤرخين غالبًا ما يعدونها مسلمات: فنادرًا ما نفكر فيما نفعل أثناء فعله. مع ذلك فهم يبلغون جوهر ما نشـير إليه بكلمة التمثيل، وهي ببساطة إعادة ترتيب الواقع ليوافق أغراضنا.[6] ونضرب على هذا مثلا حالتي تومـاس بابنغتـون ماكـولي وهنري آدامـز، وهما نموذجـان بارزان للـسرد التاريخي التقليـدي في القـرن التاسـع عـشر. فعلى الرغم من سـمعتيهما، فكلاهما حرر نفســه مـن التمثيـل الحرفي بثقـة بالنفس كان يمكن أن تذهل حتى عـالم الفن في زمانهما، لو استطاعا أن يعبّرا عنها بالوسيط البصري، أي في شكل صورة مرئية.

صـدر مصنف ماكولي **تاريخ إنجلترا** في عدة أجزاء بين 1848 و1861، وصدر مصنـف آدامز **تاريـخ الولايات المتحـدة أثنـاء إدارتي توماس جيفرسـون وجيمس ماديسـون** بـين 1889 و1891. ويتحـرك المصنفـان بعظمـة عـبر الزمـن دون أن يـترددا في انتقاء الدليل الذي يثبـت معتقدات المؤلفين وتجاهل ما لا يثبته. ومن هنا، يفرض ماكولي تأويلًا «محافظًا» للتاريخ بسلطوية جعلت من جاء بعده من المؤرخين يئنون تحت ثقلها. أما آدامز فيحمل على ظهره تاريخًا عائليًا: فإن رأيه في جيفرسـون وماديسون حتمًا -بل وراثيًا- هو رأي جون وجون كوينسي آدامز.[7] فالتمييز الذي أبرزتـه وولف بين الوقت الزمني والذهني يتوثق هنـا، ويتأكد في عملية فرز الدليل التاريخي.

لكـن ماكـولي وآدامز لا يتحركان عـبر الزمن فقط، فهما يبـدءان تاريخيهما برحلة عـبر المـكان في نقطة زمنية واحدة تشـبه تمامًـا ما قام أو قامت بـه أورلاندو من تحت شـجرة السـنديان. ينظر الفصـل الثالث الشـهير في كتاب ماكولي، وهـو عن «حالة

إنجلـترا في عـام 1685» إلى الدولـة برمتهـا من زاويـة لا يمكن لمراقـب حقيقي أن يتخذهـا.[8] فنحن نرى بالتأكيد عن بعد، كما ينبهنا للنظر إلى «سـنودون ووينـدرمير وتشيدركليفس وبيتشي هيد»، لكن هذه استثناءات لأن:

> آلاف الأميال المربعة، وهي الآن أرض غنية بمزارع القمح والمروج، تتقاطع فيها صفوف الأسـوار الخضراء وتتناثر فيها القرى والمقار الريفية الجميلة، كنا سنراها مسـتنقعات يملؤهـا نبات الـوزال أو السرخسـيات، مهجورة يعيـش فيها البط البري. ولرأينا أكواخًا متهالكة من الخشـب مسـقوفة بالقش، مكان ما نراه الآن مـن بلدات صناعية وموانئ بحرية وصلت شـهرتها إلى أقـصى أطراف المعمورة. ولكانـت حدود العاصمة نفسـها انكمشـت بحيـث لا تتجاوز مسـاحة ضاحية جنوب نهر التايمز حاليًا.

ثـم يقـترب ماكولي ليعطينـا تفاصيل دقيقـة: فنعرف مثـلًا أن «مخلفـات المزرعة تتجمـع تحت نوافـذ» بيـت السـيد الريفي التقليـدي في تلـك الحقبـة، وأن «القنب وشجيرات عنب الثعلب تنمو بالقرب من باب قاعة بيته.»[9]

ولا يقل طموح آدامز عن هذا. فهو يخصص ستة فصول لما يمكن أن يوصف بأنه استطلاع بالقمر الصناعي للولايات المتحدة في عام 1800، تمهيدًا لتقديم تنصيب جيفرسـون رئيسًـا. وهو يركز، مثل ماكولي، على التفاصيل، مثل عدم وجود طريق بين بالتيمور وواشنطن بل مجرد مدقات «تتخلل الغابات» يختار سائقو عربات السفر منها ما «يبدو أقل خطرًا.» لكنه كذلك يبتعد بالصورة، من ذلك عندما يعمم فيقول إن «خمسة ملايين أمريكي يصارعون قارة غير مستأنسة لا يملكون في صراعهم هذا فوق ما تملك القنادس والجاموس البري التي ظلت لأجيال لا تحصى تصنع الجسور وتنشئ لنفسها الطرق.»[10]

وهكذا نجد سيدين بارزين من العصر الفيكتوري، لم يكن لهما أن يدركا ما فعلته فيرجينيا وولف -ولو أنها تستطيع أن تدرك ما فعلاه- من التلاعب بالزمان والمكان

بالسـهولة نفسـها والأريحيـة التي يتمتع بهـا بطلها / بطلتها أورلانـدو، أو كما يفعل أمهـر المتحكمـين في آلة زمنيـة في إحدى روايـات الخيال العلمـي، دون بذل مجهودٍ يذكر.

2

عـبرت في الفصل الأول عن شـكي في فائـدة آلات الزمـن في البحث التاريخي. وكانت نصيحتي لطلاب الدراسات العليا خاصة ألا يعتمدوا عليها، بسبب المنظور المحدود الذي ينتج غالبًا من الانحصار في جزء معين من الماضي، وخطر عدم تمكنهم من العودة في الوقت المناسـب ليلحقوا بالاختبارات الشـفوية.[11] لكن إذا اعتبرت البحث التاريخي نفسـه نوعًا من آلات الزمن، سـتلحظ فورًا أن إمكاناته تتجاوز ما تستطيع أن تحققه نظائرها في قصص الخيال العلمي. فكما يُبيِّن مثالا ماكولي وآدامز، يملـك المؤرخون القدرة عـلى الانتقاء والتزامـن وتغيير المقياس: يمكنهـم انتقاء ما يرونه مهمًا من بحر الأحداث، ويمكنهـم الوجود في عدة أزمنة وأماكن في آن واحد، ويمكنهم الاقتراب من الصورة أو الابتعاد عنها، أي التنقل بين مسـتويات التحليل الشامل التفصيلي. وسأفصل أكثر في هذه النقطة.

الانتقائيـة: يفـرض علينـا الانتقال بآلـة زمن تقليديـة إلى نقطة معينـة في الماضي الاهتـمام بأشـياء دون غيرها. وبافـتراض أن آلتك تعمل جيـّدا، يمكنك أن تختار ما تـزور مـن الزمان والمـكان، لكن ما إن تصلها حتـى تفقد السـيطرة: أي سرعان ما تغرق في خضـم الأحداث فلا تملك سوى التكيف معها. وكلنا يعلم خط الأحداث مـن موقعك هذا: سـتقضي مـا تبقى من أحـداث الرواية في مراوغـة الديناصورات الشرهـة، أو في اتقاء الموت الأسـود أو محاولة إقناع الأهالي أنك لسـت سـاحرًا ولا ينبغي أن تُحرق.

أما في طريقة المؤرخ في السفر بالزمن فأنت تقرر ما تراه مهمًا في الماضي ولا يُفرض ذلك عليك، فإن الحفاظ على موقعك في الحاضر أثناء استكشافك الماضي يجعلك تملك زمام المبادرة. مثل ماكولي وآدامز، تستطيع أن تدافع عن المذهب المحافظ أو تنال من مكانة جيفرسون. تستطيع أن تركز الاهتمام على الملوك وملئهم، أو على حالة الحرب وفن الحكم، أو على الحركات الدينية أو الفكرية أو الأيديولوجية الكبرى في ذلك الزمان. ولك أن تتبع سُنة فرناند برودل في مصنفه **البحر المتوسط وعالم البحر المتوسط في عصر فيليب الثاني**، فلا تأتي بهذا الملك على المسرح قبل تسع مئة صفحة خصصتها لمناقشة الجغرافيا والطقس والمحاصيل والحيوانات والاقتصاد والمؤسسات -أي كل شيء عدا الرجل العظيم نفسه، الذي كان في زمنه مركز الأشياء، لكنه بالتأكيد ليس كذلك في العرض التاريخي.[12]

من كان يتوقع أننا ندرس اليوم محاكم التفتيش بعيون طحان إيطالي من القرن السادس عشر، أو فرنسا قبل الثورة من منظور خادم صيني متمرد، أو سنوات الاستقلال الأمريكي الأولى عن طريق خبرات قابلة من نيوإنجلاند. إن أعمالًا مثل **الجبن والدود** تأليف كارلو غنزبيرغ و**مسألة هو** تأليف جوناثان سبينس و**حكاية قابلة** تأليف لوريل ثاتشر أولريخ جاءت نتيجة حسن الحظ الذي حفظ مصادر فتحت نوافذ على زمن آخر.[13] لكن المؤرخ هنا هو الذي انتقى المهم، ولا يختلف هذا عن حالة وصف معركة هاستينغز مثلًا، أو حياة لويس الرابع عشر. فقد عبر ملايين البشر نهر روبيكون على مدار آلاف السنين، كما قال إ.هـ. كار في كتابه **ما التاريخ؟** ونحن نقرر من نريد أن نكتب عنه.[14]

من المهام المزعجة محاولة تخمين ما سيختاره المؤرخون بعد قرنين أو ثلاثة ويعدونه مهمًا في عصرنا. ربما كان أحد الاحتمالات المحزنة مواقع الشبكة العنكبوتية المهجورة التي سنخلفها في الفضاء الافتراضي. فإذا كان روبرت دارنتون يستطيع إعادة بناء المجتمع الباريسي في القرن الثامن عشر بناءً على تقارير بائع كتب وأوراق مليئة بالنميمة والفضائح ووصف محاكمة قطط الأرستقراط وتعذيبها وإعدامها، فتخيل ما يمكن أن يفعله شخص مثله بما سيتبقى منا.[15] كل ما تستطيع تأكيده أننا

لن نُذْكر أساسًا بما نعده مهمًا بيننا أو بما نختار أن نخلفه في صورة وثائق أو أعمال فنية ستبقى بعد رحيلنا. على مؤرخي المستقبل أن يقرروا ما سينتجون من هذه الأشياء، فهم من سيفرضون المعاني، كما أننا من ندرس الماضي، وليس من عاشوا فيه.[16]

التزامن: يمنح التاريخ قدرة التزامن وهي تفوق الانتقاء إثارة للدهشة، فهي القدرة على الوجود في أكثر من مكان أو زمن واحد في الآن نفسه. وتحقيق هذا في قصص الخيال العلمي يستلزم إنشاء ممرات دودية وقاطعات أشعة وكل أنواع الآلات المعقدة، وفوق ذلك، نعتقد أن الحبكة بعدها تفقد تركيزها سريعًا. أما المؤرخون فمعتادون على زيارة أماكن عديدة في آن واحد؛ لأن دراستهم للماضي يمكن أن تمتد لتشمل موضوعات متعددة في الفترة الزمنية نفسها، كما تبين الأمثلة التي سقناها من ماكولي وآدامز، أو نقاط زمنية متعددة داخل الموضوع الواحد، كما يفعل القصص التقليدي، أو مزيج منهما.

ولنأخذ الوصف الكلاسيكي الذي يقدمه جون كيغان لمعارك أجنكورت ووترلو وسوم في كتابه وجه المعركة. لا يمكن أن يوجد إنسان شهد كل هذه الاشتباكات كاملة، ولا إنسان يستطيع أن يقارن بينها استنادًا إلى الخبرة المباشرة. مع ذلك يستطيع كيغان أن يأخذنا إلى هناك -في توسيع للآفاق الزمنية على طريقة أورلاندو- ليتيح لنا أن نرى المعارك الثلاث بوضوح شديد، على الرغم من أنه يقر في أول سطر من كتابه: «لم أشهد معركة قط، ولم أقترب من معركة، ولم أسمع واحدة من بعيد، ولا رأيت مخلفاتها.»[17]

وهناك في موضوع الآنية في المكان في زمن محدد كتاب رائع لكنه مهمل، وهو كتاب **ثقافة الزمان والمكان** تأليف ستيفن كيرن، الذي يجمع تطورات كثيرة في الدبلوماسية والتكنولوجيا والفنون في أوروبا والولايات المتحدة عشية الحرب العالمية الأولى، ليوثق تسارعًا في إيقاع الأحداث وتحولًا عن أنماط تمثيلها التقليدية التي لم تكن واضحة بحال أثناء حدوثها. ولقد انتظرت فيرجينيا وولف نفسها

حتى عام 1924 حتى تعلن مقولتها الشهيرة بأنه «في ديسمبر 1910، أو نحو هذا التاريخ، تغيرت الشخصية الإنسانية.» [18]

لا يمكن للمؤرخين أن يفهموا الأحداث التي يصفونها، والأهم من ذلك أن يقارنوا بينها، إلا أن يبتعدوا عنها، كما فعل كيغان وكيرن. فالمؤكد أن الفهم ينطوي على المقارنة: فإن فهم الشيء يعني رؤيته في علاقته بكيانات أخرى من الجنس نفسه، أما إذا امتدت هذه الكيانات على مساحات زمنية ومكانية تتجاوز القدرة البدنية للمراقب الفرد، فإن بديلنا الوحيد هو الوجود في عدة أماكن في آن واحد.[19] ولن يسمح لك بذلك إلا النظر من زاوية الحاضر -وهي موقع طوّاف فريدريش.

المقياس: تتجلى ثالثة الطرق التي تتجاوز بها آلات المؤرخين الزمنية قدرة مثيلاتها في قصص الخيال العلمي في السهولة التي يحولون بها مقياس التمثيل من الإجمالي إلى التفصيلي ثم العودة إلى الإجمالي. قد لا يبدو هذا مثيرًا للدهشة؛ لأنه جوهر أحد أدوات القص الأساسية، وهي الطرفة التمثيلية. ففي كل مرة يستخدم مؤلف حكاية معينة ليعبر عن فكرة عامة، يحدث تحول في المقياس، إذ يستخدم الشيء الصغير، لسهولة وصفه، ليمثل الكبير، الذي قد يتعذر وصفه، لكن إذا نظرنا مليًا، فإن نتائج هذا الإجراء قد تكون مدهشة.

من الأمثلة الجيدة على ذلك ما نجده في كتاب وليم هـ. ماكنيل. فبعد أن أتم أطروحته للماجستير صعود الغرب منذ نحو أربعة عقود، بدأ ينتج سلسلة كتب تبدأ من رؤى تفصيلية ثاقبة للطبيعة الإنسانية، ثم أخذ يوسعها لتكون تأويلات إجمالية جديدة لماضٍ ممتد. ركز أول عمل منها حرفيًا على شيء تفصيلي دقيق وهو كتابه **الأوبئة والشعوب** الذي نشر عام 1976 عن آثار الأمراض المعدية في تاريخ العالم. بين ماكنيل أن الأحداث الكبرى واسعة النطاق -مثل تدهور الإمبراطورية الرومانية وغزوات المغول والاستيلاء الأوروبي على الأمريكتين- لا يمكن تفسيره تفسيرًا مرضيًا بعيدًا عن عمليات تفصيلية لم نتمكن من فهمها إلا في السنوات المئة الأخيرة. فالمعروف الآن عن المناعات وغيابها يطرح زاوية رؤية جديدة على الماضي.

ولكـن هـذا النـوع الخاص من السـفر عبر الزمن لا يعمـل إلا عندما يكـون المؤرخ مسـتعدًا لتغيـير المقيـاس: أي ينظـر في عمل ظواهـر صغيرة جدًا حتـى إنها لم تلفت الانتباه في زمنها فيجد أنها شـكلت ظواهر كبيرة إلى درجة أننا كنا نتساءل دائمًا كيف ظهرت.[20]

فعل ماكنيل شـيئًا مشـابهًا في كتابـه البحث عن القـوة (1982)، حيث ركز على دور التكنولوجيـات العسـكرية في تحديـد موقع القوة السياسـية ومداهـا على مدار السـنوات الألف الماضية، وفي كتابه الأحدث معًا في الزمان (1995) الذي يبين أن أمرًا بسيطًا كالحركة الإيقاعية الجماهيرية -مثل الرقص والتدريب البدني والتمرينات الرياضية- يمكن أن تتيح قاعدة للتماسك الاجتماعي ومن ثم للتنظيم الإنساني.[21] المشترك بين هذه الكتب ليس السفر عبر الزمان والمكان فقط بل المقياس: أي القدرة على الانتقاء وعلى الوجود في عدة أماكن في آن واحد، ورؤية عمليات حال وقوعها أمامنا بوضوح على الرغم من أنها لم تكن كذلك في زمنها.

3

ليس أمام المؤرخين من خيار سـوى أن يسـتخدموا هذه الأشـكال من التلاعب بالزمان والمكان والمقياس -هذه الانحرافات عن التمثيل الحرفي- لأن التمثيل الحرفي لأي كيـان حقيقي سـيكون هو الكيان نفسـه وهذا ليس عمليًا. قـدم ديفيد هاكيت فيشر قائمة من خرافات المؤرخين التي ضحك منها أجيال عدة من تلاميذهم، وهو يقدم كذلك تفسيرًا قويًا لهذا الموقف. فالخرافة الكلية كما يقول: «هي الفكرة الخاطئة بـأن المـؤرخ ينبغي أن ينتقـي التفاصيل المهمة عن طريق فهمه للشيء كله.» مشـكلة هـذا المدخـل «أنه يمنع المؤرخ من معرفة أي شيء حتـى يعرف كل شيء وهذا عبثي ومسـتحيل.» إن دليل المؤرخ «دائمًا ناقص، ومنظوره دائمًا محدود، والشيء نفسه عالم

واسع من الأحداث المحددة دائم التمدد، ويمكن اكتشاف عدد لا نهائي من الحقائق أو المقولات المتعلقة بها.»[22]

إن ما وصفه فيشر، كما قال لي أحد تلاميذي من ذوي العقلية الرياضية، يعد مسألة في نظرية مجموعات. وأسهل طريقة لفهم هذا هو أن نأخذ الأعداد الصحيحة (1، 2، 3، 4، 5، وهكذا) ونطرح من المجموعة كل الأعداد الفردية (1، 3، 5، 7، 9 وهكذا) وستنتهي إلى ... الحجم نفسه للأعداد نفسها التي بدأت بها. وللمجموعة الفرعية وحدات كثيرة -عدد لا نهائي- مثل المجموعة الكلية. فللجزء حجم الكل نفسه.[23] يطرح عالم الفيزياء ستيفن هوكينغ فكرة مشابهة عندما يبدأ كتابه تاريخ موجز للزمن بطرفة عن محاضر يشرح عمل المجموعة الشمسية. في نهاية عرضه، تتقدم امرأة عجوز قليلة الحجم وتعلن في حسم: «ما قلته لنا مجرد قمامة، فالعالم في الحقيقة طبق مسطح على ظهر سلحفاة ضخمة.» فسألها المحاضر في صبر: «وعلى ماذا تقف السلحفاة؟» فردت قائلة: «سلاحف بعضها فوق بعض حتى النهاية.»[24]

ليست هذه الإجابة متهافتة، كما قد تظن؛ لأنه عندما نأتي إلى بعدي الزمان والمكان اللذين لا بد أن يتعامل معهما المؤرخون، نجد صورة السلاحف التي يقف بعضها فوق بعض حتى النهاية: أي إن الزمان والمكان لا ينفكان ينقسمان بلا نهاية. ولقد اتفقنا من باب التيسير على أن نقيس الزمن بسلسلة من الوحدات الاعتباطية سميناها قرونًا وعقودًا وأعوامًا وشهورًا وأيامًا وثواني -وفي المعتاد لا يخرج المؤرخون عنها. لكنهم يستطيعون ذلك، فهناك وحدات واحد على ألف من الثانية والنانو ثانية وما لا يعلمه إلا الله حتى نهاية المقياس، تمامًا كما توجد السنوات الضوئية والبارسيك(*) في نهاية الطرف الثاني.

إن محاولة تسجيل كل ما حدث لشخص عادي في يوم عادي في مكان عادي استغرقت من جيمس جويس أكثر من سبع مئة صفحة في رواية يوليسيس (عوليس). تصور إطلاق العنان لجيمس جويس لوصف نابليون في موقعة ووترلو

(*) تساوي 26.3 سنة ضوئية.

مثلًا، سيكون مستوى التفاصيل ضخمًا إلى درجة أن القراء سينامون قبل أن يرتدي الرجل العظيم (أقصد نابليون وليس جيمس جويس) ملابسه الداخلية، إن كان يرتدي ملابس داخلية. وهذه نقطة أحب أن أتركها لكل من يشعر بالحاجة إلى تقسيم التاريخ حتى هذا المستوى.[25]

ينطبق مبدأ قابلية الانقسام نفسه على المكان. ولنذكر السؤال الشهير لعالم الأجرام السماوية ريتشاردسون: ما طول ساحل بريطانيا؟ -الإجابة هي عدم وجود إجابة- لأن الأمر يتوقف على أشياء. هل تقيس بالأميال أو الأمتار أو الميكرونات؟ فالناتج سيختلف في كل حالة، ليس فقط نتيجة تحويل وحدة قياس إلى أخرى؛ لأنه كلما هبطنا على مدرج القياس، زادت انحرافات خط الساحل التي ستلقاها، وبذلك يزيد الطول أو يقل حسب الطريقة التي تقيس بها. مع ذلك، فكون بريطانيا كيانًا في مكان، فهي بلا شك كيان محدود لا يتمدد ولا ينكمش حسب طريقة نظرتنا إليها، بل إن طرق قياسنا إياها هي التي تتبدل.[26]

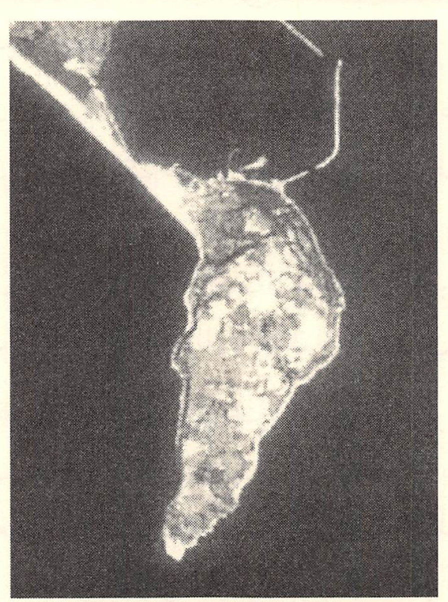
مرة أخرى، نفعل كما في حالة نابليون، نجري قياسًا تقديريًا ونتحرك. لا يستطيع أحد أن يعرف ما الذي فعله الإمبراطور في ذلك اليوم الكارثي، ولا يستطيع أحد أن يعرف إن كان ريتشاردسون على صواب، كم المسافة الفعلية بين لندن وأكسفورد. مع ذلك يعرف الناس دائمًا طريقهم بين هاتين النقطتين، وربما كان بعضهم يقرأ عن نابليون في ووترلو في الطريق.

إذا كانت طرقنا في القياس تجعل الكيانات قابلة للانقسام إلى كيانات أخرى إلى ما لا نهاية، طبقًا لنظرية المجموعات، فإن الوقاية الوحيدة من الإصابة بالهوس أثناء التعامل مع هذه المشكلة هي تجاوزها بترفع، بطريقة تشبه طريقة فيرجينيا وولف. فلا خيار أمامنا إلا أن نضع رسمًا سريعًا لما لا نستطيع تصويره بدقة، أن نعمم ونجرد. معنى ذلك أن أساليبنا في التمثيل هي ما يحدد ما نمثله. وبهذا نعود وفي أيدينا ما يقابل عدم اليقين لهايزنبيرغ عند المؤرخين: أي إن فعل المراقبة يغير الشيء الذي يراقب. معنى ذلك أن الموضوعية نتيجة لهذا تكاد تكون مستحيلة، وعليه فلا

يوجد شيء اسمه الحقيقة، مما يعني تأكيد رؤية ما بعد الحداثة التي تقرر هذه الأشياء جميعًا، وهو المطلوب إثباته،(27) أو هكذا يبدو الأمر.







صورة ثلاثة مناظر للخط الساحلي البريطاني ولا يكاد رأس بورتلاند يظهر في الصورة الأولى لكنه يظهر كشبه جزيرة صغيرة في الصورة الثانية وتفصيلًا في الثالثة. والقياسات المستندة إلى كل صورة منها تؤدي إلى نواتج مختلفة عن طول الخط الساحلي. مع ذلك فالصور الثلاث تمثل الخط الساحلي نفسه بدقة. (جلوب إكسبلورر Globe explorer)

4

لكـن قبل أن نقبل هـذه الخلاصة المزعجة، ينبغي أن نسـتقصي بعمق أكبر طبيعة الزمـان والمكان كما يفهمهـا المؤرخون. يعـرف لايبنيتس الزمن تعريفًا رشـيقًا بأنه «ترتيـب الأحـداث غير المتعـاصرة.»[28] وليس هـذا مرضيًا تمامًـا؛ لأن كلمات مثل «ترتيـب» و«متعاصرة» تقوم على مفهوم معين للزمـن، أي إن الكلمة تعرف بذاتها. ومن الصعب إيجاد وسيلة أفضـل من هذا؛ لأننا في الحقيقة نعرّف أنفسـنا بالطريقة نفسـها: فعندمـا نصف ما نحن عليه فإننا نعكس ما صرنـا إليه. وهكذا لا يمكن أن نقـف خـارج الزمان، فهو كـما قال مارك بلوخ: «البلازما نفسـها التـي تنغمس فيها الأحداث والمجال الذي تفهم فيه.»[29]

كيـف، إذن، نفكـر في شيء نحن جـزء منه ثم نكتب عنه؟ أعتقـد أننا نفعل هذا، أولًا، بإدراك أن الزمن نفسه بالرغم من أنه خط متواصل بلا انقطاع، لا يبدو كذلك لمن يعيشـون فيه. إن أي شـخص لديه الحـد الأدنى من الوعي يرى الزمن منقسـمًا، مثـل أهـل بلاد الغال القديمة، إلى ثلاثة أقسـام: ما يقع في الماضي، وما سـيحدث في المستقبل، والأصعب في الإدراك، هو ذلك الكيان المراوغ الذي نسميه الحاضر.

كان القديـس أوغسـطين يتشـكك في مجـرد وجود الحـاضر، ويصفـه بأنه «يطير بسرعـة مذهلة من مسـتقبلٍ إلى ماضٍ، بحيـث لا يطول بقاؤه بأي حـال.»[30] لكن المـؤرخ ر. ج. كولينغـوود، بعدهـا بخمسـة عشر قرنًـا، اتخذ الموقـف المعاكس تمامًا فيؤكد أن «الحاضر وحده هو الحقيقي»، وهو يضرب مثالًا من أكسفورد، فيقول إن الماضي والمستقبل لا وجود لهما إذا قارناهما «باللحظة التي نمشي فيها في شوارع هاي مرورًا بكوينز وماجدالين وأول سولز إجزيست.»[31] فما المشكلة هنا؟

ربما لم يسـمع أوغسـطين ولا كولينغـوود «بالفرائد الفلكية» وهي تلك الأشـياء الغريبـة التـي توجد في قاع الثقوب السـوداء (إن كان للثقوب السـوداء قاع) والتي لا يمكـن قياسـها، لكنهـا تحول كل ما يمر بها من الأشـياء القابلة للقيـاس.[32] وأنا

أفضـل أن أصـور الحـاضر كأحد الفرائـد الفلكية -أو مثـل قُمع- إذا أردنا تشـبيهًا أقرب إلى الأرض، أو ممر دُودِي، إذا أردت تشـبيهًا غريبًا، على المسـتقبل أن يمر منها أو منـه حتـى يكون ماضيًا. يحقق الحاضر هذا التحول عن طريق حبس علاقات بين متواصلات وعوارض في المكان: على جانب المسـتقبل من هذه الفريدة الفلكية هذه العلاقات جميعًا سـائلة غير مقرونة بشيء، مع ذلك ففي أثناء مرورها من هذا القُمع أو الممر الدودي تتداخل ولا يمكن فصلها. ويكون أثر ذلك مثل أثر جدائل دي إن إيه (DNA) أو السحَّاب (السوستة) يصعد لأعلى ليغلق غير أنه لا يفتح عندما ينزل.

أمـا المتواصلات فأقصد بها الأنسـاق التي تمتد عبر الزمن، وهي ليسـت بقوانين مثل الجاذبية أو الأنتروبيا، ولا هي نظريات كالنسبية أو الانتخاب الطبيعي، بل هي مجـرد ظواهـر تقع بقدر مـن الانتظـام كافٍ لأن تجعلنا نراها، وبدون هذه الأنسـاق لـن يكـون لدينـا أسـاس للتعميم بـشيء عن الخـبرة الإنسـانية. فلم نكـن لنعرف، مثـلًا، أن معـدلات المواليد تميـل إلى الانخفاض مع زيادة النمـو الاقتصادي، أو أن الامبراطوريات تنزع إلى التوسـع بما يفوق قدراتها، أو أن الأنظمة الديمقراطية تنزع إلى محاربة بعضها بعضًا. لكن لأن هذه الأنساق تظهر في الماضي بتكرار عالٍ، يمكننا أن نتوقـع أن تواصـل هذا في المسـتقبل؛ فالاتجاهـات التي صمدت عـدة مئات من السنين لا يتوقع أن تنقلب في عدة أسابيع قادمة.

وأقصد بالعوارض، الظواهر التي لا تشـكل أنسـاقًا، وقد تشمل تصرفات أفراد على أسـاس أسـباب لا يعرفهـا غيرهم: كأمثـال هتلر عـلى النطاق الواسـع وأمثال لي هـارفي أوزوالـد عـلى نطـاق خاص فـردي. ويمكن أن تشـمل كذلك ما يسـميه أصحاب نظرية الفوضى «اعتماد حسـاس على ظـروف أولية»، حيث يمكن لتحول غـير ملاحظ في بدايـة عملية ما أن ينتج تغيرات ضخمة في نهايتها.[33] وقد تنتج عن تقاطـع متواصلتـين أو أكثر: يعلم دارسـو الحوادث أنه عندما تجتمـع عمليات قابلة للتنبؤ في ظروف غير مسـبوقة، يمكن أن يترتـب عليهـا عواقب غير قابلة للتنبؤ.[34] المشترك بين هذه الظواهر جميعًا أنها لا تقع في نطاق الخبرة المتكررة أو المألوفة: فنحن على وجه العموم لا نعرفها إلا بعد أن تقع.

وعليـه، يمكـن أن نعرّف المسـتقبل بأنه المنطقة التـي تتعايش فيهـا المتواصلات والعـوارض في اسـتقلالية عـن بعضهـا بعضاً، والمـاضي بأنه المكان الـذي تثبت فيه علاقتهـا بلا رجعـة، والحاضر بأنـه الفريدة الفلكيـة التي تجمعهما، وهكـذا تتقاطع الثوابـت مـع العـوارض وتواجـه العـوارض الثوابـت ومـن هـذه العمليـة يصنع التاريخ. [35] وبرغم أن الزمن نفسه ليس مركبًا على هذا النحو؛ لأن أي فرد عالق في الزمن –ومن ليس بعالق فيه؟– يرى أن هذا التمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل أقرب إلى الإجماع الإنساني. فنحن ندرك الزمن بطريقة ترتبط بذواتنا. لكن كما بينت فرجينيا وولف، هناك اختلاف بين الكائن فعلًا وطريقتنا في تمثيله.

5

يكفـي هـذا عن الزمان، فـماذا عن المكان؟ في سـياقنا هذا سـنعرفه ببسـاطة بأنه «موضـع وقوع الأحـداث، وباعتبار أن «الأحداث» ممرات من المسـتقبل عن طريق الحـاضر إلى الماضي.»[36] مـن الوهلة الأولى، لا يوجد إدراك إنسـاني عام بأن المكان منقسم إلى أجزاء منفصلة كالزمان. أما المألوف من أبعاد الطول والعرض والارتفاع فهـي أعراف اتخذناها لقياس المكان، كما اتخذنا السـاعات والدقائق والثواني لقياس الزمن. لكنها ليسـت مفاهيم للمـكان، برغم توازيها مع تقسـيماتنا للزمن إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل.

إن كان للمكان هذا النوع من التقسيم، فأظن أن سببه التمييز بين الواقعي والتمثيل بالخرائـط. فالمؤكد أن عمل الخرائط قديـم وموجود في كل مكان مثل فهمنا الثلاثي للزمـن. كلاهمـا يختزل المعقـد اللانهائي إلى إطـار مرجعي محدد سـهل التناول. [37] وكلاهمـا يتضمـن فرض رسـم تخطيطـي مصطنع –سـاعات وأيـام وخطوط طول وعرض– على مشاهد زمنية أو مكانية، أو لنقل «مشهزنية» و«مشهكانية»، وكلاهما

يقدم طريقة لعكس قابلية الانقسام واستعادة الوحدة واسترداد حس الكل، على الرغم من استحالة أن يكون الناتج هو الكل.

إن من يحاول تمثيل كل شيء في مشهد مكاني محدد فإنه يحاول عبثًا، كمن يحاول أن يحكي كل ما وقع فعلًا في ووترلو أو أي مكان آخر. فالخريطة مثل الحكاية، لا بد أن تصير ما تمثله، وهذه حالة لا يتخيلها إلا الخبراء بعالم العبث أمثال لويس كارول أو خورخي لويس بورخس. يكتب بورخس، مثلًا، عن إمبراطورية حيث:

> بلغ فن الخرائط حد الكمال حتى إن ... أعضاء طائفة رسامي الخرائط وضعوا خريطة للإمبراطورية بحجم الإمبراطورية وتصادف أنها تطابقت معها في كل نقطة. أما الأجيال التالية، التي لم تكن مهتمة بعلم الخرائط ... فقد رأوا أن الخريطة الشاسعة ليست لها فائدة ... وألقوا بها إلى عواصف الشمس والشتاء. وفي صحراوات الغرب، ما زالت حتى الآن هناك بقايا مهلهلة من تلك الخريطة يسكنها الحيوانات والمتسولون.[38]

عندما نرسم الخرائط فإننا نتجنب الحرفية؛ لأننا لو فعلنا غير هذا لما كنا نمثل على الإطلاق، بل نستنسخ. سنجد أنفسنا غرقى في التفاصيل وسيضيع «التكثيف» المطلوب لفهم الخبرة الافتراضية ونقلها.

هذا ما تفعله الخرائط بحذافيره: تكثف خبرات الآخرين بهدف مساعدتك للانتقال من حيث أنت إلى حيث تريد أن تذهب. تخيل قدر الوقت الذي سيهدر إذا كان على كل مسافر من أكسفورد إلى لندن أن يبحث عن الطريق، مثل الجزيئات التي تتقافز داخل كأس أو قرود تجلس إلى لوحات مفاتيح حاسوب. تخيل خطورة إرسال سفن إلى البحر دون أدوات لمعرفة مواقع الصخور والمياه الضحلة. تخيل الخطر في السفر جوًا من دون أجهزة بث ورادار، وحاليًا أنظمة إرشاد بالأقمار الصناعية التي تضع طرقًا افتراضية في سماء لا ملامح لها. وسواء اتخذت الخرائط

شكل العلامات المرتجلة في الرمل أم الرسوم البيانية الحاسوبية شديدة التعقيد، فإنها تشترك جميعًا في شيء يفعله المؤرخون وهو حزم الخبرة الافتراضية.

لكن بالرغم من نفع الخرائط الذي لا شك فيه، فليس هناك ما يُسمّى خريطة صحيحة واحدة فقط.[39] فشكل الخريطة يعكس غرضها. فخريطة طريق سريع ستبرز ملامح معينة من المشهد وتهمل أخرى: فأنت تحتاج إلى أن ترى الطرق الفرعية وأرقامها والمدن التي تمتد بينها. ولا تحتاج إلى أن تعرف طبيعة التربة أو النباتات أو خط الصدع الجيولوجي بطول الطريق (عدا بعض المناطق في كاليفورنيا). وينطبق هذا على مقياس الرسم: فأنت لا تحدد خط رحلة بالسيارة على نموذج للكرة الأرضية، لكنك ترسم مسار خط جوي بين القارات. ولا توجد خريطة تقول لك كل ما يمكن معرفته. لكن الخرائط عمومًا تمدك بما يكفي للانتقال من هنا إلى هناك، وفي هذا الكفاية عمومًا.

6

ما معنى أن ننظر إلى التاريخ بوصفه نوعًا من رسم الخرائط؟ إذا كان الماضي مشهدًا والتاريخ هو طريقتنا في تمثيله، كما قلت سابقًا، فالقياس صحيح؛ لأن هذا سيقيم الصلة بين إدراك النسق بوصفه الشكل الأساسي في الفهم البشري وكون التاريخ كله -حتى أبسط القصص- يعتمد على إدراك هذه الأنساق. ويسمح هذا بمستويات مختلفة من التفصيل، ليس انعكاسًا لمقياس الرسم فقط، بل للمعلومات المتاحة في وقت ما عن مشهد معين جغرافيًا كان أو تاريخيًا. لكن الشيء الأهم هو أن هذه الاستعارة تسمح لنا بالاقتراب من طريقة المؤرخين في التأكد من صدق ما عرفوه.

تجري عملية الاستوثاق عن طريق توفيق التمثيلات مع الواقع. لديك المشهد الحقيقي ولكنك لا تريد استنساخه. في ذهنك أسباب لتمثيل المشهد، فأنت تريد أن

تعـرف طريقك في المشـهد الحقيقي دون الحاجة إلى الاعتماد على حواسـك المباشرة، وعليـه فأنت تسـتند إلى خـبرة الآخرين التي جـرى تعميمها. وأنـت تملك الخريطة نفسها، وهي نتيجة التوفيق بين الموجود في الواقع فعلًا، وما يحتاج أن يعرفه مستخدم الخريطة عن الموجود في الواقع.

تزيد دقة هذا التوفيق بزيادة دقة استقصاء المشهد. وعادة ما تكون الخرائط الأولى للمناطق المكتشـفة حديثًا رسـومًا أولية سريعة لخط سـاحلي به مناطق خالية كثيرة، وربما بعض الوحوش البحرية أو التنانين التي تحتلها. ومع تقدم عملية الاستكشاف، تصـير ملامـح الخريطة أكثر دقـة وتبدأ الوحـوش في الاختفاء، ومـع الوقت تتعدد الخرائط التي تمثل المنطقة نفسها حسب اختلاف الغرض، مثل إبراز الطرق أو المدن أو الأنهار أو الجبال أو الموارد أو الطبوغرافية أو الجيولوجيا أو السـكان أو الطقس، أو حتـى كثافة المـرور -وبالتالي احتـمال الاختناقات المرورية- عـلى الطرق الفرعية المرسومة بدقة في خرائط أخرى.

وعلى ذلك فإن الاستوثاق من الخرائط، عملية نسبية تمامًا: أي يتوقف على درجة إتقان صانع الخريطة للتوفيق بين المشـهد الذي ترسـم خريطته ومتطلبات من تصنع لـه الخريطة. وعـلى الرغم من عدم التحديد هذا لا أعرف معتنقًا للفكر بعد الحداثي ينكـر وجود المشـاهد، أو فائـدة تمثيلها. وليس من الحكمـة في شيء أن ينكر البحارة وجود الخط السـاحلي البريطاني لمجرد أننا لا نسـتطيع أن نحدد طوله بدقة، أو أنهم يسـتطيعون أن يبحروا فيه، ولا من الحكمة أن يقرر المؤرخون أنهم لا يستطيعون أن يعرفوا أي شيء عما حدث في الزمان والمكان؛ لأننا لا نملك أسسًا مطلقة لقياسهما.

الفصل الثالث

البنية والعملية

تختلف المشاهد التاريخية، مع ذلك، عن مشاهد الخرائط في جانب مهم وهو أنها لا يمكن معاينتها ماديًا. فإن أي شخص يرسم خريطة لأبعد المناطق على سطح الأرض يمكنه أن يزورها أو على الأقل يصورها ضوئيًا، ولا يستطيع المؤرخون ذلك. «لا يوجد عالم مصريات رأى رمسيس قط» كما يقول مارك بلوخ في كتابه حرفة المؤرخ. ويقول أيضًا: «ما من خبير في حروب نابليون سمع قط صوت المدفع يدوّي في أوسترليتز.» فالمؤرخون «في ورطة تشبه ورطة محقق الشرطة الذي يسعى إلى استحضار جريمة لم يرها، أو عالم فيزياء حبسه المرض في سريره ويسمع نتائج تجاربه من خلال تقرير فني مختبره فقط.» يترتب على هذا أن المؤرخ «لا يصل مطلقًا إلا بعد انتهاء التجربة. ولكن إذا كانت الظروف مواتية، تترك التجربة رواسب معينة يمكن أن يراها بعينيه.»[1]

إذا كان الزمان والمكان يمثلان الميدان الذي يحدث التاريخ فيه، فإن البنية والعملية تمثلان الآلية. إن البنى التي بقيت حتى الحاضر هي تلك «الرواسب المعينة» -التي يذكرها بلوخ- ومنها نعيد بناء العمليات التي لا نستطيع معاينتها لأنها وقعت في الماضي. يقول عالم الاجتماع جون غولدثورب إن «الحقيقة التاريخية هي استنتاج استخلص من آثار.»[2] وقد تكون هذه الآثار عظامًا وبرازًا، أدوات

وأسلحة، أفكارًا عظيمة وأعمالًا فنية، أو وثائق أودعت الأرشيف، لكنها في كل الحالات نتيجة عمليات ما. ويمكننا إدراك هذا من البنى التي تخلفها.

إحدى الطرائق الجيدة لاستحضار هذا هي ببساطة عملية شق الطرق. يحب علماء الجيولوجيا عمليات شق الطرق؛ لأنها تكشف التعرجات والطيات والتركيبات الغريبة في طبقات الأرض، والبنى التي تُمكّن الباحث من استنتاج عمليات تمتد إلى ملايين السنين مضت بل بلايين السنين. فهي كما قال جون ماكفي: «نوافذ على العالم كما كان في أزمنة أخرى.»[3] ولم تكن لعمليات شق الطرق هذه أن توجد لولا قرارات اتخذت حديثًا، مما يجعلها جزءًا من الحاضر الجيولوجي، لإنشاء قنوات وسكك حديدية وطرق سريعة.[4] إن تمييز الجيولوجيين بين البنية والعملية يماثل التمييز بين الحاضر، حيث توجد البنى، والماضي الذي تنتمي إليه العمليات التي أنتجت البنى. فهل هذا التمييز قائم لدى المؤرخين؟ هذا هو السؤال الذي أود أن أستكشفه هنا، وخير نقطة بداية هي الجدل القديم حول ما إذا كان التاريخ علمًا.



إنشاءات طريق سايد لنغ هيل 68-I غربي ميريلاند (بإذن من هيئة المساحة الجيولوجية في ميريلاند) تصوير بول بريدنغ

1

يقـول إ. هـــ. كار في محاضرات تريفيليان التي ألقاهـا في 1961: «كما هو متوقع انبهرت منذ نعومة أظفاري عندما عرفت أن الحوت ليس من الأسماك، بغض النظر عـن المظاهـر. ولكن هذه الأمور المتعلقة بالتصنيف لم يعد لها الآن ما كان لها عليّ من تأثـير. ولا يقلقني، ولا ينبغي أن يقلقني، إصرار أحد على أن التاريخ ليس علمًا.»[5] فـإذا أردنا أن نفكك هـذا القول لوجدنا عدة معانٍ محتملـة. الأول: أن التاريخ علم بالفعل. والثاني: أنه ليس علمًا. والثالث: أن كار اعتاد على إزاحة المبهمات، كما يزيح الندلاء في مآدب جامعتي كامبريدج وأكسفورد بقايا الطعام.[6]

مـع ذلك، أنا أميل للاعتقـاد -كما توحي محاضرات كار- بـأن القضية لا يمكن أن تسـتبعد بهـذه السـهولة؛ لأن العلم له ميزة فوق كل أشـكال البحـث، فقد أثبت أنه قادر على اسـتخلاص الاتفاق على صحة النتائج عبر الثقافات واللغات المختلفة ومختلـف المراقبـين. فـإن بنيـة دي. إن. إيه (DNA) تبدو بالشـكل نفسـه للباحثين في سـويسرا وسـنغافورة وسريلانكا، كـما أن أجنحة الطائرات تتحمل الضغط نفسـه، سـواء كانت خطوط الطيران تدار باحتكار الدولة ودعمها أم كانت مشروعًا تجاريًا يتحمل الأفراد مخاطره. ولا يكاد الفلكيون المسيحيون والمسلمون والبوذيون يجدون صعوبة في الوصول إلى إجماع بشأن أسباب الكسوف والخسوف أو حركة المجرات.

بالطبـع هنـاك طـرق أخـرى لحسـم هـذه المسـائل، فهناك مـن يفحص أحشـاء الحيوانـات ومـن يقـرأ أوراق الشـاي أو يقرأ الطالع أو يلتمس إرشـادًا مقدسًـا، أو يبحث في غرف الدردشـة على الإنترنت. سـتصل بالتأكيـد إلى نتائج، لكنك لن تجد كثيريـن يوافقـون على دقتها. يقول جون زيمان: «إن ميزة العلـم أنه يقدم إجماعًا على رأي عقلاني على أوسع نطاق ممكن.»[7]

صحيـح أننـا لا نتوقـع أن تعمل كل المناهج العلمية بالدقة نفسـها، أو تكتسـب القدر نفسه من الاتفاق الواسع، عندما يتعلق الأمر بدراسة شئون الإنسان. والسبب

واضـح: إن الوعي -وربما كان الأحـرى أن أقول العناد- يمكن أن يعطل عمل كل أنـواع القوانين التي تحكم سـلوك الجزيئات أو تيارات الهواء أو الأجرام السـماوية. ذات مرة ذكر عالم السياسـة سـتانلي هوفـمان زملاءه بأن الناس ليسـوا «غازات ولا مكابس»[8] لكنني لا أرى سببًا يجعل هذه الصعوبة تمنع تطبيق معيار زيمان الذي على المؤرخـين أن يسـعوا إلى بلوغه ولو لم يدركوا ذلك قـط -أي إجماع على رأي عقلاني على أوسع نطاق ممكن.

وليـس عليـك التعمق في قراءة كار لتكتشـف أنـه يعتقد هذا أيضًـا، بالرغم من مقولتـه عـن الحيتان والأسـماك، وكذلك مارك بلـوخ. لقد رأى الرجـلان في العلم نموذجًـا للمؤرخـين، ليـس لاعتقادهمـا بـأن المؤرخـين يصـيرون أو ينبغـي لهم أن يصـيروا أكثر علميـة، بل لأنهما كانا يريـان العلماء يصيرون أكثـر تاريخية. يقول كار إنـه مـع إنجازات تشـارلز ليل في الجيولوجيا، وتشـارلز داروين في علم الأحياء في القـرن التاسـع عـشر «لم يعد العلـم يختص بشيء ثابـت لا زمني، بـل بعملية التغيير والتطور.»[9] ومثل ذلك يقول بلوخ إذ ركز على تطورات القرن العشرين:

> إن النظرية الحركية للغازات وميكانيكا أينشتاين ونظرية الكوانتم (الكم) غيرت مفهوم العلم، الذي كان بالأمس محل اتفاق عام... فالمؤكد أنها وضعت الاحتمال المطلـق محـل القابل للقياس بدقة، أي مفهوم النسـبية الأبدية للقيـاس ... وعليه فنحـن مهيئـون على نحـو أفضل للإقرار بـأن أي مجال علمي لـه أن يدعي مكانة العلم دون الإصرار على الالتزام بالبراهين الإقليدية أو قوانين التكرار الثابتة ... لم نعد مضطرين إلى فرض نسـق فكري موحـد على كل موضوع من موضوعات المعرفة مسـتعار مـن العلم الطبيعي؛ لأنه في هذا العلم نفسـه لم يعد النسـق قابلًا للتطبيق بكامله.[10]

فاكتشـاف العلـماء أن الموجود في الحاضر لم يكن موجـودًا دائـمًا في المـاضي، وأن الأشياء والكائنات الحية تتطور عبر الزمن ولا تظل على حالها طوال الوقت، جعلهم

يتجهـون إلى استخلاص البنـى من العمليـات، أي باختصار، أدخلـوا التاريخ على العلـم. ونتيجـة لهذه النقلة من رؤية ثابتة إلى أخـرى تطورية، كما يخلص كار، «صار لدى المؤرخ مبرر للشـعور بالانتماء إلى عالم العلم اليوم أكثر مما كان يشـعر به منذ مئة عام.»[11]

كتب كار تلك الكلمات منذ أربعة عقود، فهل ما زالت مقبولة الآن؟ أظن ذلك، إن حددت نوع العلم الذي تقصده.

2

مفتـاح الإجمـاع في العلم هو قابلية إعـادة الإنتاج: إذ يتوقع أن المشـاهدات التي تتـم في ظـروف متكافئة تـؤتي ثمارًا متوافقـة توافقًا كبـيرًا.[12] فالرياضيـون يعيدون حسـاب (ط π)(*) بلايـين المـرات في كل مـكان بثقة مطلقة في أن قيمتها سـتظل كما كانت لآلاف السـنين.[13] ولا يقل هذا الثبات إلا قليلاً في الفيزياء والكيمياء، فعلى الرغم من أن الباحثين لا يمكنهـم دائمًا أن يعرفوا يقينًا ما يحدث على المستويات دون الـذرة، فالأغلب أنهم يحصلون على نتائج متشـابهة عندما يجـرون تجارب مختبرية في ظـروف متشـابهة، والأرجح أن هذا سيسـتمر في المسـتقبل. أما الاسـتوثاق في هذه العلـوم فيتكرر بتكـرار العمليات نفسـها وذلك بتكثيف الزمان والمـكان والتحكم بهما. وكأن التاريخ نفسـه يعاد تشـغيله. بهـذا المعنى، لا يمكن للمنهـج التاريخي أن يقترب من المنهج العلمي.

لكن ليـس كل العلوم تعمل هكذا، ففي مجالات مثل الفلك والجيولوجيا وعلم الحفريـات(**) "الإحاثـة" (paleontology) وعلـم الأحياء التطوري، نـادرًا ما تتوافق

(*) النسبة بين محيط الدائرة وقطرها (ثابت الدائرة)

(**) علم يبحث في أشـكال الحياة في العصور الجيولوجية القديمة عن طريق دراسة المتحجرات الحيوانية والنباتية.

الظواهـر داخل المختبرات، والزمن المطلوب لرؤية النتائـج يمكن أن يتجاوز أعمار مـن يطلبونهـا.[14] لكن هذه العلوم تعتمـد على التجارب الذهنيـة: أي إن الباحثين يكـررون في عقولهم -وربـما حاليًا في برامج المحاكاة على حواسـبهم- ما تعجز عن تكـراره أنابيب الاختبار وأجهزة الطرد المركـزي والمجاهر الإلكترونية، ثم يبحثون عن دليل يرجح اقتراب إحدى هذه العمليات العقلية من تفسـير مشاهداتهم المادية المبـاشرة. إن قابلية إعادة الإنتاج تعني إجماعًا على أن هذه الارتباطات تبدو معقولة. فالطريقـة الوحيدة المتاحة ليتمكن هؤلاء العلماء من إعادة التاريخ هي تخيله، لكنهم لا يفعلون ذلك إلا في حدود المنطق. فلا يعزون ما لا تفسـير له إلى الجن أو السـحرة أو زوار من خارج الأرض، ثم يتوقعون أن يقنعوا زملاءهم أن نتائجهم سليمة.[15]

كيـف يفـسر الجيولوجيون، بمعزل عـن هذه التجـارب الذهنية، كـون طبقات الأرض، المفـترض أن لا تتكـون إلا أفقيًـا، مائلـة أو متعرجـة بـل رأسـية في أحيان كثـيرة؟ أو كيف يدخل الغرانيت في طبقات الحجر الجيري؟ وكيف يفسرون وجود قواقـع بحريـة على ارتفاع آلاف الأقدام على بعد مئـات الأميال من أقرب بحر؟[16] وكيف يفهم علماء الأحياء أعضاء الجسم التي ليست لها وظيفة ظاهرة: مثل الأقدام الآثارية عند الحوت، أو إبهام الباندا أو عظمة الذيل لدى الإنسان؟[17] ولماذا تختلف الجينـات البشريـة اختلافًا طفيفًا عن جينات البراغيث والديـدان والذباب والقرود والفئـران؟[18] وكيف لعلماء الفيزياء الفلكية أن يفسروا أصول الكون؟ في كل حالة مـن هذه الحـالات بقيت البنـى التي لا تفسرهـا إلا عمليات ماضيـة: مثل الصعود الجيولوجي ثم الانهيار الذي سـببته الصفائح التكتونية، أو تطور الأنواع الناتج عن الانتخاب الطبيعي أو الإشعاع الترسبي المتخلف عن الانفجار الكبير.

لا تكفي التجارب المعملية لاختبار صحة هذه التفسـيرات؛ فالتجارب المطلوبة لإثبات تفسـيرات داروين تحتاج مئات الملايين من السنين. تصور ألفريد ويجنر كرة أرضية كاملة يمكن تحريك القارات عليها فتضم وتُبعد. أما تجارب ألبرت أينشتاين فلـم يتجـاوز حجمها معمله فحسـب؛ بل المجـرة التي يعيش فيهـا. قرنت كل هذه الثورات العلمية الخيال بالمنطق لتسـتدل عـلى عمليات ماضية من بنى حاضرة. ولا

ينطـوي هذا على أي اسـتثناءات؛ لأن هذا هو ما يحدث كل يـوم في متاحف التاريخ الطبيعـي أمام جماهـير الأطفال الناقدة. مـا معنى إعادة بنـاء الديناصورات وغيرها مـن الكائنات العتيقة من الحفريات إلا بالتوفيق بين لحم متخيل وعظم باقٍ، أو على الأقل تصورات لها.[19] وينبهر الأطفال بذلك انبهارًا ملحوظًا في أغلب الأحيان.

هنا يمكن أن تلتقي مناهج المؤرخين وعلماء الطبيعة -على الأقل العلماء الذين لا يمكنهـم التحقق من قابلية إعـادة الإنتاج داخل المختبر؛ لأن المؤرخين أيضًا يبدأون ببنى باقية من الماضي، سواء كانت سجلات أرشيفية أم أعمالاً يدوية أم حتى ذكريات، ثم يستخلصون العمليات التي أنتجتها. ومثلهم مثل علماء الجيولوجيا والحفريات، عليهـم أن يتعاملـوا مع دلائـل مربكة بل متناقضـة. ومثل كل علـماء الطبيعة الذين يعملـون خـارج مختبراتهم، لا بد أن يسـتخدم المؤرخـون المنطق والخيـال ليجتازوا الصعاب الناتجة، وهذا ما يكافئ عندهم التجارب الذهنية، إن صح القياس.

بهذا المعنى، أعتقد أن ر.ج. كولينغوود كان على صواب عندما أكد استحالة فصل المـاضي عن حاضر المـؤرخ: لأن الحاضر هو محل إجراء التجـارب الذهنية.[20] ولا يعنـي هـذا أن الماضي لم يكن له وجود، فمن دونه لن يوجد ما تُجرى عليه التجارب. ولتمثيـل هذه النقطة أسـتحضر مثالين لكيفية اسـتخدام المؤرخـين المختبر الذي في عقولهم لإعادة بناء العمليات الماضية من البنى الباقية.

يـروي كتاب لوريل ثاتشر أولريخ حكاية قابلـة حياة مارثا بالارد، وهي امرأة لم يكن يعرفها أحد خارج قريتها «مين» في نهاية القرن الثامن عشر، على أساس مصدر وحيد بـاقٍ: وهو يوميات موجزة كانت تكتبها، ليس للأجيال التالية، بل لتسـجيل ما تنفقه من أجور مقابل خدمات. تكسو أولريخ هذه الحفرية الأرشيفية لحمًا بطرق عـدة، وقد أهملهـا المؤرخون الرجال من أجيـال متعاقبة، فهي تسـتخدم معلومات مـن مصادر أخرى عن الزمان والمكان الذي عاشـت فيه بالارد؛ وتخيُّل كيف كانت تفهم بالارد موقفها وتسـعى إلى السيطرة عليه، باسـتخدام علاقات النوع والأسرة

ومقارنتها بما تعيشه النساء حاليًا. هذا الكتاب تدريب باهر النجاح على الحفريات التاريخية.[21]

وعلى العكس من ذلك، يعمل كتاب جارد دايموند بنادق وجراثيم وفولاذ من داخل حالة معاصرة -وهو انتشار عدم المساواة في العالم كله- في محاولة لتحديد كيف ظهرت. يدرس المؤلف ثقافات عديدة، بعضها متقدم، وبعضها غير ذلك، لكنها بقيت إلى الآن. فيتتبع ماضيها حتى جذورها قبل التاريخ، عندما كانت كل المجتمعات تقريبًا متساوية، ثم يجري تجارب ذهنية ليفسر ما حدث لها عبر الزمن، وكانت النتائج التي توصل إليها مدهشة: هناك محور الشرق -الغرب كما في آسيا وأوروبا (يوراسيا) أتاح الحركة على خط عرض واحد تقريبًا؛ مما سهل تبادل البشر والنظم الاقتصادية والأفكار والجراثيم التي تبني أنواع المناعة -وهي ليست أقل هذه الأشياء أهمية. أما محور الشمال -الجنوب، كما في إفريقيا وأمريكا الشمالية والجنوبية، فقد منع هذه الحركة. وبسبب الصفائح التكتونية في المقام الأول ساد أهل أوروبا وآسيا العالم.[22]

من الصعب إيجاد عملين تاريخيين أشد اختلافًا من هذين من حيث النطاق والمقياس. مع ذلك، فهما يشتركان في المنهج، إذ بدأ كل منهما ببنية باقية -يوميات بالارد في حالة أولريخ وعدم المساواة في العالم كله في حالة دايموند. وسعى كل منهما عن طريق التجارب الذهنية إلى أن يستخلص العمليات التي كانت وراء نشأة هذه البنية. وكل منهما يفعل ذلك وعينه على الدلالة المعاصرة لهذه النتائج، وكلاهما يجمعان المنطق إلى الخيال. وكلاهما فازا بجائزة البوليتزر.

لكن ألا يجمع الروائيون والشعراء وكتاب المسرح بين المنطق والخيال؟ المؤكد أنهم يفعلون ذلك، ولكن بطريقة مختلفة. فالفنانون يملكون استحضار موضوعات من الفراغ، إن شاءوا، ولا يملك المؤرخون ذلك. فلا بد أن يكون لموضوعاتهم وجود حقيقي. ويملك الفنانون أن يتعايشوا في الزمان مع موضوعاتهم، فيغيرون كما يشاؤون، وليس للمؤرخين ذلك أبدًا. لهم أن يغيروا طرق تمثيلهم للموضوع،

وليس الموضوع نفسه. فلا بد أن يكون خيال المؤرخ «من القوة بحيث تكون روايته مؤثرة.» فقد كتب ماكولي مرة يقول: «مع ذلك، عليه أن يتحكم فيه [خياله] تحكمًا كاملًا بحيث يقنع بالمواد التي يجدها، وأن يتفادى ملء الفراغات بإضافات من عنده.»[23] فالخيال في التاريخ، إذن كالخيال في العلم الطبيعي، لا بد أن تقيده المصادر وتضبطه، وهذا ما يميزه عن الفنون وغيرها من طرق تمثيل الواقع.

فهل التاريخ علم؟ طرحت السؤال مؤخرًا على عدد من طلاب السنة النهائية بجامعة ييل، وكانت الإجابة التي قدمها أحدهم معقولة جدًا، فقال بدلًا من ذلك ينبغي أن نركز على تحديد أي العلوم هي علوم تاريخية.[24] يقع التمييز على الخط الفاصل بين قابلية التكرار الحرفي بوصفها معيار الاستوثاق -أي إعادة التجارب داخل مختبر- وقابلية التكرار الافتراضي وهي ترتبط بالتجارب الذهنية. وسيميز بين الاثنين إمكانية معاينة العمليات من عدمها.

3

لم يخترق جيولوجي واحد من القشرة الأرضية أكثر من أميال قليلة، مع ذلك يقولون لنا بثقة عما يحدث في باطنها ويجعل القارات تنزاح ويسبب الزلازل على سطحها. ولا يوجد عالم حفريات رأى ديناصورًا حيًا بعينيه، مع ذلك يعيدون بناء طريقة حياة هذه المخلوقات وموتها بطرق تقنع زملاءهم -ناهيك عن الأطفال الصغار- بأنهم يعرفون ما يتحدثون عنه. ولم يبلغ عالم فلك وراء مدار الأرض، مع ذلك فمن منظورهم المحدود جدًا يرسمون خريطة الكون، وباستثناء عدد قليل من علماء الأحياء الذين تتبعوا تغير أشكال مناقير عصافير الدوري في غالاباغوس، لم يشهد منهم أحد عملية الانتخاب الطبيعي بعيدًا عن المستوى المجهري، مع ذلك يقوم علم كامل عليه.[25] فإذا كان هذا كله يشبه ما يقوله مارك بلوخ عن غياب شهود العيان الأحياء عن موقعة أوسترليتز، فهناك سبب قوي لذلك.

سبب هذا أن التاريخ والعلوم التطورية تمارس الاستشعار عن بعد على الظواهر التـي لا يمكن التفاعل معها مباشرةً. فهم مجـازاً في موقع طواف فريدريش على قمة جبله لا يسـتطيعون ببساطة أن يروا بسبب الضباب والسديم، لكنهم مضطرون أن يجدوا سبلاً لتحديد ما يقع خلفها، وأن يمثلوا كل ما يجدونه بطريقة تقنع المخاطبين بـأن هـذا التمثيل دقيق بدرجة معقولة. والمؤكد أنهـم يعتمدون على المنطق والخيال، لكـن هنـاك أيضاً تتابع إجـراءات معين ينبغـي اتباعه لإنجاز هذه المهمة. وسـأقدم مثالين مختلفين للاستشـعار عـن بعد، أحدهما من التاريخ الحديـث والآخر من قبل التاريخ.

ربما كان المثال الأول أشـهر حالة تاريخية للاستشـعار عن بعد، وهو اكتشـاف الصواريـخ الروسـية متوسـطة المدى وبعيدة المـدى في كوبا في أكتوبـر 1962. تبدأ القصـة باكتشـاف طائـرات التجسـس والتصوير يـو2 الصواريخ نفسـها التي ظن الزعيم السـوفيتي نيكيتا خروشـوف أنه يمكن إدخالها الجزيرة سرًا لصعوبة تمييزها عـن النخيـل.[26] كان ذلك تطورًا غير منظور، فلم يكن أحد في واشـنطن يتوقع أن تتـصرف قيادة الكرملين على هذا النحو المتهور، أو أن تقديراتها الاسـتخباراتية بهذا السـوء -عـلى الأقل فيـما يخص طبيعـة النخيل. فقـد كان الدعم العسـكري المتوقع أقـل اسـتفزازًا، ولهذا كانت طائـرات يو2 تطير فوق كوبا. عندما اكتشـفت إحداها الأشـكال التي تشـبه مواقع الصواريخ في الاتحاد السـوفيتي -المعروفة من طلعات جوية سـابقة فوقه بنوع الطائرات نفسـها- أدرك محللو الصور فورًا ما يرونه، برغم أنهـم لم يكونوا يبحثون عنه. أقنع المحللون الرئيس كينيدي بما اسـتنتجوه عن طريق إبراز التشـابه.[27] يمكن تقسيم هذه الواقعة إلى ثلاث مراحل: الواقع على الأرض، ما تبين للخبراء من هذا الواقع، وما أقنعوا به رؤساءهم.

تأتي حالتي الثانية من علماء الحفريات، وهم أيضًا يمارسون نوعًا من الاستشعار عن بعد قائـمًا على تحليل العظام والقواقع والحفريات. يقتضي تمثيل المخلوقات التي خلفت هذه الأشياء الجمع بين الملاحظة والوصف الدقيقين لما بقي، مع القدرة على تخيل شكل الحياة منذ مئات الملايين من السنين. وكما في حالة أزمة الصواريخ، ينبغي

مقارنـة الأدلة المكتشـفة حديثًا بما هو معـروف بالفعل. لكن الأمـر يحتاج من علماء الحفريـات أكثـر من مجـرد التصنيف؛ لأنهم لا بـد أن يقنعوا زملاءهم بـأن نتائجهم مقبولـة. ولا يكفي بأيـة حال أن يؤكدوا أن الأولوصوروص كان يرعى صغاره، أو أن الأركيوبتركس هو سـلف الطيور الموجودة حاليًا بل لا بد من إقناعهم. ويقتضي هذا أيضًا التوفيق بين ثلاثة أشـياء: ما بقي من المصادر الأصلية، وما يسـتخلصه منه علماء الحفريات، وما يستطيعون أن يقنعوا به زملاءهم في التخصص.[28]

في هاتـين الحالتين أدى اكتشـاف البنى إلى اسـتخلاص العمليات؛ فقد أجبرت صور كوبا مسـئولي واشـنطون إلى بذل مجهود كبير لمعرفة سـبب وضع خروشـوف الصواريـخ هناك -وهـو شيء لا بد من معرفته قبل تقرير مـا ينبغي عمله لإبعادها. فقد أجبرت الحفريات التي تشـير إلى أعشـاش الديناصـورات وكذلك الريش على إعادة النظر فيما كانوا يظنون أنهم يعرفونه عن أصل الطيور. وأنا لا أريد التوسـع في هذه المقارنة، فمن المبالغة طبعًا أن أربط بين هذين المثالين غير المتشابهين للاستشعار عـن بعد. لكن هذه الاختلافات نفسـها في كل الجوانب الأخـرى هي التي جعلتني أفكر في مدى أهمية تشابهاتها الإجرائية.

ولنعـد الآن، إن شـئت، إلى اسـتعارة رسـم الخرائـط من الفصل السـابق. يمر واضعو الخرائط أيضًا بعملية من ثلاث مراحل تربط بين الواقع والتمثيل والإقناع. فهـم يمثلـون وقائـع لا يمكنهـم استنسـاخها ولا يريـدون: لأن الخريطـة الدقيقـة لأكسـفورد ستكون نسـخة متطابقة من أكسفورد ولن تدخل بسهولة في حقيبة ظهر أو يد. تستخدم الخرائط مقاييس ومحتويات مختلفة حسب الحاجة. فخارطة العالم لها هدف يختلف عن خارطة لتحديد طرق سير الدراجات أو مقالب القمامة. ولا تخلو الخرائط من أفكار مسـبقة. فهناك دائمًا سـبب مسـبق لما يظهر فيها وما لا يظهر.[29] ونحن نصمم الخرائط حسب منفعتها: هل تصميمها واضح؟ هل التمثيل معقول؟ هـل توسـع الخريطـة مدركاتنا فـوق ما نسـتطيع أن نعرفـه بأنفسـنا، وبذلك تؤدي مهمتهـا العمليـة وهـي توجيهنـا للوصول مـن هنا إلى هنـاك؟ وكما هـو الحال عند

تركيب الديناصورات وبناء التاريخ، فهناك الواقع الذي يتم تمثيله، والتمثيل نفسه، واستقبال مستخدميه.

تقول جين أزفيدو، وهي إحدى أهم منظري صنع الخرائط:

> إن إنشاء خرائط ... جيدة، يقتضي أكثر من مجرد مجموعة بيانات وآلية بسيطة للحفاظ على صدق ما تمثله. فبعد تحديد أغراض الخارطة لا بد من نظرية تحكم العلاقات التي ستقدمها الخارطة المناسبة لهذه الأغراض، ومستوى الدقة والشكل المطلوب. فعندما توجد نقاط متعددة، لا بد من اتخاذ قرارات بشأن ترتيب الأهمية، لاحتمال عدم إمكانية تمثيلها جميعًا بالدرجة نفسها من الدقة.

هذه العلاقة بين البيانات وأنماط التمثيل والأغراض المطلوب تحقيقها من هذا التمثيل، ليست علاقة تراتبية، بل إنها كما تبين جين أزفيدو «دورة تكرارية».

> الخارطة دالة للبيانات والنظرية والبيانات المختارة دالة النظرية. والخارطة والنظرية يتم تعديلهما في ضوء البيانات. وأخيرًا، فقد تحدث الخارطة تغييرًا في النظرية. فتخضع كل مستويات التراتبية للتعديل عند التفاعل مع المستويات الأخرى.[30]

يعجبني مفهوم «دورة تكرارية»؛ لأنه لا يفضل إحدى طريقتي البحث، أي الاستقراء والاستنباط على الأخرى.[31] إن استشعار العمليات عن بعد عن طريق فحص البنى الباقية -سواء في التاريخ أم العلم تعمل بطريقة مماثلة. فعندما نبدأ بهذه البنى، كما ينبغي أن يفعل كل المؤرخين وعلماء الطبيعة التطوريين، عمل استنباطي: فالمهمة هي استنباط العمليات التي أنتجتها، لكنك لن تستطيع أداء هذه المهمة دون فعل استقراء متكرر: فعليك أن تجري مسحًا للدلائل فتعرف المتوفر ثم تجد طرقًا

لتمثيلها. فالبحث عن هذه الطرق يعود بك إلى مستوى الاستنباط؛ لأن عليك أن تستنبطها من اهتمامات من توجه إليهم تمثيلك. فمن غير المعقول، إذن، أن تحاول ربط البنية والعملية ربطًا صارمًا بالاستنباط والاستقراء على الترتيب. بل إن المطلوب هو تطبيق الأسلوبين على موضوعات بحيث يتوافق كل واحد مع المهمة المناسب لها.[32]

الطريقة الأسهل في تصور هذا الموقف أن تتخيل نفسك خياطًا. فالملابس هي ما تتيح للناس الظهور في العلن: والخياطون هم الوسطاء بين المجتمع والأبدان العارية.[33] لكنك لن تصنع للناس ملابس متطابقة، إلا إذا كنت تعمل لدى ماو تسي تونغ، فعليك أن تراعي الاختلافات بين هيئاتهم ومقاساتهم. وعليك أيضًا أن تراعي أذواقهم في نوع القماش والطراز والزينة. أنت بهذا المعنى تمثلهم أمام عالم لا يحبون أن يظهروا فيه على حقيقتهم. لكن نظرًا لضرورة الحفاظ على السمعة المهنية، فإنك كذلك تمثل نفسك، فإنك لن ترضى أن يظهر زبائنك هذه الأيام بسراويل فضفاضة عند الأقدام أو بزات غير رسمية مصنوعة من البوليستر. وربما أحببت أن تغير نمط الأزياء الشائع وتقدم أسلوبًا يقلده غيرك. مرة أخرى ينبغي لهذا «التوافق» أن يشمل ثلاثة مستويات: الجسم الذي تعد له الملابس، وتصميم الملابس، وعالم الأزياء الذي إما يرحب بنتائجك أو يرفضها أو يتجاهلها.

أرى أن هذه الاستعارات مفيدة في تفسير طريقة عمل المؤرخين، فمثلهم مثل علماء الحفريات وعلماء الخرائط والخياطين، يسعون إلى الوصول إلى «توافق» على ثلاثة مستويات مختلفة من النشاط. عندما نروي حدثًا أو سلسلة أحداث فنحن نبدأ بما لدينا –وهو في المعتاد سجلات أرشيفية وهي ما يوازي العظام والأجساد أو الأرض، ثم نفسرها من وجهات نظر مختلفة: وهنا يدخل الخيال، بل التصوير الدرامي. وفي النهاية، لا بد أن يظهر المنتج أمام جمهور، وعند هذه النقطة قد يحدث أمر من عدة أمور: يوافق الرعاة أن ما يرونه يؤكد أفكارهم المسبقة، وقد يرفضون إن لم تكن كذلك. أو، وهذا ما يتمناه علماء الحفريات والخياطون وعلماء الخرائط،

وكذلك المؤرخون -أن يدفع المنتج من يرونه إلى مراجعة آرائهم فينشأ أساس جديد للحكم النقدي، وربما نظرة جديدة للواقع نفسه.

4

منذ سنوات طلبت من المؤرخ العالمي وليم هـ. ماكنيل أن يشرح منهجه في كتابة التاريخ أمام مجموعة من علماء الاجتماع والفيزياء والأحياء الحاضرين في مؤتمر نظمته. في أول الأمر قاوم هذا مدعيًا أنه ليس لديه منهج بعينه. وعندما ألححنا عليه وصفه كالتالي:

> تستثير مشكلة ما فضولي فأبدأ في القراءة عنها. يجعلني ما أقرأ أعيد تعريف المشكلة. ويجعلني التعريف الجديد للمشكلة أحول اتجاه ما أقرأ. وهذا بدوره يعيد صياغة المشكلة بصورة أدق، وهذا يعيد توجيه القراءة بشكل أدق. فأظل هكذا بين ذهاب وعودة حتى أشعر أن الموضوع انضبط، فأكتبه كاملًا ثم أرسله إلى الناشر.

استثار ما قدمه ماكنيل تعبيرات خيبة الأمل، بل سخرية الحضور من علماء الاقتصاد والاجتماع والسياسة. قال العديد منهم: «ليس هذا بمنهج، فهو ليس صارمًا، ولا يميز بين المتغيرات المستقلة والتابعة ويخلط خلطًا حتميًا بين الاستقراء والاستنباط.» ثم جاء من آخر القاعة صوت عميق فزمجر قائلًا: «بل هو منهج، وهذا هو تمامًا ما نفعله في الفيزياء.»[34]

كتب جون زيمان مرة: «إن التأكد من صحة نموذج نظري باستخدام التجربة ليس عملية آلية، بل إنه يتوقف على آراء الخبراء من علماء الفيزياء، فهم من يقررون هل يوجد «توافق مناسب» بين النظرية والتجربة، بالنظر إلى ما يحيط بالبيانات من

عـدم اليقين وما لا يمكن تفاديه من مظاهر سـبغ المثالية عـلى التحليل الرياضي. إن مهـارة إصـدار هذه الأحكام تأتي مع الخبرة.»[35] إن صح هذا -أي إذا كان العلم في الحقيقة لا يميز الاسـتقراء عن الاسـتنباط أو العكس، أو كان يعتمد إلى حد ما على الحـدس والتقديـر، إذا كان في التحليـل النهائي لا يمكن فصـل نتائجه عن صفات مـن يصلـون إلى تلك النتائج- فإن نظرتنا النمطيـة إلى المنهج العلمي التي تنكر هذه الأشـياء جميعًا ينبغي أن تراجع. يقول إدوارد أو. ويلسـون: «العلماء ... لا يفكرون حسـب خطوط مسـتقيمة، بل يبتدعون مفاهيم وأدلة وارتباطاً وصلات وتحليلا في مسـار عملهـم، فيقسـمون الأشـياء إلى شـذرات دون اتباع ترتيب محـدد... ربما لن يكشـف ما يفعله العلماء حتى يصلوا بأعمالهم إلى مرحلة النشر إلا مذكرات اعترافية منفتحة، وهذا أمر نادر لا يكاد يوجد».[36] باختصار، يفكرون على طريقة وليم هـ. ماكنيل.

قـد يزعـج هذا الخبر بعـض متخصصي العلـوم الاجتماعية، لكننا سـنؤجل هذه المسألة إلى الفصل الآتي. ما أحب أن أركز عليه هنا هي الإجراءات المحددة المشتركة بـين التفكير التاريخي والعلمي الطبيعي كما يفهمها ماكنيل وزيمان وويلسـون: وهو فكرتنا السابقة المستمدة من علم الخرائط وهي **التوفيق بين الأشياء**.

وهنـاك تسـمية قديمـة لهـذا تعـاود الظهـور كالموضـة وهـي التلاقـي المعـرفي (consilience). كان أصـل التسـمية لـدى فيلسـوف العلـم بجامعـة كامبريدج وليم ويويـل، الـذي اسـتخدمها ليصـف «توافقـات غـير متوقعـة في نتائـج مسـتقاة من أجزاء متباعدة لموضوع [ما].»[37] وقد أحيا ويلسـون التسـمية حديثًا ليسـأل: «هل عنـد اجتماع المجـالات العلمية، يمكن للمتخصصين أن يصلـوا إلى اتفاق على كيان مشـترك من المبادئ المجـردة والبرهان المعتمد على الدليل؟» ومـن المهم في رأيي أنه يضع التاريخ في قلب هذه العلوم، مشيرًا إلى أنه «لا يكفي القول إن الفعل الإنساني تاريخي وإن التاريخ كشف لوقائع فريدة»، لأنه:

> ليس هناك شيء جوهري يفصل مسار التاريخ الإنساني عن مسار التاريخ الطبيعي، سواء في النجوم أم في التنوع العضوي. وما علم الفلك والجيولوجيا والأحياء التطورية إلا أمثلة لعلوم تاريخية في المقام الأول يربطها التلاقي المعرفي مع بقية العلوم الطبيعية ... فلو أمكن تتبع عشرة آلاف تاريخ كتاريخ مرتبط بالإنسان على عشرة آلاف كوكب شبيه بالأرض، ثم نشأت اختبارات ومبادئ تجريبية من الدراسة المقارنة لتلك التواريخ [إذن] لكان التأريخ -أي تفسير الاتجاهات التاريخية- علمًا طبيعيًا بالفعل.[38]

هذا للأسف أقصى ما ذهب إليه ويلسون في تطوير العلاقة عن طريق التلاقي المعرفي بين العلوم التاريخية من ناحية والعلوم الطبيعية من ناحية أخرى. مع ذلك، فأنا أتساءل إن كان مفهوم ويويل عن «التوافقات غير المتوقعة» أو «التوفيق» يصلح نقطة انطلاق للمزيد من الاستقصاء.

وتستمد هذه الانطلاقة قوتها من الاستعارة، فإن أغلب ما قلت حتى الآن قائم على مسلمة أن عمل التاريخ «مثل» أشياء أخرى معينة. فقد مثلته بالرسم وعلم الخرائط وكذلك بخياطة الملابس والرياضيات وعلم الفلك والجيولوجيا وعلم الحفريات المتحجرة والأحياء التطورية. وقد فعلت هذا دون أي تصور بأن التاريخ يمكن أن أو ينبغي أن يحاكي هذه العلوم. وبالتأكيد رؤية ويلسون لعشرة آلاف تاريخ كتاريخ الإنسان بها مبالغة شديدة. لكن أعتقد تمامًا أن مقارنة ما يفعل المؤرخون بما يحدث في مجالات أخرى يجعلهم يحققون أشياء مفيدة عديدة.

أولًا، سيكونون في موقف أفضل لتبرير وجودهم. فالمؤرخون ينبغي أن يكونوا في مهارة ممارسي المجالات الأخرى عند الدفاع عن مناهجهم -لكنهم ليسوا كذلك. ولقد ذكر بلوخ هذه المشكلة مبكرًا برؤية تنبؤية غريبة في عام 1942:

> بالتأكيد، في عالم يقف على أعتاب كيمياء الذرة، وقد بدأ لتوه في سبر غور أسرار الفضاء النجمي، في عالمنا المسكين هذا، الذي مهما كان لديه من مبرر للفخر

> بعلمه، فقد حقق لنفسه قدرًا قليلًا من السعادة، فإن تفاصيل علم التاريخ المملة، التي يمكن بسهولة أن تستغرق عمرًا كاملًا لتستحق الإدانة بوصفها مضيعة عبثية للطاقة تصل إلى حد الجريمة، لو كان عملها لا يعدو إلقاء غلالة رقيقة من الصدق على مجرد باب من أبواب الترفيه. فإما أن ننأى بعقولنا القادرة على توظيف أفضل لها عن ممارسة التاريخ أو أن التاريخ ينبغي أن يثبت شرعيته كأحد أشكال المعرفة.[39]

عبر كار عن هذه الفكرة بجرأة أكبر في عام 1961، فقال: «هؤلاء المؤرخون الذين يدّعون اليوم استغناءهم عن أي شكل من فلسفة التاريخ لا يفعلون أكثر من محاولة فارغة ومتعمدة لإعادة خلق جنة عدن في حديقة ضاحيتهم، مثلهم مثل أعضاء في نادٍ للعراة.»[40] فالبراءة المنهجية تؤدي إلى التهافت المنهجي. ويمكن للمقارنات أن تعطي المؤرخين وسيلة لستر عوراتهم.

ثانيًا، يمكن للمقارنات أن توضح علاقة المجالات الأخرى بمجالنا. والتشابهات في الموضوع لا تضمن بالضرورة تشابهات في المنهج. وقد حاول بلوخ وكار التعبير عن هذه الفكرة عن طريق تأكيد توافق مناهج المؤرخين مع مناهج العلوم الطبيعية. وكان المقصود أن العلوم الاجتماعية التي مازالت تقدر النماذج الثابتة وتعد التطور إزعاجًا وفوضى، ربما لا تصلح لأن يبحث فيها المؤرخون عن قياسات تساعدهم في تعريف أنفسهم.

وأخيرًا، يمكن لهذه المقارنات أن تعظم ثقتنا بأنفسنا. فالمؤرخون كثيرًا ما ينسحبون في ارتباك عندما يأخذ عليهم المتخصصون في العلوم الاجتماعية عدم استخدامهم المعادلات والرسوم البيانية والمصفوفات وغيرها من مناهج النمذجة الشكلية لتمثيل الماضي. يقولون لنا إننا لسنا «علميين» عندما نقوض التعميمات ونقاوم ترتيب أهمية الأسباب ونرفض استخدام رطانة خاصة بمجالنا. ويمكن لنا أن نرد عليهم بأن نسأل: ماذا يفعل علماء الحيوان والنبات عندما يبحثون عن أنواع منقرضة؟ أو كيف لعالم فلك أن يرتب أهمية الأسباب التي أنتجت المجموعة

الشمسية أو موقع الأرض فيها؟ أو لماذا يكتب كثير من علماء الطبيعة بأسلوب أفضل كثيرًا من أغلب المتخصصين في العلوم الاجتماعية -ولهم قراء أكثر منهم كثيرًا؟[41] ربما لا ترضي هذه الردود نقادنا، لكنها حتمًا ترفع معنوياتنا إلى السماء.

سأركز في الفصل التالي على ما يفصل التفكير التاريخي عن تفكير العلوم الاجتماعية، وعلى مفارقة هي أنه على الرغم من أوجه الشبه في مادتنا وموضوعنا، فهناك اختلافات كثيرة بين طريقة تناول المؤرخين لها وطريقة المتخصصين في العلوم الاجتماعية. وتدور هذه الاختلافات حول السؤال عن حقيقة وجود شيء اسمه المتغير المستقل.

الفصل الرابع

الاعتماد المتبادل بين المتغيرات

منذ مدة ليست طويلة حضرت مؤتمرًا في إحدى الجامعات الأمريكية المرموقة، حضره مجموعة متميزة من علماء السياسة. وكان موضوعه: دراسات الحالة: كيف نجريها، وتحديدًا كيف نستخلص منها تعميمات مفيدة. وفي أثناء العروض، جرى نقاش طويل، كما هو معتاد عند تلاقي المتخصصين في العلوم الاجتماعية، حول الحاجة إلى التمييز بين المتغيرات المستقلة والتابعة. وكان أكثر ما تردد من أسئلة هو: «كيف نستخلص المتغير المستقل؟»

شاركت في لقاءات كثيرة كهذه من قبل، وكنت دائمًا أجد من الصعب الإجابة عن مثل هذه التساؤلات. والسبب جزئيًا أن كل هذا الحديث عن «فك تشابك الخصلات» جعلني أتخيل زملائي الباحثين وكأنهم مصففو شعر، وشغلني التشبيه. لكن المشكلة الأكبر كانت في أن المؤرخين لا يفكرون بطريقة المتغيرات المستقلة والتابعة. فنحن نفترض الاعتماد المتبادل بين المتغيرات ونحن نتتبع مظاهر تداخلها مع بعضها بعضًا عبر الزمن. ولا يفيدنا تصنيفها إلى فئات منفصلة.

ولسبب ما في هذه المناسبة، رفعت يدي ببراءة وسألت: «كيف يوجد شيء اسمه متغير مستقل، غير الإله، إن كان موجودًا أو كانت موجودة؟ أليست كل المتغيرات

تابعة لمتغيرات أخرى؟» وبالطبع توقعت إجابة سريعة وواضحة على ذلك السؤال البسيط. لكني اندهشت، إذ سادت الطاولة مدة صمت قصيرة جرى فيها تبادل ما أسميه نظرات وجوم. بعدها قال رئيس الجلسة: «حسنًا، ننتقل الآن فورًا إلى ...»

كان رد فعلي الفوري ألا أعطي الأمر أهمية ليست له. ربما كان سؤالي ساذجًا بحيث كان الصمت طريقة مهذبة للتعبير عن الدهشة من أن يطرحه أي شخص. لكني كلما فكرت في الأمر، أدركت أنني عن غير قصد كشفت افتراضًا أساسيًا يعدّه أهل كل تخصص من المسلمات، ومن ثم يشق عليهم تفسيره أو تبريره.[1] ومع المزيد من التأمل ظهر احتمال أن هذا الاختلاف تحديدًا بين طريقتي عمل المؤرخين وعلماء السياسة، ربما يعكس اختلافًا أكبر في مناهج البحث يفصل التاريخ عن العلوم الاجتماعية عمومًا.

هذا في جوهره الفارق بين رؤية اختزالية ورؤية بيئية للواقع. وأود أن أستقصي هذا الاختلاف في فصلنا هذا، فأركز تحديدًا على ارتباطه المفترض بالاختلاف بين العلوم المختبرية وغير المختبرية الذي ناقشته في الفصل السابق -بين العلوم التي تستطيع تكرار التجارب والتي لا تستطيع. بعدها أود أن أنتقل إلى ما يمكن أن يتضمنه هذا عن الفجوة بين التفكير التاريخي وتفكير العلوم الاجتماعية، التي كشفها على غير توقع سؤالي الساذج عن المتغيرات المستقلة والتابعة.

1

الاختزال فيما أرى هو الاعتقاد بأن خير وسيلة لفهم الواقع تفتيته إلى أجزاء كثيرة. وبلغة رياضية، فإنك تبحث داخل المعادلة عن المتغير الذي يحدد قيمة كل المتغيرات الأخرى. أو بصورة أوسع، تبحث عن العنصر الذي إذا استبعدناه من سلسلة أسباب تغير الناتج. ومن أصول الاختزال أن توضع الأسباب في تراتبية. أما

الدعوة إلى ديمقراطية بين الأسباب -أي تقول إن حدثًا ما قد يكون له مسببات كثيرة فهذا يعد رخاوة.[2] وكما يقول دليل واسع الأثر صدر حديثًا في العلوم الاجتماعية:

> المشروع الناجح هو الذي يفسر الكثير بالقليل، وأقصى ما يرجى هو استخدام متغير تفسيري واحد لتفسير مشاهدات عديدة عن المتغيرات التابعة. أما التصميم البحثي الذي يفسر الكثير بالكثير فليس بواسع الفائدة ...[3]

لذلك فإن الاختزال يعني بالفعل وجود متغيرات مستقلة، وأننا نستطيع أن نعرف ما هي.

أما إذا كنت تسعى إلى إيجاد تفسير تطور أشكال الحياة، أو تزحزح القارات أو تكون المجرات، فلن تملك تقسيمها إلى مكوناتها؛ لأن عناصر كثيرة جدًا تتوقف على عناصر كثيرة جدًا أخرى. فأنواع الكائنات تبقى أو تنقرض ليس بسبب تفوق أو نقص بها، بل بسبب قدر نجاحها في التكيف مع البيئة المحيطة بها. ويصعب تفسير خطوط الصدع الأرضي دون فهم الصفائح التكتونية والعمليات المتداخلة التي تحركها على سطح الأرض. والجاذبية هي ما يضمن أن شكل مجرة معينة وموقعها سيتأثران، ولو قليلًا، بوجود كل المجرات الأخرى. باختصار، فإن علومًا أخرى مثل الفلك والجيولوجيا وعلم الحفريات تعمل من منظور بيئي للواقع.[4]

لا يصلح الاختزال، إذن، لأن يكون النمط الوحيد للاستقصاء العلمي. فعلى الرغم من أن المنهج البيئي أيضًا يولي أهمية لتفصيل العناصر المكونة، فإنه لا يتوقف عند هذا الحد: بل ينظر كيف تتفاعل المكونات لتصير أنظمة لا يمكن تعريفها بحساب مجموع أجزائها. وهو يقر بوجود جزيئات أساسية لكنه يضعها في كون كله أساسي. إن المنظور البيئي منظور جامع بقدر ما أن الاختزال مانع، لكن هل يستطيع أحد أن يزعم أن الجمع أقل «علمية» من المنع؟ أو أن العلوم التي تقوم على أحد هذين المنهجين أرقى من التي تقوم على الأخرى؟[5]

من المفيد، إذن، أن نسأل عن أسباب المكانة التي يتمتع بها المنهج الاختزالي في العلوم الاجتماعية. الإجابة فيما أعتقد أن هذه العلوم تفضل المنهج الاختزالي على البيئي؛ لأنها ترى في الاختزال السبيل الوحيد المجدي لاستشراف المستقبل.[6]

2

مشكلة المستقبل أن معرفته أصعب كثيرًا من معرفة الماضي. فالمستقبل يقع على الجانب الآخر من الفريدة المسماة بالحاضر، لذلك فكل ما نستند إليه هو بعض متواصلات الماضي التي تمتد فيه وهناك ستواجه فيه عوارض غير مؤكدة. بعض المتواصلات أقوى من أن تغير العوارض مسارها: فالزمن سيظل يجري، والجاذبية تحفظنا من أن نطيح في الفضاء، والبشر يولدون ويكبرون ويموتون. وحتى عندما يختار الناس بأنفسهم ما يفعلونه -عندما يكون الوعي نفسه من العوارض- يصير الاستشراف عملية غارقة في الإشكاليات.

أما العلوم الاجتماعية فقد طال إنكارها لهذه المشكلة. فهي تعمل بناء على الاعتقاد بأن الوعي والسلوك الناتج عنه يخضعان، ولو بشكل عام، لعمل القواعد -إن لم تكن القوانين- التي يمكننا التعرف إليها ووصف آثارها. وما أن نفعل هذا، أو هكذا ظن الكثير جدًا من متخصصي العلوم الاجتماعية لسنوات طويلة، حتى نكون قادرين في مجال الشؤون الإنسانية على إنجاز بعض المهام الاستشرافية التي تنجزها العلوم الطبيعية بشكل معتاد.[7]

الأمثلة على هذا المذهب عديدة، وسأكتفي هنا بذكر ستة منها:

(1) افتراضـات «الاختيار العقـلاني» في علم الاقتصاد والسياسـة، التي تقرر أن النـاس تحدد أولويـات مصالحها بموضوعية، وعلى أسـاس معلومات دقيقة عن الظروف المحيطة بها.

(2) «الوظيفيـة الهيكليـة» في علـم الاجتماع، التي تـرى أن المؤسسـات مكونات ضرورية للهياكل الاجتماعية المدمجة فيها.

(3) نظريـة «التحديـث»، التي تؤكد أن كل الأمم تمر بمراحل متشـابهة من النمو الاقتصادي.

(4) «مقعـدك يحدده موقفك»(*) في الدراسـات التنظيميـة -وهو معروف كذلك بقانـون مايلز- الـذي يفسر سـلوك البيروقراطيات كبيرهـا وصغيرها بغلبة نزعة الحفاظ على الذات على ما دونها من نزعات.

(5) علـم النفـس الفرويـدي، الذي يحاول تفسـير تصرفـات الأفراد باسـتدعاء مجموعة من الغرائز والمكبوتات الموروثة منذ الطفولة لدى الجميع.

(6) نظريـات العلاقات الدولية "الواقعيـة" و"الواقعية الجديـدة" التي تدعي أن كل الأمم تسعى إلى تعظيم نفوذها في كل المواقف.

من المؤكد أن ما سـبق ينطوي على تبسـيطات مخلة من شأنها أن تستثير صرخات الاحتجـاج مـن ممـارسي هذه المجـالات. مع ذلـك، فأنـا أعتقد أنها تعكـس ما ظل لمـدة طويلة "النمـوذج القياسي في العلـوم الاجتماعية."[8] وأقصد بهـذا مجموعة من التفسـيرات التي تميل إلى الاجتزاء، فتعزي سلوك البشر إلى سبب أساسي أو سببين، متناسية أن الناس كثيرًا ما تفعل أشياء لتركيبة معقدة من الأسباب. وغالبًا ما تكون هذه التفسـيرات ثابتة وتتجاهل إمكانية تغير السـلوك الإنسـاني الفردي أو الجماعي مع الزمن. وهي تميل إلى ادعاء قابلية عامة للتطبيق، مما يجعلها عاجزة عن الاعتراف بـأن الثقافات المختلفـة -ناهيك عن الأفراد المختلفين- تسـتجيب للمواقف بطرق مختلفـة.[9] وفي القـرن الأخـير تميزت العلـوم الاجتماعية عـن المجال الذي نشـأ فيه العديـد من علومها الكبرى، وهو التاريخ.[10] فلـماذا اعتنق المتخصصون في العلوم

(*) أي المركز الذي تشغله يتوقف على ما تختار من مواقف مع فئة أو ضد أخرى أو بينهما.

الاجتماعيـة هـذه الافتراضـات عن الاجتـزاء والاسـتقرار والعمومية، عـلى الرغم مـن أن مجـرد ذكرهـا يشي بما فيهـا من إشـكاليات؟ أعتقـد أنهم فعلوا ذلك لسـبب محـدد: إنهـم لو أقـروا بتعدد الأسـباب أو مرور الزمـن أو التنوع الثقـافي والفردي، لتكاثرت التفسـيرات ولكان الاستشراف صعبًا، إن لم يكن مستحيلًا.[11] ولو عمل المتخصصون في العلوم الاجتماعية بهذه الطريقة، لتشابهت طريقة عملهم مع طريقة عمل المؤرخين الذين يضاعفون المتغيرات بأريحية طيلة الوقت.

نفعل نحن المؤرخين ذلك لأننا لا نهتم إلا بالظواهر التي جاوزت تلك الفريدة التي تفصل الماضي عن المستقبل، وجمعت لنا بين متواصلات ومتعلقات. ولا ينتظر أحد منا أن نفض ما جمع كما يفعل جزيء دي إن إيه (DNA) يسعى إلى استنساخ نفسه. ولا يطلب منا أحد أن نتنبأ كيف سـتعيد الجزئيات اتحادها في المسـتقبل. يؤكد ر. ج. كولينغـوود أن «مهمـة المؤرخ معرفة الماضي لا المسـتقبل. وعندمـا يدعي المؤرخون القـدرة على تحديد المسـتقبل قبل وقوعه، ندرك بالتأكيـد أن ثمة خطأ أصاب جوهر فهمهم للتاريخ.»[12] أو، كما تقول ثوماسينا بطلة مسرحية طوم ستوبارد «أركاديا»: «لا يمكنك أن تقلّب الأشياء فتنفصل عن بعضها.»[13]

لهـذا، فالطلـب على المؤرخين أقل مـن متخصصي العلـوم الاجتماعية، إذا كان المطلوب تقديم توصيات عن سياسـة مسـتقبلية. وعلى خلافهم فـإن عزاءنا هو أننا نصيب أكثر مما يصيبون.

3

سـمع أغلبنا ونحـن طلاب ندرس الفيزيـاء لأول مرة المعلمـين يحاولون إثبات قوانـين نيوتـن للحركـة، فينصحوننا ألا ننشـغل بأمـور مزعجة مثـل الاحتكاك أو مقاومـة الهواء لأن حسـابها أمر صعب؛ فـكان المطلوب منا أن نتخيـل بندولًا مثاليًا في فراغ تام، وكرة ملسـاء تمامًا تتدحرج على سـهل مائل وأملس بدرجة مسـتحيلة،

وريشًا وأحجارًا تسقط دائمًا نحو الأرض بالسرعة ذاتها -ولو رأينا بعيوننا أن الأمور لا تحدث بهذا الشكل أبدًا.

علمونا أن نقبل هذه الافتراضات لنسهل عملية الحساب؛ فآثار الاحتكاك أو مقاومة الهواء أصعب من أن تقاس أو أن نتنبأ بالاختلافات التي تحدثها في النتائج في كل مرة تكرر التجربة. لذلك علمونا أن «نهيئ البيانات» حتى نثبت قانون الفيزياء الأساسي الذي يراد إثباته. لم يكن مهمًا أن تكون النتائج مرتبكة بعض الشيء، فالمهم أن نفهم المبادئ التي وراءها.[14]

لكن انظر ماذا كان يحدث بالفعل: كان شرط «العلمية» يقتضي منا أن ننبذ ما تقوله لنا قدرات قوى المشاهدة لدينا، وقد ساقنا هذا إلى عالم أفلاطوني من الأشكال المثالية التي لا يكاد يربطها بالعالم الحقيقي شيء. لم يعنَّا هذا بحال على استشراف الوصول الفعلي للريش أو الأحجار إلى الأرض أو أقدامنا وفقًا لما قالوه لنا. إن الحساب واحد من أساليب العلم الأساسية، لكنه يطغى على أحد أهم أهداف العلم، أي استشراف ما سيحدث فعلًا. وكالمتوقع تمامًا لم تصب الاستشرافات التي نتجت عن هذه العلمية قط.

حدث هذا نفسه مع تنبؤات العلوم الاجتماعية، لأسباب مماثلة. يزخر التاريخ الاقتصادي والسياسي بأمثلة لأناس اتخذوا قرارات غير عقلانية بناء على معلومات غير دقيقة.[15] تشكك علماء الاجتماع أنفسهم في الوظيفية الهيكلية بسبب تحيزها للاستقرار الاجتماعي وعجزها عن تفسير التغير الاجتماعي.[16] أما نظرية التحديث فقد بسطت ما كان يحدث في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية في أثناء الحرب الباردة تبسيطًا مخلًا، وفي الوقت نفسه كانت تقدم تبريرًا يدعي العلمية لأهداف السياسة الخارجية لواشنطن.[17] كذلك يقدم لنا التاريخ التنظيمي حالات متكررة لبيروقراطيات وبيروقراطيين يتصرفون بطرق لا تحفظ مصالحهم.[18] وأما علم النفس الفرويدي فلا يقدم تفسيرًا مناسبًا للسلوك الإنساني لا سيما عندما يطبق على ثقافات مختلفة عبر أزمان مختلفة، أو عندما يقارن بتفسيرات فسيولوجية.[19]

وبالطبع فإن نظرية العلاقات الدولية التي تتمحور حول دراسة القوة، أخفقت تمامًا في تفسير سبب اختيار أكبر دولتين في العصر الحديث التخلي عن استخدام القوة، وليس الاحتفاظ بها، في مواقف معينة في القرن العشرين: الولايات المتحدة في 1919-1920، والاتحاد السوفيتي في 1989-1991.[20]

كثيرًا ما يقال لطلاب العلوم الاجتماعية أن يواصلوا «كأن» هذه الغرائب لم تحدث، فإن إنقاذ النظرية هو المهم: ولا يهم إن تسبب ذلك في «تهيئة» الحقائق بل تسطيحها.[21] لكن هذا يعني أن العلوم الاجتماعية تعمل -وليس في كل الحالات، بل في كثير منها- عند مستوى تجارب طلاب السنة الأولى لدراسة الفيزياء. هذا هو السبب في أن ما تقدمه من استشرافات لا تتوافق إلا قليلًا مع الواقع الذي نقابله بالفعل.

وكأن متخصصي العلوم الاجتماعية خلصوا إلى أن السبيل الوحيد لتفسير الماضي واستشراف المستقبل هو محاكاة العلوم المختبرية، بقدرتها على تكرار التجارب وتعديل الحدود ومن ثم وضع تراتبيات سببية. ولا يشعرون أنهم أدوا مهمتهم حتى يفصلوا بين المتغيرات المستقلة والتابعة. لكنهم لا يفعلون ذلك إلا بفصل هذه المتغيرات عن العالم المحيط بها.[22]

ناتج ذلك يشبه الدخول في دائرة منهجية مفرغة. يسعى العلماء الاجتماعيون إلى إرساء تعميمات واسعة التطبيق على أشياء لا بد أن تكون صغيرة محدودة، ولو تعقدت هذه الأشياء، فلن تكون نظرياتها واسعة التطبيق. وعليه، فعندما يصيب العلماء الاجتماعيون، فإنهم في الأغلب الأعم يثبتون الواضح بذاته، وعندما لا يثبتون الواضح بذاته فإنهم في الأغلب الأعم يخطئون.[23]

4

هل الاختزال هو المنهج الوحيد الذي لدينا لتفسير الماضي واستشراف المستقبل؟ وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن أعود إلى العلوم الطبيعية، لكن هذه المرة إلى علوم مثل الفلك والجيولوجيا وعلم الحفريات، وهي علوم بحكم نطاقها ومقياسها لا يمكن أن تقيدها مختبرات، وهي العلوم التي كما قلت في الفصل الأخير تعتمد على قابلية التكرار الافتراضي وليس الفعلي وسيلة للاستوثاق.

من الممكن بالتأكيد أن نعرف اتجاه حركة المجرات أو تزحزح القارات أو تطور الأنواع، لكن هذه الاستشرافات مستمدة من معرفة بالأنظمة: أي من معرفة تفاعل الأجزاء مع بعضها بعضًا لتكون الكل، وليس من التركيز على الأجزاء على حساب الكل. فنظريات مثل النسبية والصفائح التكتونية والانتخاب الطبيعي تركز على العلاقات بين المتغيرات، بعضها متواصلة وبعضها عارضة. والانتظام والاعتباط يتعايشان داخل هذه النظريات: وهي تسمح بالتقلبات التي تربك التوازنات مثل الآثار الكويكبية والزلازل أو تفشي أمراض جديدة قاتلة.[24] كما أننا لا نحتاج تمييز متغيرات معينة بأهمية تفوق غيرها، فما المتغيرات التابعة لمجرة الأندروميدا أو الخط الساحلي النرويجي أو عصفور داروين؟[25] الاختزال في هذه المجالات ليس إلا خطوة نحو تكوين رأي، أي إنه ليس هدفًا -أو منهجًا- في ذاته.

تقوم هذه العلوم، كما رأينا، باستخلاص العمليات من البنى، بتوفيق التمثيلات مع الوقائع، دون تفضيل استقراء على استنباط وبالانفتاح الدائم -وهو ما تحمله عبارة التلاقي المعرفي- على أفكار تأتي من مجال عن مجال آخر. مع ذلك فهي جميعًا تتسم بتجديد الاتجاه، مما يتيح لنا فهم الماضي وكذلك استشراف المستقبل بعمومية شديدة. وهي تجتاز اختبار ما ينبغي أن يفعله العلم، وهو التفسير والاستشراف وتكوين إجماع على صحة النتائج، فهل يصلح هذا المنهج البيئي في مجال الشئون الإنسانية؟

بـدأ بعض العلماء الاجتماعيون استكشـاف هـذه الإمكانية. فالحركـة «البنائية»، المتنامية في علم السياسـة تهتم بتطور الأفكار والمؤسسـات. يفسر ألكسـندر وندت هـذا بقولـه إن الاهتـمام في العلـوم الطبيعيـة ينصـب على «تفسـير لماذا يـؤدي شيء إلى آخـر، وكيـف ... تجتمع الأشـياء لتتملك القوة السـببية التي تمارسـها.»[26] وفي «التاريخانية الجديدة» في علم الاجتماع، يتم التشـكيك في التوجه نحو إيجاد تعميمات كاسـحة معزولة عن الزمـان والمكان.[27] ويتحـدى علماء الاقتصاد «السـلوكيون» عـادة واضحـة في مجالهم خاصة، وهي منح قيمة أكبر للنـماذج من الأدلة.[28] وتحت تأثير أعمال ألكسندر جورج بدأ منظرو العلاقات الدولية في اتباع أساليب دراسات الحالة المقارنة، التي تقاوم الاختزال وتشجع المنظور البيئي.[29]

مـع ذلك يظل الاختزال النمط السـائد في البحث في العلـوم الاجتماعية: ويظل المؤرخـون الممارسـين الرئيسـين لمنهج بيئي في دراسـة الشـئون الإنسـانية. ولنعرف السبب من المفيد أن نستكشف بتفصيل أكبر العلاقة بين التفسير والتعميم كما يفهمه المؤرخون والعلماء الاجتماعيون كل حسب تراثه.

5

مـن الخطـأ البين أن ندعي أن المؤرخين يرفضون اسـتخدام النظرية؛ لأن النظرية هي في النهاية تعميم، وبدون التعميم لن يجد المؤرخون ما يقولونه. إن ما نستخدمه من كلمات تعمم وقائع معقدة -مثل "الماضي" و"الحاضر" و"المستقبل"- ولا يمكن أن نعمـل دونها[30]. كنـا في المعتاد ندمج تعميماتنا في سردياتنا. وفي سـعينا إلى إظهار كيف أنتجت عمليات الماضي أبنية الحاضر نعتمد على ما نجد من نظريات تسـاعدنا عـلى إنجاز هذه المهمة. ولأن الماضي قابل للتقسـيم إلى ما لا نهاية، فنحن مضطرون إلى هـذا التقسـيم إن أردنـا أن نفهم أي جزء نحاول تفسـيره. لكن التفسـير هو أهم

أولوياتنا، لذلك فإننا نخضع تعميماتنا له، فنحن نهتم، كما يقول إ.هـ. كار "بالعام في المتفرد".[31] ونحن نعمم لأغراض خاصة، وبهذا نمارس التعميم الخاص.

أما المتخصصون في العلوم الاجتماعية فأميل إلى دمج السرديات في التعميمات. وهدفهم الرئيس هو تأكيد فرض أو تفنيده، فيخضعون سردهم لهذه المهمة. فكما يقر ثلاثة من كبار الممارسين في هذا الميدان، فإن "بيانات متفرقة أو ملحوظات من مدة زمنية مختلفة، أو حتى من جزء آخر من العالم يمكن أن تقدم تضمينات إضافية ملموسة لنظرية ما. وحتى لو كنا غير مهتمين بهذه التضمينات الفرعية على الإطلاق، كما هو متوقع، فإنها ستساعدنا على بناء الثقة بقوة النظرية وقابليتها للتطبيق".[32] وعليه فإن النظرية تأتي أولًا، يُستدعى التفسير عندما يلزم لتأكيدها. يخصّص العلماء الاجتماعيون من أجل أسباب عامة ومن ثم فإنهم يمارسون التخصيص العام.[33]

هذا التمييز بين النظرية المدمجة والمهيمنة -بين التعميم المحاط بسياج الزمن والتعميم المتجاوز للزمن- يجعل المؤرخين يعملون بشكل يختلف عن زملائهم في العلوم الاجتماعية في نواحٍ مهمة متعددة:

> يستخدم المؤرخون تعميمات محدودة، وليست واسعة. فنحن نادرًا ما ندعي قابلية نتائجنا للتطبيق فيما وراء أزمنة وأماكن محددة. لذلك فعلى الرغم من أنني قلت في كتابي نحن الآن نعلم أن بنية الديكتاتورية الستالينية جعلتها تهتم بأثر أفعالها فيما وراء حدودها، فليس هذا بقول أسعى إلى الدفاع عن صدقه بالنسبة إلى كل الديكتاتوريات. وكذلك بالرغم من ادعائي أن ستالين فعل هذا، فإنني لا أقول إن الحكام المستبدين دائما يسقطون سلوكهم الداخلي على العالم كله.[34]

ولا يشترط أن تكون هذه التعميمات كاسحة لتكون واسعة التطبيق، فالمؤرخون مهيئون لإقرار وجود اتجاهات أو أنساق، وهي بالتأكيد ليست قوانين تنطبق في كل الحالات، ولكن المؤكد أنها لا تعدم فائدة. فإذا كان علينا أن نبني كل أحكامنا على

الواقع على أساس قوانين -لأنها قليلة العدد جدًا- فإننا سنفقد الصلة بالواقع. إن كل من يسعى إلى إرساء "القوانين الدائمة التي لا تتغير عن الطبيعة الإنسانية"، كما يحذرنا كولينغوود، لا بد أنه يخلط بين "الظروف العابرة لعصر تاريخي معين والظروف الدائمة للحياة الإنسانية."[35]

قد يتيح تعميمي بشأن ستالين أساسًا لعقد مقارنات مع ديكتاتوريات أخرى أو ديمقراطيات أو أشكال أخرى من الحكم.[36] فقد دفعني بالتأكيد إلى إعادة النظر في فكرة تشربتها منذ فترة طويلة من منظري العلاقات الدولية "الواقعيين": وهي أن الديمقراطيات تواجه صعوبات أكبر من الأنظمة الأوتوقراطية الاستبدادية في التوفيق بين سياساتها ومصالحها.[37] لكن هل افتراضي المعدل ينطبق، مثلًا، على الصين في عصر ما بعد الحرب الباردة؟ وهنا أتردد ومعي أغلب المؤرخين فنكرر القول الذي ينسب إلى شو إنلاي عن الثورة الفرنسية: "لم يأن هذا الحكم."

يؤمن المؤرخون بالسببية العارضة لا المطلقة. فنقول على حسب الموقف، قبل أن نواصل الحديث عن العناصر التي يتوقف عليها مستقبل الصين (أو أي موضوع آخر)، وكما يوضح الفيلسوف مايكل أوكشوت، فإن المؤرخين لديهم حس شبكي بالواقع. إننا نرى كل شيء موصولًا بكل شيء على نحو ما.[38] لهذا السبب لا نعرف كيف لأي متغير أن يكون مستقلًا حقًا.

مع ذلك، ليس معنى هذا أننا نرى ضرورة تتبع كل سلسلة سببية وصولًا إلى الانفجار العظيم. فكلما أوغلت عملية في الماضي، قل الثقل الذي يمنحه لها المؤرخون في تفسير البِنى الناتجة. لم يكن ستالين ليستطيع أن يجعل الزراعة جماعية في الاتحاد السوفيتي لو لم تزرع شعوب ما قبل التاريخ المحاصيل، ويستأنسوا الحيوانات منذ آلاف السنين، لكن مؤرخي حركة الزراعة الجماعية لا يرون ضرورة ذكر هذا.[39] فنحن نميز الصلات الخاصة عن الروتينية في علاقات السببية، فعند تفسير ما حدث في هيروشيما في 6 أغسطس عام 1945، نعزو لأمر الرئيس ترومان

بإلقـاء قنبلة ذرية أهمية أكـبر من قرار القوات الجوية بتنفيـذ أوامره.[40] ونحاول أن نميـز نقاط "الاعتماد الحساس على ظـروف أولية" كان فيها لأفعـال معينة عواقب أكبر مما كان يتوقع من دونها: مثل ما حدث بشـأن النزاع على مفتاح كنيسـة المهد في بيت لحم -حسبما يقول المؤرخ تريفور رويل- وأدى إلى اندلاع حرب القرم.[41]

لكـن المؤرخين يرفضون العليّة الخالصـة، التي تنطوي عليها فيما يبدو فكرة قدرة المرء عـلى تمييز ما يسـمى بالمتغير المسـتقل دون الرجوع إلى كل ما سـبق. لكل العلل سوابق. ولنا أن نرتب أهميتها النسبية، لكننا نرى أن عزل (استخلاص) أسباب مفردة لوقائـع معقـدة أمر غير مسـئول. فنحن نـرى أن التاريخ يصدر عن أسـباب متعددة ومتقاطعة. ونهتم بهذه التداخلات أكثر من الاهتمام بتقديس متغيرات بعينها.[42]

وعليـه، يفضل المؤرخـون المحاكاة على النمذجـة. يحاول العلـماء الاجتماعيون تقليل عـدد المتغـيرات التـي يتعاملون معهـا؛ لأن هذا يسـهل الحسـاب، ومن ثم يبسّـط مهمة الاسـتشراف. لكـن إذا كان للأحداث أسـباب معقدة فلن يحقق الاسـتشراف المبني على أسـباب بسـيطة ما يرجى مـن نجاح.[43] يـدرك المؤرخـون هذا ولذلـك يفضلون تجنب الاسـتشراف تمامًـا، وهـذا يمنحنـا حرية إدخـال أي عدد مـن المتغيرات نريـده في عملية "العرض الاسترجاعي". ينطوي الأمر هنا على قضية أعمق تردنا إلى القول إنه على الرغم من استحالة معرفة الماضي معرفة كاملة، فإن إمكانية معرفته أكبر من معرفة المستقبل.

يحتـاج قـص المـاضي إلى سرديـة -أي محاكاة مـا حـدث- وليس بالـضرورة إلى نمذجـة. والمحـاكاة فيما أرى سـعي إلى تمثيـل (وليس استنسـاخ) مجموعة محددة من أحـداث المـاضي. أمـا النموذج فيسـعى إلى إثبات طريقـة عمل نظام مـا في الماضي، وكذلـك طريقـة عملـه في المسـتقبل. الاسـتشراف ليس مـن شروط المحـاكاة لكنه مـن شروط النمذجـة، ولهذا تعتمد النـماذج على الاجتزاء؛ لأن تعقـد الأنظمة يعني تكاثر المتغيرات واسـتحالة الاسـتشراف: والأنظمة نفسـها تتداخل مع الأحداث. مـن هنا فالاجتزاء طـوق نجاة بالنسـبة للعلماء الاجتماعيين، تحفظهـم من الغرق في التعقيد.[44] أما المؤرخون الذين يسبحون في هذا الوسط فلا حاجة حقيقية لهم به.

يتتبع المؤرخون العمليات انطلاقًا من معرفة بالنواتج. بدأ علماء السياسة استخدام مصطلح "تتبع العملية" في السنوات الأخيرة، مما يوحي بإحياء مفهوم السردية، وأسلوب "تتبع العملية" يستخدم السرديات فعلًا في بناء دراسات الحالة المقارنة. وكما بين أندرو بينيت وألكسندر جورج، فإن تتبع العملية يسعى "ليس إلى تفسير حالات محددة فقط، بل إلى اختبار النظريات وتنقيتها وتطوير نظريات جديدة وإنتاج معلومات نوعية عن ظاهرة معينة." ولأن تتبع العملية "يحول سردية تاريخية إلى تفسير تحليلي سببي، فإنه يختلف اختلافًا جوهريًا عن التفسير التاريخي."[45] ومهما كان أسلوب تتبع العملية حريصًا في تمثيله الماضي، فإنه في الوقت نفسه يسعى إلى استشراف المستقبل. ولا يحتاج التفسير التاريخي أن يفعل هذا.

قد يتبادر إلى الذهن، لأول وهلة، أن المنهج الأول هو الأقرب إلى "العلمية"؛ لأننا بحكم التراث نتوقع من العلم أن ينتج استشرافات. لكننا نتعامل مع متغيرات متعددة متقاطعة عبر حقب زمنية طويلة، والظروف السائدة في بداية عملية لا تكاد تضمن شيئًا عن نهايتها. يكتب عالم الحفريات ستيفن جاي غولد عن مجاله: "إذا غيرت في أي حدث سابق ولو تغييرًا طفيفًا، ستتخذ سلاسل التطور مسارًا مختلفًا اختلافًا جذريًا". ولا يعني هذا أن تاريخ الحياة -أو ضمنًا التاريخ عمومًا- يخلو من الأنساق: فإن "الطريق الفرعي قابل للتأويل، وكذلك التفسير بعد تفرعه، كالطريق الأصلي تمامًا. لكن تنوع المسارات يثبت فعلًا أن النتائج الأخيرة لا يمكن التنبؤ بها في البداية."[46]

من هنا، فالمؤرخون يعممون، ولكن انطلاقًا من معرفة نواتج محددة، وهذا ما أعنيه بالتعميم الخاص. فنحن نستنتج العمليات من البنى الباقية، ولكن لأننا ندرك أن أي تحول في تلك العمليات في أي نقطة يعني إمكانية إنتاج بنية مختلفة، فإننا نقتصد في أحكامنا عن المستقبل، إن فعلنا. والتعميم بالنسبة إلى المؤرخين عادة لا يعني الاستشراف. أما بالنسبة إلى أهل العلوم الاجتماعية، فهذا معناه المعتاد: أي إن تتبّع العملية يقصد توقّع النتائج، فالاستشراف شيء في أصل التعميم، إنه تخصيص مُعمّم، في النهاية لدينا مشروعان مختلفان اختلافًا بيّنًا: لكن كليهما علميان.[47]

6

صار هذا التمييز بين هذين المنهجين مهـمًا عندي في كتابة تاريخ الحرب الباردة. وكغيري من دارسي العلاقات الدولية، فقد انبهرت بطرح كينيث والتز المخالف للحدس العام (بالنسبة لي على الأقل) الذي يقول إن الأنظمة ثنائية القطب بطبيعتها أكثر استقرارًا من الأنظمة متعددة الأقطاب.[48] وكلما فكرت فيه رأيت وجاهته. كانت فكرة والتز هي ما دفعني إلى الوصول إلى فكرة تخصني، وهي أن التنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي تطور تدريجيًا إلى "سلام طويل".[49] وكان هذا، كما أراه الآن، مثالًا للنظرية المدمجة أو التعميم الخاص. فقد استخدمت "الواقعية الجديدة" عند والتز في تفسير ناتج تاريخي محدد، لكنني لم أحاول أن أضم الحرب الباردة كلها في إطار واقعي جديد.

لكن والتز نفسه حاول خوض هذه المغامرة، وعلى أساس التخصيص المعمم قدم استشرافًا في 1979 عن كيفية انتهاء الحرب الباردة، فقال إن العداوة السوفيتية الأمريكية ستتلاشى تدريجيًا لكن الثنائية القطبية ستبقى: "لم تكن الحواجز أمام دخول نادي القوى العظمى أعلى وأكثر [من الآن] قط. وسيظل هذا النادي الأكثر حصرية في العالم لمدة طويلة."[50] وسرعان ما ثبت خطأ والتز في الأمرين: وصل عدم الثقة بين واشنطن وموسكو مستويات جديدة خطيرة في بداية الثمانينيات، ولكن مع نهاية العقد كانت ثنائية القطب قد اختفت تقريبًا.

كانت مشكلة والتز في الاختزال: تعريفه للقوة الذي يولي الأهمية الأولى للقدرات العسكرية، وإصراره على التمييز الصارم بين الظواهر التي على مستوى النظام والتي على مستوى الوحدات، وتطلعه إلى العمومية العالمية الذي ألغى دور مرور الزمن نفسه في تحديد مسار الأحداث.[51] يتضح الآن بنظرة لاحقة أن أحد أهم أنساق تاريخ الحرب الباردة هو عدم تجانس تطور قدراتها، فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بدأا تنافسهما بامتلاك القوة بأبعاد متعددة -منها بالتأكيد القوة العسكرية، ولكن هناك

كذلـك القوة الأيديولوجيـة والاقتصادية بل والقوة الأخلاقية- لكـن الولايات المتحدة وحلفاءها وحدهم اسـتطاعوا الاحتفاظ بتعددية أبعاد القوة، وبهذه التعددية اسـتطاعوا المنافسـة في بيئـة دولية في حالـة تحول.[52] فقد كان اسـتشراف مآل الحـرب الباردة يحتاج نظرية تشمل هذه الأنواع المختلفة من القوة والبيئات التي تتجلى فيها.

هـل كان ذلك ممكنًا؟ أظن هذا، لكني لا أعرف أحـدًا حاول عمله. يقودني هذا كلـه إلى الفقـرة الاسـترجاعية التاليـة عن نهاية الحـرب الباردة من كتـابي نحن الآن نعلم، التي أتمنى لو كان لدي البصيرة والخيال لأكتبها استشرافًا قبلها بعقد في كتاب السلام الطويل:

> لتتصـور ما حدث، تخيـل ديناصور الترايسـيراتوبس مضطربًا مـن الخارج، أخذ منافسـوه يتأملـون حجمـه فقـط، وجلـده السـميك وأسـلحته ووقفتـه المتأهبة للهجوم، بدا الحيوان قويًا جدًا إلى درجة تمنع أي أحد من الاجتراء على الاشتباك معه. لكـن المظاهر كانت خادعة، فمن الداخل كانت أجهزته الهضمية والدورية والتنفسـية تتهاوى وهي في طريقها إلى التوقف التام. لم تكن هناك من العلامات الظاهـرة عـلى هذا إلا قليـل حتى وجد ذلـك المخلوق ملقى وقوائمـه الأربع في الهـواء، مهيـب المنظر لكنـه الآن منتفخ ولا حياة به. مغزى الحكاية أن الأسـلحة تعطـي الانطبـاع بمظهـر خارجـي مبهر، لكـن القوقعـة وحدها لا تضمـن بقاء حيوان أو دولة.[53]

كما هو واضح هذه مجرد استعارة وليست نظرية. ولكن ألا تبدأ النظريات أحيانًا باسـتعارات؟ يتحدث مـن أعرفهم من علماء السياسـة كثيرًا عن كـرات البلياردو، وقطـع الدومينـو، وعربـات الفـرق الموسـيقية، ودحرجـة الأشـجار المقطوعـة، وإشكاليات السجين، وعمليات صيد الأيائل، والدجاج -وهي مجموعة استعارات منتقاة. فلماذا لا يمكن أن نتخذ من ديناصور ميت أساسًا لتصور جديد لإطار فكري لنظرية نستمدها هذه المرة من الطب وليس من الفيزياء؟

7

ستكون النظرية كالتالي: تتوقف صحة الدول، ومن ثمَّ بقاؤها، على امتلاكها توليفة من أجهزة حفظ الحياة تكون متوازنة مع بعضها بعضًا ومع بيئتها الخارجية. فإذا اختل أحدها، ولم يتخذ حياله أي إجراء، فإن انهياره يمكن أن يؤثر في كل الأجهزة الأخرى. ربما يحتاج علاجها إلى اختصاصيين، لكن نجاح الاختصاصين مهما برعوا يستلزم مراعاة الكائن كله: تاريخه المرضي ونظامه البيئي المحيط. بإيجاز يمكن للأطباء أن يقدموا لنا قدر ما يقدمه مساعدو الباحثين في معامل الفيزياء لطلبة السنة الجامعية الأولى، فيساعدونا على فهم العلاقات الدولية والكيانات التي تعمل داخلها بنجاح.[54]

يعيدنا هذا إلى مفهوم السردية، فماذا يفعل الأطباء في علاج مرضاهم إلا أنهم يتتبعون عمليات متعددة متداخلة عبر الزمن، ثم يعرضونها لغيرهم حتى ينتفع الجميع؟ الأطباء يعممون ولكن على نطاق محدود؛ لأنهم لا بد أن يراعوا التفاصيل الخاصة بمرضاهم والتفاصيل الخاصة بالأمراض التي أصابتهم. وليس هناك من طبيب يقدم على علاج القلب دون التفكير في آثار ذلك في الأوعية الدموية والرئتين والكليتين والمخ: وحتى في عصر التخصص على الأطباء أن يراعوا النظرة الكلية لمرضاهم. فهم بالتأكيد لا يعتمدون على تفسير أحادي البعد للمرض أو الصحة، ولا يقبلون الاعتماد على علاج واحد. كما أنهم لا يتجاهلون دور الزمن، بوصفه عدوًا وحليفًا في آن واحد في فن العلاج.[55]

وعليه فإن الأطباء يتعاملون طيلة الوقت مع مفارقة التعميم الخاص. وكذلك يفعل علماء الحفريات، بل علماء الأحياء التطورية والفلك والخرائط والمؤرخون -وإنني لن أتردد في قول إن هذا ما يفعله أغلب الناس في أغلب مواقف الحياة. وهذا يثير السؤال مرة أخرى: من أين يأتي نفوذ التخصيص المعمم في العلوم الاجتماعية؟

ربما أنتج التحول إلى التخصصية المهنية لونًا من "نرجسية الاختلافات الثانوية" الفرويدية: فغالبًا ما تعرف الفئات نفسها على أساس اختلافها مع جيرانها.[56] وربما كان في هذا خلط بين الشكل والوظيفة: فأحيانًا يقدم النقاء المنهجي أولًا في مناقشات النظرية على أسئلة بسيطة مثل "ما عملها؟" ربما كان في هذا سوء فهم لكيفية عمل العلوم "الصلبة"؛ لأن التعميم الخاص متوفر في كثير منها. وربما كان الأمر مجرد غيرة من الفيزياء.

ومهما كان التفسير، فإن القضايا الحاضرة هنا تقع في قلب معنى صفة "العلمية". وهي بالتأكيد تعني البحث عن "إجماع على رأي عقلاني على أوسع نطاق ممكن"، كما قال جون زيمان.[57] لكنني أعتقد كذلك أن معناها ربط هذا التعميم بالعالم الحقيقي. فإذا كان السبيل الوحيد للوصول إلى إجماع هو فصله عن الواقع، عندما تقدم بنية تعميماتك على المحتوى الذي توصله -فإنني أرى أنك تخاطر بالارتداد إلى نوع التفكير الذي كان قائمًا قبل الثورات العلمية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، عندما كانت مقولات أرسطو أو غالين أو بطليموس تعد مرجعيات مهيمنة بالرغم من تناقض الأدلة القائمة أمام أعين الجميع، وكما قال زميلي السابق في جامعة ييل روجر سميث: "الأناقة لا تستحق ذلك الثمن."[58]

يرفض أغلب علماء الطبيعة اليوم فورًا مجرد احتمال دفع هذا الثمن وكذلك أغلب المؤرخين، ولكن هل يرفضه أهل العلوم الاجتماعية؟ لا يسعني إلا أن أتساءل: هل الإصرار على التمييز بين المتغيرات المستقلة والتابعة، لَم يتحول لدى بعض العلوم الاجتماعية إلى اختبار هوية ينتمي إلى مرحلة سابقة على العلم الحديث، وليس منهجًا بحثيًا متجانسًا؟ يبدو أن هذا من الأشياء التي تفعلها لتثبت مؤهلاتك لتكون منتميًا إلى النهج القويم، لتظهر توقيرًا للمرجعية أكثر مما تظهره للواقع.[59] لكن، هل ثمة شيء وراء هذا يحققه هذا الأسلوب؟ إن لم يوجد، فينبغي ترك "عملية فك التشابك" إلى مهنة تتقنها مثل مهنة تصفيف الشعر.

الفصل الخامس

الفوضى والتعقيد

ختمت الفصل السابق بقولي -الذي أعترف أنه مستفز عن عمد- إن مناهج المؤرخين أقرب إلى بعض علماء الطبيعة منها إلى العلوم الاجتماعية. واحتججت بأن كثيرًا جدًا من أهل العلوم الاجتماعية يأخذهم الحرص على تحديد المغيرات المستقلة، فلا يراعون شرطًا أساسيًا للنظرية، وهو تفسير الواقع. فهم يحيلون المعقد بسيطًا حتى يتمكنوا من استشراف المستقبل، ولكنهم إذ يفعلون ذلك يبسطون الماضي تبسيطًا مخلًا.

ولا عجب أن هذه الاتجاهات جعلت متخصصي العلوم الاجتماعية على خلاف كبير مع المؤرخين عمومًا، ومع المؤرخ كاتب هذه السطور تحديدًا عندما يقرأون ما كتبت. لكن العلوم الاجتماعية انحرفت عن مناهج من يسمون بأهل العلوم الصلبة، الذين لا يعتمدون في الاستوثاق من نتائجهم على التجريب القابل للتكرار وحده -أي تكرار الزمن والتحكم في المتغيرات الذي تسمح به هذه الطريقة، ثم ما يترتب على ذلك من تحديد كونها مستقلة أو تابعة. فإن مجالات مثل الفلك والجيولوجيا وعلم الحفريات والأحياء التطورية والطب لا تتقيد بحدود المختبرات. فهي تركز كما يفعل التاريخ، على تفاعل المتغيرات التي تعتمد على بعضها بعضًا بطرق معقدة

عبر حقب زمنية ممتدة، ومع ذلك، فإن كل واحد من هذه العلوم يقول لنا شيئًا عن المستقبل بطريقته.

فهل يستطيع المؤرخون أيضًا أن يفعلوا ذلك؟ وللشروع في الإجابة عن هذا السؤال لا بد لي من أن أوثق الصلات بين التاريخ والعلم «الصلب» في وقتنا هذا. وأود أن أبدأ ببحث شخصي لأحد المؤرخين عن المتغير المستقل منذ قرن، وإلى أين ساقه ذلك.

1

المؤرخ هو صاحبنا العتيد هنري آدامز وبحثه مروي في سيرته الذاتية الرائعة تعليم هنري آدامز التي انتهى منها في عام 1907، لكنها صدرت في 1918، بعد وفاته. صور آدامز نفسه في بحث دائم طيلة عمره عن «تعميم أكبر» واحد يمثل مفتاحًا لفهم الماضي واستشراف المستقبل. فكتب أن مهمة المؤرخ (مستخدمًا فعلًا معاصرًا مما يثير الدهشة) «هي أن يقوم بمسح ثلاثي الزوايا من أوسع قاعدة ممكنة إلى أبعد نقطة يصل إليها نظره، وهي دائمًا أبعد كثيرًا من قوس الأفق المنظور».[1]

هل كان جادًا؟ الإجابة صعبة التحديد دائمًا مع آدامز. فقد كان في مواضع كثيرة من سيرته المهنية «مفصلًا» و«مجملًا» في آن واحد -أي أستاذًا في استخلاص التفاصيل الدقيقة، كما في مؤلفه القيّم عن تاريخ إدارتي جيفرسون وماديسون، وكان كذلك من أشد من أجملوا في التاريخ وعموا، مثلما قسم التاريخ إلى عصري العذراء والدينامو (المولّد الكهربائي) على الترتيب.[2] ومما يزيد الأمر تعقيدًا أن آدامز كان قادرًا قدرة كاملة على محاكاة جانبي شخصيته محاكاة متهكمة. مع ذلك فقليل من المؤرخين فاقوه بصيرة، في البحث عن متغيرات مستقلة في التاريخ وما لاقاه من مشقة في إيجادها، وأبواب التدليل على ذلك بإثبات صلة التاريخ بالعلم «الصلب».

تأثر آدامز تأثرًا كبيرًا بالكشوفات العلمية الكبرى في القرن التاسع عشر، مثل «النظرية الذرية وعلاقات الطاقة وبقائها، والنظرية الآلية للكون والنظرية الحركية للغازات وقانون الانتخاب الطبيعي لداروين.» أما «التعميم الأكبر» الذي كان يرجو أن يصل إليه فهو معادل التاريخ، ولم يوضح قط إن كان يقصد المعنى الحرفي أم المجازي. فقد استخدم القياس بالمجالات المغناطيسية، فادعى أنه يبحث عن خطوط القوة الخفية التي تمنح التجانس للتاريخ، ويُتوقع أن تشكل المستقبل.[3]

لكن شيئًا غريبًا حدث لآدامز وهو في طريقه إلى المستقبل، وهو أنه اكتشف الفوضى، حتى إنه وصل إلى الاعتقاد بأن «التعميم الأكبر» الوحيد الفعال، تعميم لم يثمر شيئًا، بمعنى أنه لم يتح تفسيرًا للماضي يسمح باستشراف القادم. وصل آدامز إلى هذه الخلاصة نتيجة تتبع أعمال عالم الرياضيات الفرنسي هنري بوانكيريه الذي كان يجري أبحاثًا رائدة في ذلك الوقت على مسائل الأجسام الثلاثة، والمعادلات التي تمثلها. أثبت بوانكيريه أنه داخل الأنظمة (الديناميكية) لا توجد علاقة بين المتغيرات المستقلة والتابعة، وأن كل شيء يعتمد على كل شيء آخر. وهو يقول في فقرة اقتبسها آدامز، وحتى لو «صارت وسائل استقصائنا أكثر قدرة على الاختراق، فإننا سنكتشف البسيط تحت المعقد، ثم المعقد تحت البسيط، ومرة أخرى البسيط تحت المعقد، وهكذا دون أن نستطيع استشراف آخر حد.» ويقول آدامز معلقًا إن هذه النتائج «تعد بالنعيم الأبدي لعالم الرياضيات، لكنها تخلع قلب المؤرخ فزعًا.»[4]

لم تجتذب أفكار بوانكيريه كثير اهتمام نسبيًا في نصف القرن الآتي بعده؛ لأنه لم يوفر وسائل حل كثير من المعادلات المعقدة التي ولدتها هذه المسائل، أو تمثيلاً للحلول بصريًا.[5] لكن مع تطور أجهزة الحاسوب، تغير ذلك كله، وكان من نتيجته إلى حد بعيد صعود علوم الفوضى والتعقيد «الجديدة». وفي ظني أن هذه العلوم تزيد من احتمال إحياء مشروع آدامز القديم، إن لم يكن الخاص باكتشاف طبيعة التاريخ، فعلى الأقل إيجاد مصطلحات جديدة نصف بها طرق عمل التاريخ غير المحددة. وليس أقلها ظاهرة المتغيرات المعتمدة على بعضها، أو الأحرى أن نسميها السببية المعقدة مقابل السببية البسيطة.

2

السببية البسيطة سهلة الفهم، فالتغيرات في متغير تنتج تغيرات مماثلة في المتغيرات الأخرى: عندما يواجه المتغير س المتغير ص ينتج ع. وعليه فإن سلوك النظام قابل تمامًا للتنبؤ. وأحد الأمثلة الجيدة على ذلك هو الاختلاف بين قيادة سيارة من أكسفورد إلى لندن بسرعة 70 ميلا أو 100 ميل في الساعة. ليس من الصعب على الإطلاق أن تتصور الوقت الذي ستوفره -أو الفرق فيما تستهلكه من وقود- عن طريق حساب الزاوية التي تختار أن تحافظ عليها بين دوّاسة البنزين وأرضية السيارة، على الأقل في عالم مثالي لا تعتريه الطوارئ.

لكن العالم ليس مثاليًا، فطريق السيارات م - 40 لا يخلو من معوقات، ويستحيل أن تعرف مسبقًا المدة التي ستستغرقها من أكسفورد إلى لندن على وجه الدقة. فمثلًا هناك احتمال أن توقفك الشرطة أو أن يقع حادث إذا قدت السيارة بسرعة 100 ميل في الساعة أكبر من قيادتك بسرعة 70 ميلا في الساعة. فإذا حدث لك هذا -أو شيء مما يحدث لعشرات الألوف من قائدي السيارات الذين يحاولون القيادة على طريق م - 40 في صباح أي يوم من أيام الأسبوع، ولو كان ما حدث انفصال اللوح الخلفي لسيارة نقل بطيء فانسكبت منها مادة فظيعة مثل المارمايت بطول الطريق- فساعتها ستكون كل احتمالات الوصول إلى لندن في ميعاد المحاضرة أو مقابلة وظيفة جديدة قد ذهبت أدراج الرياح. أنت هنا في عالم السببية المعقدة.

إن كل قائد سيارة يرى وميض سيارة الشرطة الأزرق أو أي مركبة طوارئ لا بد أن يبطئ سرعته، ولكنهم لا يفعلون ذلك بمعدل واحد. وسرعان ما سيحدث تكدس مروري يطول أميالًا. وليست هذه نتيجة مباشرة عن هذا الحدث الأصلي، بل عن عشرات الآلاف من القرارات بدعس المكابح أو إطلاقها، كل قرار منها اتخذ بناءً على ما يفعله قادة السيارات الآخرون.

ما يحدث هنا ظواهر قابلة للتنبؤ وأخرى غير قابلة داخل النظام نفسه. سلوك قادة السيارات في الاختناق المروري الذي نحن فيه قابل للتنبؤ، أغلبهم سيبطئ عندما يرون الشرطة أو سيارات الإسعاف، وكلهم تقريبًا سيضغطون على المكابح عندما يدركون أن السيارات التي أمامهم تفعل ذلك، وكل الأمريكيين الذين يتصادف وجودهم على الطريق في ذلك اليوم سينزعجون من رائحة المارمايت. أما غير القابل للتنبؤ فهو السلوك الجماعي لهؤلاء السائقين -الأثر الكلي الذي يأتي من الاستجابات التفصيلية.

ذلك أن هذه الاستجابات التفصيلية لن تحدث بطريقة واحدة. يختلف انتباه السائقين فمنهم من قضى ليلة صعبة ومنهم من يتحدث في هاتفه الخلوي. وحتى لو كان الجميع منتبهين بأقصى درجة، فإن ردود أفعالهم تعكس الاختلافات في الرؤية ورد الفعل المنعكس لدى كل سائق، وهذا بدوره ينعكس على السرعة التي عَبَرت بها الدفقات الكهروكيميائية بين بلايين البلايين من النقاط العصبية، وهكذا. فإذا ضربنا هذا في عدد السائقين في اختناقنا المروري، فسيكون لدينا عدد لا نهائي تقريبًا من المتغيرات المعتمدة على بعضها، لا يمثل أحدها سببًا للمشكلة أكثر من غيره.

إن أغلب ظواهر المستوى الأصغر داخل نظامنا ظواهر خطية، أي إن هناك علاقة قابلة للتنبؤ فيها بين المدخلات والمخرجات، بين المثير والاستجابة. وبدون هذه الخطية وما تتيحه من تعميمات -كمثال السائقين الذين عادة ما يضغطون على مكابحهم عندما يرون ضوءًا أحمر أمامهم- فإننا سنغرق في مهمة السرد البسيطة: إذ سيكون علينا أن نتناول كل الليالي السيئة والهواتف الخلوية وردود الأفعال المنعكسة والومضات العصبية. سيكون موقفنا هنا أصعب كثيرًا مما كان في الفصل السابق عند الإشارة إلى ملابس نابليون الداخلية. ونحن نلتف على هذا بممارسة التعميم الخاص: أي نسلّم بأشياء من شأن ذكرها أن يعوقنا. ودون هذا الإجراء لن يكون لدينا أمل في تمثيل الماضي؛ لأن البديل هو استنساخ الماضي، وهذا بلا شك مستحيل.

لكـن سـلوك نظامنـا على المسـتوى الأكـبر -أي طريـق م 40- في يـوم اختناقنا المـروري- غير خطـي. العلاقات بالفعـل قائمة بين المدخـلات والمخرجات، وبين المثير والاسـتجابة، لكـن هذه المتغيرات كثيرة العدد وشـديدة الاعتـماد على بعضها لدرجة أننا لا نسـتطيع بحالٍ أن نحسـب آثارها مسـبقًا. وكما فسر الكاتب المسرحي طوم سـتوبارد الرياضيات، فإنك تغذي المعادلة التـي تحلها بما وصلت إليه من حل لهـا وتعيـد الكرة المرة بعد المرة. ويحدث هذا في أي نظـام «يتغذى على أرقامه -أوبئة الحصبة ومتوسـطات المطر، وأسـعار القطن، فهذه في ذاتها ظاهـرة طبيعية وهذا أمر مخيف.»[6] لهذا السـبب فإن التخصيص المعمم -أي تطبيق نظرية عامة للاختناقات المروريـة عـلى هذا الاختنـاق- لا يحتمـل أن يقدم لنـا معلومات عما نريـد أن نعرفه بالفعل، وهو الزمن الذي سنستغرقه فيه.[7]

كانـت فكـرة بوانكيريه الثاقبـة إثبـات أن العلاقات الخطية وغـير الخطية يمكن أن تتعايش: أي إن النظام الواحد يمكن أن يكون بسـيطًا ومعقدًا في الوقت نفسـه. رأى آدامز هذه الصلة مع التاريخ ورفع ذراعيه مستسـلمًا، معترفًا أنه عاجز عن فهم طريقة لوصف هذا الكيان الغريب بلغة علمية هو على علم بها. ما لم يتنبأ به آدامز أن عمل بوانكيريه سـيبين طريق نوع جديد من العلـم. علم ميّز بين القابل للتنبؤ وغير القابل للتنبؤ، ولا يعتمد على اختزال تعقيد في بساطة، ويعترف -بل يقدر- الاعتماد المتبادل بين المتغيرات، باختصار، علم يشبه التاريخ.

3

من زاوية ما، لم يجدّ جديد بشأن الفوضى والتعقيد، إذا كنا نقصد بهذين المصطلحين أن نعترف بعدم اليقين. فكما تسعى العلوم الاجتماعية إلى إثبات شرعيتها عن طريق التوجـه نحـو صفة قابليـة التنبؤ التي تميـز الفيزياء منـذ أيام إسـحاق نيوتن -وهي المناهـج التي كان آدامـز يرجو أن يطبقها عـلى التاريخ- فإن علماء الطبيعة أنفسـهم

كانـوا يتحولون عن ذلـك التوجه. يصف وليم هـ. ماكنيل هـذه العملية: «يقينيات آلة نيوتن الكونية، بقدرتها المذهلة على التنبؤ بحركة الشمس والقمر والكواكب، بل النيازك ووصف حركتها قديماً تبددت على غير توقع في كون يتطور، له تاريخ وكثيرًا ما يكون فوضويًا.»[8] اتضح أن هناك تسللاً منهجيًّا للسفن ليلًا.(*)

إذا كانت معادلات بوانكيريه قد أفزعت آدامز، فماذا كان سيحدث له لو عرف أينشتاين أو هايزنبيرغ؟ لأنـه إن كانت مفاهيم الزمان والمكان نفسـها نسـبية، وإذا كانت مراقبة الظاهرة نفسـها تشـوه الظاهرة، فمن الصعب أن نتوقع كيف يمكن أن يحقـق المؤرخون أو غيرهم اليقين: فما رأيتـه، وعليه فما فكرت فيه يعتمد حرفيًا تمامًا على موضع وقوفك. لم تتح الفيزياء أساسًـا كافيًا للاعتقاد بأننا نسـتطيع أن ننظر إلى المستقبل نظرة ثلاثية الزوايا.

حتى فكرة التواصل نفسـها لا يمكن التسـليم بها. كانت النظرة العلمية القديمة أن التغيير تدريجي أو "متسـق" في معدله، وبذلك يمثل نظامًا في ذاته.[9] لكن إدراك آدامز أن التاريخ نفسـه زاخر بالتحولات الفجائية والأحداث الكارثية جعله يشك في تلـك النظـرة، لكنه لم يواصل الأمر.[10] وفي أثناء القرن العشرين، صارت العلوم الصلبة نفسـها تتشـكك فيهـا: فقد أدركنـا أن الإلكترونات تقفـز في لحظة من مدار حـول نـواة ذرية إلى أخـرى، ولنذكر ما علمه لنا توماس كون عـن الثورات العلمية و"تحـولات النموذج التفسـيري" التي تصاحبهـا،[11] أو عمل سـتيفن جاي غولد ونايلـز إلدريـدج في "التـوازن المتقطع" في تطـور الأنواع،[12] أو مكتشـفات لويس الفاريز وغيره عن الآثار الكوكبية وفناء الأنواع الحية -وقد كان له تأثير ضخم.[13]

نتـج عـن ذلك كله إدراك ليـس في الفيزياء وحدها بل في الكيميـاء والجيولوجيا وعلم الحيوان وعلم الحفريات والفلك، بأن بوانكيريه كان على حق: بعض الأشياء قابلـة للتنبـؤ وبعضهـا غير قابـل؛ فالانتظـام يتعايش مع العشـوائية؛ يتصـف العالم الذي نعيش فيه بالبسـاطة والتعقيد معًـا. وحتى قبل ظهور نظرية الفوضى والتعقيد

(*) يقصد تحولاً تدريجيًا عن موقف ما غير منظور لكنه مستمر.

في سبعينيات القرن العشرين، كان المنظور العلمي القديم الذي يفترض الطبيعة المطلقة للزمان والمكان وموضوعية الملاحظة ومعدلات التغير القابلة للتنبؤ -ومن ثم التمييز بين المتغيرات التابعة والمستقلة- قد فات أوانه في العلوم الطبيعية كما فات أوان النموذج الكوني البطلمي أيام نيوتن.[١٤]

وسّعت نظرية الفوضى والتعقيد هذه الأفكار من ثلاثة أوجه: توضيح الظروف التي يصير فيها القابل للتنبؤ غير قابل للتنبؤ؛ إثبات إمكانية وجود أنساق عندما لا يبدو أنها موجودة؛ إثبات أن هذه الأنساق يمكن أن تظهر تلقائيًا، دون أن يسعى أحد إلى وضعها. هذه النتائج جميعًا تعزز فهمنا للاختلاف بين العلاقات الخطية وغير الخطية -كيف تصير الأنظمة المنتظمة غير منتظمة، أو العكس. هذه الأشياء مفيدة للمؤرخين؛ لأن عليهم أن يتعاملوا مع هذه الأسئلة طيلة الوقت.

لكن الفوضى والتعقيد يقدمان شيئًا آخر لا يقل عن هذا أهمية للمؤرخين، وهي طريقة للتمثيل البصري للعلاقات بين الظواهر القابلة للتنبؤ وغير القابلة التي كانت قبل عصر الحاسوب لا يمكن التعبير عنها إلا برياضيات شديدة الصعوبة. فقد أعطيا لنا نوعًا جديدًا من القرائية. ومن ثم مجموعة جديدة من المصطلحات لتمثيل العمليات التاريخية.[١٥] وحتى أكون أوضح ما يمكن: هذه استعارات، وليست العمليات نفسها. ولكن عندما نتذكر أن آدامز أيضًا كان يعتمد على الاستعارات لتمثيل العمليات التاريخية -وهو ما جعله يستخدم استعارة "العذراء والدينامو" ليرمز إلى التحول من وعي ديني إلى وعي دنيوي- يتبين قدر تشابك الصلات.

فما كان هنري آدامز ليصنع بالفوضى والتعقيد والحاسوب؟ سأورد فيما يلي تأملات سأحاول استخدامها لأوضح بدوري كيف يتعامل المؤرخون مع المتغيرات المعتمدة على بعضها.

4

الاعتماد الحساس على الظروف الأولية: في ستينيات القرن العشرين، شرع عالم الأرصاد الجوية إدوارد لورنز في بناء نموذج لأنساق الطقس على حاسوب بدائي، فغذاه باثني عشر حدًا وجعل برنامجه يمر على عدة أيام افتراضية، وتوقع أن يجد علاقات خطية بين المدخلات والمخرجات تحسن دقة استطلاعات الطقس. لكنه حصل على نتائج شديدة التنوع مصدرها في النهاية تحولات طفيفة -مثل الاختلاف بين الأرقام حتى ثلاث أو ست خانات عشرية- في البيانات التي أدخلها في البداية. ولأن ظروف الطقس الحقيقية لا يمكن أن تقاس مطلقًا بهذه الدرجة من الدقة، فقد خلص لورنز إلى أن الاستشراف في هذا المجال سيظل دائمًا مشكلًا: نظريًا على الأقل، فإن رفرفة جناحي فراشة فوق بيجين قد تسبب إعصارًا يضرب بالتيمور. (16)

أما المؤرخون فسيرون هنا إعادة صياغة لفرض "أنف كليوباترا" الشهير، وهو إذا كان الشيء موضع النظر مختلفًا اختلافًا طفيفًا في شكله، ما كانت صاحبته جذبت إليها يوليوس قيصر ومارك أنطونيو ولتغير ما تلى ذلك من تاريخ العالم. وقد اعترض ديفيد هاكيت فيشر، حرفيًا، على هذا التصور فقال: "بالتأكيد كانت هناك أجزاء تشريحية أخرى أهم عند ذلك الروماني حار الدم."(17) فإذا تجاوزنا عن هذا النوع من النكات -والحكايات المتوقعة عن المسامير وحدوات الخيل والممالك الضائعة- فليست لدى المؤرخين قاعدة تفكير جدي متينة في مدى تسبب أحداث صغيرة في عواقب كبيرة، بل إنهم أقروا بأن هذه مشكلة حاضرة دائمًا.

السؤال هو كيف تعرف مثل هذا الحدث عندما تراه؟ لماذا لم يؤد مرفق كليوباترا إلى صعود إمبراطوريات وسقوطها؟ كيف يمكن لحبة رمل تسقط أن تتسبب في انهيار كومة رمل، على الرغم من أن مئات الحبات سبقتها دون إحداث أثر؟(18) يقدم نموذج لورنز الحاسوبي إجابة عن هذه الأسئلة، هي أنك لن تستطيع أبدًا أن

تصنف المتغيرات الحرجة مسبقًا في الأنظمة المعقدة. ولا تملك إلا أن تحاول تحديدها بأثر رجعي، وفي هذا ما يكفي من صعوبة.

كلمة "معقد" هنا لا علاقة لها بحجم النظام المقصود. فطريق م - 40 نظام معقد لتفاعل عدد كبير جدًا من المتغيرات فيه. وكذلك الطقس في أكسفوردشاير، كما يكتشف ذلك سريعًا كل من يعيش فيها. لكن حركة سفينة فضاء خارج مدار الأرض بسيطة نسبيًا: نتيجة لذلك، من الأسهل تقدير أوقات الوصول على المريخ منه في لندن، كما أنك تأخذ مظلتك وأنت تتجول في أكسفورد بغض النظر عما يقوله تقرير توقع الأحوال الجوية.[19]

وهكذا تقبل الأنظمة ذات المتغيرات قليلة العدد النمذجة ولا تقبلها الأنظمة ذات المتغيرات الكثيرة. والسبيل الوحيد لتفسير سلوكها هو محاكاتها، وهذا يعني تتبع تاريخها. وبالتأكيد لا يلاحظ علماء الطبيعة هذا في مجال الطقس وحده. فهم يعلمون مدى صعوبة تحديد النقطة التي ستنهار عندها كومة الرمل، أو الشكل الذي ستتخذه رقاقة الثلج أو وقت وقوع زلزال.[20] وقد وصل الأمر بغولد أن أعاد كتابة تاريخ الحياة من هذا المنظور، متحديًا فكرة البقاء للأصلح القديمة، فقال بخلافها إن عنصر العَرَضية -مثل أن حالف بعض الكائنات الحظ فدخلت في بيئات تطورية مواتية- لعب دورًا حاسمًا. فلو كان الأمر ممكنًا، فإن إعادة تشغيل شريط الحياة يعني إنتاج نتائج مختلفة، وعلى ذلك فإن الاستقصاء التاريخي وحده هو ما يمكن أن يفسر ما حدث بالفعل. وهو يقول مؤكدًا إن "المناهج المناسبة هي التي تركز على السردية وليس التجريب كما يشاع."[21]

هذا ما يقصده أهل العلوم الاجتماعية عندما يستخدمون مصطلح "الاعتماد على المسار": أي إن حدثًا صغيرًا في بداية عملية ما يحدث فرقًا كبيرًا في نهايتها.[22] وعلى سبيل المثال، بيّن عالما الاقتصاد بول ديفيد وبراين آرثر، أن التكنولوجيات تنبع من مصادفات تاريخية أكثر مما تنبع من اختيارات عقلانية على أساس معلومات دقيقة: فالأمر يتوقف على أيها صادفته هذه الابتكارات أولًا. وأشهر مثال يضربانه هو

لوحة مفاتيح الآلة الكاتبة بترتيب حروفه الحتمي الحالي (QWERTY) الذي لا يمثل بحال أفضل ترتيب لها.[23] أما عالم السياسة روبرت بوتنام فقد دفعه الفضول لمعرفة السبب في أن بعض المناطق الإيطالية اليوم لديها حكومات تعمل بكفاءة وأخرى لا تعمل بكفاءة، فوجد أن أفضل تفسير هو التفسير التاريخي: أي إن الأكفأ هي المدن -الدول التي كانت تتمتع بوعي مدني قوي منذ خمسة قرون أو يزيد.[24] وإن مصطلحات مثل "البنائية" و"السلوكية" و"التاريخانية"، كما تستخدم في العلوم السياسية والاقتصاد والاجتماع تعكس أهمية "الاعتماد على المسار": أي إنها تقدم أساسًا نظريًا لأخذ التاريخ على محمل الجد.[25]

لكن مثل هذه الأفكار يسبب صعوبات حقيقية في عملية الاستشراف لأن إعادة تشغيل الشريط، كما يشير غولد، في هذه الأنظمة المعقدة لن يفرز النواتج نفسها أبدًا. وإن أي اعتماد على المنهج الاختزالي لتبسيط الماضي بهدف استشراف المستقبل حتمًا سيفشل في هذه المواقف، وسنعود إلى السردية التاريخية القديمة. فماذا نتعلم من مصطلحات مثل الاعتماد الحساس على الظروف الأولية؟ أعتقد أن ما ينبغي أن نكتسبه هو تقدير جديد للسردية بوصفها أداة بحث أكثر دقة مما يدرك أغلب أهل العلوم الاجتماعية -وأغلب المؤرخين.

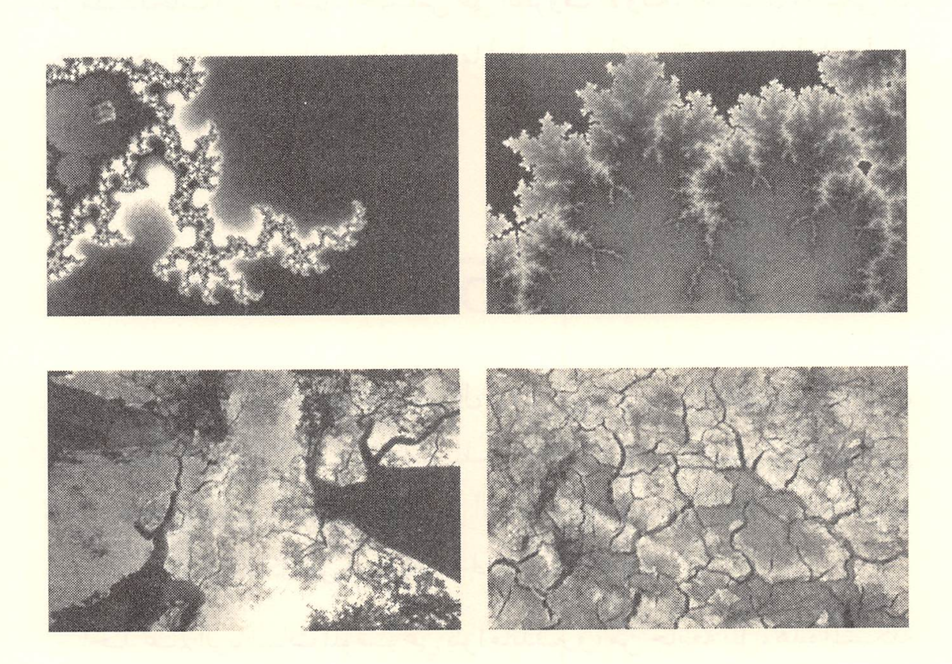
5

الكسوريات: ذكرت من قبل سؤال لويس ريتشاردسون الشهير: "ما طول الخط الساحلي لبريطانيا؟" والإجابة بطبيعة الحال أنه يتوقف على الوحدات التي نقيس بها. هل نقيس بالميل أو بالكيلومتر أو القدم أو البوصة أو السنتيمتر، فالنتيجة ستختلف، وتمتد المشكلة إلى مستويات الجزيئات والذرات.[26]

أخذ عالم الرياضيات الموسوعي بنوا ماندلبرو، من جامعة ييل، هذه المشكلة خطوة أبعد، فأثبت أن هناك طريقة أخرى لقياس الخط الساحلي البريطاني ستعطي

إجابـة واحدة: وهي تتعلق بدرجة عدم الانتظام ذاتها أو درجة التعرج. عندما نطبق مبادئ الهندسـة "الكسريـة" -وهو مصطلـح ماندلبرو- في جوهرهـا، تبرز ظاهرة مدهشـة: وهي التشابه الذاتي عبر المقياس. فإن درجة الخشونة أو النعومة أو التعقيد أو البسـاطة غالبًا ما تكون واحدة، سـواء كنت تراقبها من منظور مجهري (تفصيلي) أم كوني (واسع النطاق) أو شيء بينهما.

إذا شـققت نبتـة القرنبيـط (الزهـرة) إلى أجزاء أصغر وأصغر، تظل الأشـكال متشابهة. ويحدث شيء كهذا عندما نقترب بالكاميرا من الأوعية الدموية والدفقات الكهربية والشـقوق في الرصيف، بل في أشـكال الجبال على الأفق القريب والبعيد. إن نماذج أنظمة الصرف الزراعي التي تراها من الطائرة على ارتفاع ثلاثين ألف قدم تشـبه فروع الأشـجار التي تراها مـن بعد ثلاثين قدم من تحتهـا. غالبًا ما تكون هذه الأشـكال واحدة في هذه الأنظمة بصرف النظر عن المقياس الذي ينظر منه الإنسان إليها.[27]



أربع كسوريات الاثنتان في الأعلى مولدتان حاسوبيًا والاثنتان في الأسفل طبيعيتان

تشرح ثوماسينا ابنة القرن التاسع عشر وبطلة مسرحية توم ستوبارد أركاديا الكسوريات بأنها: "منهج ينبغي أن تسلم بمقتضاه كل أشكال الحياة أسرارها العددية وترسم نفسها بالأرقام فقط." أما هنّا، وهي إحدى شخصيات القرن العشرين في المسرحية، فتلتقط ورقة تفاح:

> هانا: ولهذا لم تستطيعي رسم صورة لهذه الورقة بتكرار شيء ما؟
>
> فالانتاين: بل يمكنك فعل ذلك ... إذا عرفت اللوغاريتم ثم غذيت به الحاسوب نحو عشرة آلاف مرة، سيكون في كل مرة نقطة في مكان ما على الشاشة. ولن تعرف أبدًا أين تتوقع النقطة التالية. ولكن تدريجيًا ستبدأ في رؤية هذا الشكل؛ لأن كل نقطة ستكون داخل شكل هذه الورقة، لن تكون ورقة، ستكون شيئًا رياضيًا. لكن نعم سينكشف غير القابل للتنبؤ والمقرر سلفًا معًا ليكون كل شيء على ما هو عليه.[28]

فما متضمنات ذلك بالنسبة إلى التاريخ؟ سنبدأ بجملة واحدة من إ. هـ. كار: ليس معنى أن الجبل سيبدو بأشكال مختلفة من زوايا رؤية مختلفة أنه موضوعيًا ليس له شكل على الإطلاق أو أن له أشكالًا لا نهائية.[29] استخدم كار هذه الفكرة النافذة للهجوم على النسبية: أي القول بانتفاء الموضوعية في التاريخ وأن تأويل أي مؤرخ لا يفضل تأويل مؤرخ آخر في شيء. لكن هذا ينبهني إلى أن كار برغم افتقاره إلى كلمة يعبر بها عما يصفه، قد أدرك مفهوم الهندسة الكسورية ورأى ارتباطه بالتاريخ. ولم يتفرد بذلك.

رأينا من قبل ماكولي وآدامز وماكنيل، في كتاباتهم التاريخية القيّمة يتنقلون بين المنظور المجهري والكوني (الشامل والتفصيلي): إن ما يربط المنظورين نوع من التشابه الذاتي عبر المقياس.[30] ولقد كرس ميشيل فوكو سيرته الفكرية كلها لإثبات أن أنساق السلطة تظل كما هي على مستوى الخطاب أو الأسر أو المدن أو المؤسسات أو الحكومات أو الدول أو الثقافات.[31] وتبين دراسات الديكتاتوريات (الأنظمة

الاستبدادية) أن السلوك في قمة السلطة يفرخ سلوكًا مشابهًا على المستويات المؤسسية الأدنى، إقليميًا ومحليًا، بل على مستوى الحي السكني: فمن الصعب قراءة يوميات فيكتور كليمبرر الرائعة، مثلًا، دون أن نرى معاداة هتلر للسامية تمتد على مستويات المجتمع النازي الألماني حتى أدنى مستويات الحياة اليومية.[32]

لكن أعتقد أن الكسوريات تتيح لنا استعارة أيضًا، تتعلق بالحركة في الاتجاه الآخر: أي السلوك الذي يأتي تلقائيًا عند القاعدة ثم يأخذ طريقه تدريجيًا إلى القمة. ومثال ذلك، رد الفعل تجاه السلطوية أثناء النصف الثاني من القرن العشرين وكذلك معرفة الحاسوب والإنترنت،[33] بالإضافة إلى بعض التطورات في الثقافة الشعبية، لا يمكن تفسيرها من دون تصور هذه الحركة العكسية، وإلا كيف نفسر أن إلفيس بريسلي ما زال يظهر على الشاشات بانتظام، وأن عضو فريق البيتلز حصل على لقب فارس.

6

التنظيم الذاتي: تسببت هذه الظاهرة في قدر كبير من الإزعاج عبر السنين لعلماء العلوم "الصلبة" والاجتماعية على السواء. فقد كان علماء الفيزياء لمدة طويلة يُعدون القانون الثاني في الديناميكيات الحرارية ينطبق على كل شيء، ويقول هذا القانون إن كل شيء في الكون يميل إلى الأنتروبيا أو "الموت الحراري"، لكن هذا المبدأ يبدو صعب التوافق مع ميل بعض أشكال الحياة، في أثناء تطورها، إلى أن تصير أكثر تعقيدًا."[34] يواجه العلماء الاجتماعيون ظواهر تبدو غير خاضعة لقانون يحكمها مثل الأسواق أو النظام الحكومي الدولي، وصعوبات مثلها في تفسير نشأة التعاون داخل هذه البنى.[35]

لكن علماء الفوضى أثبتوا إمكانية تعايش أنساق مدهشة من الانتظام داخل أنظمة تبدو فوضوية في العالم المادي. والمثال التقليدي هو البقعة الحمراء العظيمة

على كوكب المشـتري التي احتفظت بشـكلها وحجمها منذ أن اسـتطاع البشر رؤية سطح هذا الكوكب، على الرغم من غلافه الجوي المضطرب. وهناك معادلات غير خطية إذا وضعناها على شاشـات الحاسـوب تنتج "جاذبات غريبة" تقيد العمليات غـير القابلـة للتنبـؤ في بنـى قابلة للتنبـؤ.[36] وقـد أثبت دارسـو التعقيد باسـتخدام النمذجة الحاسـوبية أن السـلوك المنظم يمكن أن ينشأ تلقائيًا في المحاكاة التي يسمح فيها للوحدات أن تتفاعل مع بعضها بعضًا حسب عدد من القواعد الأساسية.[37]

أدى هذا كله إلى تزايد الاهتمام بالأنظمة التكيفية المعقدة.[38] كيف تعرف أسراب الطيور أو الأسماك جميعًا متى تغير اتجاهها في وقت واحد؟ ما سبب ارتفاعات السوق وانهياراته؟ لماذا تصعد الإمبراطوريات العظيمة تدريجيًا وتفرض نفوذها. ثم تتحلل فجأة وعلى غير توقع؟ ومن ذلك، كيف صارت الحرب الباردة إلى سلام طويل؟[39]

مـن المعروف أن المؤرخـين اهتموا منذ مـدة طويلة بالسـلوك التفاعلي للجماهير والمؤسسـات والأفراد. وقـد منحتنا العلوم الاجتماعية التقليديـة أدوات قليلة نفهم بها هذه العلاقات وهي تسعى إلى اكتشاف المتغيرات المستقلة. لكن العلوم الطبيعية تخـرج لنـا أفكارًا ثاقبة يمكن أن ينتفع بها المؤرخـون والعلماء الاجتماعيون. وأخص منها بالذكر فكرتين ثاقبتين.

تتعلق إحداهما بنسـق بسـيط هو أصل التعقيد في مدى واسع من الظواهر، وهو دوام وجـود قانـون علاقات القـوة. الفكرة هنا أن معدل تكرار الأحداث يتناسـب عكسـيًا مع كثافتها. سـيبدو هذا مجردًا بعض الشيء، حتى تطبقه على الزلازل. ففي كاليفورنيـا تقع مئات الـزلازل يوميًا، لكن الأغلبية العظمى منها غير محسوسـة، إذ تقـع في فئـة ثلاث أو أدنى عـلى مقياس ريختر الشـهير، حيث تصعـد الأرقام درجة واحـدة فتصعد الكثافة عشرة أرقام. فالزلازل من درجة أربع أو خمس، التي تشـعر بها ولا تكاد تسـبب أي ضرر، هي لحسن الحظ الأقل حدوثًا، والأحسن حظًا لنا أن الزلازل المدمرة حقًا هي الأندر. وهذا النسـق منتظم بـما يكفي للتعبير عنه رياضيًا: فإذا تضاعفت الطاقة المطلقة في الزلازل مرتين ندر حدوثه أربعة أضعاف.[40]

اللافت هنا هو إمكانية انطباق علاقة قانون القوة ذاته -كأنه كسوريات- على مدى واسع جدًا من الظواهر بداية من فناء أنواع الكائنات الحية وحرائق الغابات، حتى انهيارات سوق الأسهم والخسائر البشرية في الحروب. فهناك كما يبدو بنية شائعة يقوم عليها تنوع كبير من الظواهر الفيزيائية والحيوية والإنسانية، ربما عدّها آدامز -لو عرفها- "تعميمه الأكبر" يربط هذه الظواهر شيء ما، ليس في أنها جزء في حالة توازن: الكلمة الجديدة لهذه الحالة هي حد الحرج، ومعناها أن أي نظام يحوي داخله اعتمادًا حساسًا على ظروف أولية وتشابه ذاتي عبر المقياس الذي يشملها. لذلك فهناك احتمال حدوث نقلة مفاجئة من طور إلى آخر، واحتمال حدوث هذا يتناسب طرديًا مع حجم الحدث عندما يقع.[41]

هل نستطيع تحري حد الحرج في التاريخ؟ بالطبع نستطيع بأثر رجعي، وهذا ما نفعله عندما نتتبع صعود إمبراطوريات وسقوطها، بدايات الحروب ونهاياتها، انتشار الأفكار والتكنولوجيات وتفشي الأوبئة والمجاعات، بل ربما ظهور "العظماء" من الرجال والنساء الذين تعتمد مؤهلات "عظمتهم" على قدرتهم على التأثير في الآخرين.[42] أما استشراف حد الحرج فأمر آخر يتوقف على فهمنا لكلمة "استشراف" في هذا السياق.

فإذا كانت تعني توقع علاقات بين الكثافة ومعدل التكرار -أي عمل قانون القوة- فربما استطعنا ذلك بطريقة فضفاضة جدًا: كلما زادت الكثافة قل معدل التكرار بعامل يمكن حسابه. ولكن إذا كان يعني توقع متى يصل موقفٌ محدد حالة الكثافة القصوى -مثل حرب كارثية، أو ثورة مفجعة- فالمؤكد أننا لن نستطيع: أي إن المتغيرات المتقاطعة لا يمكن إعادة تركيبها إلا بأثر رجعي. ولكن إن كنا نحاول أن نحدد من سينجو من هذه الاضطرابات، وربما ينتفع بها، فهناك على الأقل سبب للاعتقاد بإمكانية ذلك، بناء على فكرةٍ نافذة رئيسة تولدت من عمل علماء الطبيعة عن التنظيم الذاتي.

هذه الفكرة هي أن الناجين في أغلب الأحوال هم كائنات يفرض عليها التكيف كثيرًا -لكن ليس أكثر من اللازم إن البيئة المحكومة بيئة سيئة؛ لأنها تبث الرضا

في ساكنيها والتشبث بطرقها مما يجعلهم عاجزين عن التوافق عندما تنهار القيود الحاكمة، كما يحدث حتمًا. لكن البيئة غير القابلة للتنبؤ مطلقًا لا تسمح بحيز للتماسك والتعافي. وهكذا يوجد توازن بين عمليات التكامل والتحلل في العالم الطبيعي -أي حد الفوضى- وهنا في المعتاد، يظهر الابتكار، لا سيما عن طريق التنظيم الذاتي.[43]

ليس من المبالغة أن نتصور أن ينجح شيء مثل هذا في العالم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فقد خلص ماكنيل في قول لو سمعه هنري آدامز لأدهشه، إلى أن "أشكالًا جديدة مدهشة من السلوك الجمعي تنشأ مما تبدو مظاهر تلقائية بمستويات متزايدة من التعقيد، سواء على المستويات الفيزيائية أم الكيميائية أم البيولوجية أم الرمزية. وأرى أن هذا هو الموضوع الجامع الذي يسري في كل ما نعرف، أو نظن أننا نعرف، عن العالم من حولنا."[44]

7

يصف م. ميتشيل ولدروب في كتابه المفيد **التعقيد** لقاء بين علماء طبيعة واقتصاد جرى في معهد "سانتا في" منذ سنوات. وأعتقد أن ذلك اللقاء يصلح لأن يكون نقطة تحول رمزية في التاريخ الفكري لزماننا -كما كان لقاء آدامز مع بوانكيريه منذ قرن.

> مع تزاحم المبادئ والبراهين على شاشة آلة العرض الرئيسة، لم يبهر الفيزيائيين شيء كما أبهرهم، بل أبهتهم، تمكن [الاقتصاديين] الرياضي. يقول أحد شباب الفيزيائيين وهو يستحضر هزة رأسه غير مصدق: "كانوا بارعين جدًا. بدوا وكأنهم يذهلون أنفسهم برياضيات خيالية، كانوا كمن رأوا الأشجار ولم يروا الغابة. أنفقنا وقتًا طويلًا جدًا في محاولة استيعاب الرياضيات لدرجة أنني ظننت أنهم في الأغلب لم يكونوا ينظرون إلى غرض النماذج وعملها، وما إذا كانت

> الافتراضات القائمة عليها صالحة. ففي حالات كثيرة، كان المطلوب مجرد بعض التفكير المنطقي.[45]

لنتذكر أن هذا فيزيائي يتحدث عن اقتصاديين. توحي هذه الحكاية الطريفة بشيء مهم وهو أن العلوم الطبيعية تغيرت تغيرًا واسعًا أثناء القرن العشرين، بالرغم من أن العلماء الاجتماعيين حاولوا أن يؤسسوا قدرًا كبيرًا من عملهم على علوم القرن التاسع عشر والقرون السابقة.[46]

فإلى أين يأخذ هذا المؤرخين الذين لم يلتزموا قط بالنموذج العلمي الاجتماعي القياسي؟ أعتقد أن هذا يضعنا في موقع غريب يتمثل في الخروج من حد ثوري قاطع بموقف رجعي تمامًا. فإذا لم نفعل شيئًا مختلفًا -أو بالأحرى دون إدراك مبدئي لما حدث- سنجد أنفسنا، ولو بالتعبير المجازي، نمارس علوم الفوضى الجديدة والتعقيد أو حتى حد الحرج، فنحن نشبه السيد المهذب البورجوازي في مسرح موليير، الذي اندهش من اكتشافه أنه كان يتحدث نثرًا طيلة عمره.[47]

إن الصلة التي بحث عنها آدامز بين العلم والتاريخ تبدو الآن ممكنة، بشكل لا يؤذي عمل العلماء أو المؤرخين. وكما في أي نظام تكيفي معقد ينتفع الطرفان بالمثيرات التي يتيحها كل منهما للآخر، وليس فقط لأن المؤرخين يعرفون بالفعل الكثير عما يكتشفه العلماء حديثًا ويعدّونه أحد أعقد مناهج البحث وهو السردية. والمؤكد أن العلوم الاجتماعية -وهي آخر معاقل النظرة العلمية القديمة- سيُفرض عليها التكيف مع هذه البيئة الجديدة إذا أرادت أن تحافظ على اعتبارها ضمن العلوم.[48] فإن العديد منها صار حرفيًا على حافة الفوضى.

يشغل المؤرخون موقعًا يؤهلهم ليكونوا جسرًا بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. لكننا لا بد أن نستوعب هذا الموقع الاستراتيجي الذي نشغله في سلسلة الوجود البينية العظمى. يقول ماكنيل إن قليلًا جدًا من المؤرخين لاحظوا أن:

مهنتنا تبدو على وشك أن تحمل صفة الشيوع بحق -أي تشترك في الخصائص والنقائص مع كل فروع التعلم الأخرى، وحتى أكثرها حسيًا ونجاحًا رياضيًا. فما دام المؤرخون يركزون اهتمامهم على السلوك الإنساني -ويوسع المؤرخون البيئيون حاليًا نطاقهم ليتجاوز هذه الحدود- فإن لنا حق تناول أعقد الأبعاد وأدقها في الكون المعروف والقابل للمعرفة.[49]

لا يمكننا تحقيق هذا الوعي إلا بالنظر إلى الخارج وليس إلى الداخل، وليس هناك من داع لأن نعاني ونحن نفعل ذلك أي نوع من عقد الدونية المنهجية. ولا ينبغي أن تمثل "الغيرة من الفيزياء" مشكلة للمؤرخين؛ لأننا ولو مجازًا نمارس لونًا من الفيزياء طيلة الوقت.

الفصل السادس

السببية والعرضية والحقائق المناظرة

حاولت في الفصلين السابقين إثبات أن المتغيرات المستقلة في العلوم الاجتماعية لا يمكن أن تنجح؛ لأن الإجراءات التي تعتمد عليها قائمة على مفهوم للعلوم «الصلبة» عفا عليه الزمن. فقد اعتنق العلماء الاجتماعيون في القرن العشرين رؤية نيوتن لظواهر خطية ومن ثم قابلة للتنبؤ وقت أن كانت تهجرها العلوم الطبيعية. ومن هنا تأتي صورة التسلل المنهجي للسفن ليلًا.

على النقيض من ذلك ظل المؤرخون سعداء بالإقامة في جزيرتهم المنهجية، يؤدون مهامهم دونما تأثر بهذه التيارات، بل لا يكادون يدرون بها. أما القلة مثل مارك بلوخ وإ.هـ. كار ممن تكبدوا عناء النظر في الأفق الواسع فقد رأوا المفارقة: وهي أن السفينة المتجهة إلى المؤرخين كانت سفينة العلوم «الصلبة» وهي التي لا تتعامل مع الشأن الإنساني على الإطلاق، أما السفينة المغادرة وتكاد تخرج من نطاق الرؤية، فكانت تلك التي تدعي أنها، على الأقل، تسعى إلى بناء علم للمجتمع. لكن بلوخ مات -على يد الجستابو في فرنسا عام 1944 - قبل أن يفصّل هذه الفكرة.[1] وكان كار يتمنى أن يطورها في إصدار مراجع من كتاب ما التاريخ؟، لكنه لم يترك سوى ملاحظات متفرقة غير كاملة عن هذا المشروع عند وفاته في 1982.[2]

لم يحدث شيء ملموس يغير هذا الموقف. فالعلوم الاجتماعية والعلوم «الصلبة»، حتى اليوم، تنطلق من رؤى مختلفة لماهية العلم.[3] أما المؤرخون فلا يكادون يبدون اهتمامًا بمسألة هل ما يفعلونه علم، وإن كان علمًا فمن أي نوع؟[4] ومثل أقزام الهوبيت، ساكني جوف الأرض، عند ج. ر. ر. تولكن، فهم راضون بأن يظلوا حيث هم، ولا يهتمون بما يجري حولهم. أو هذا ما أحاول إثباته حتى الآن.

لكن الوقت قد حان لأن أحاول إجابة السؤال الذي للعلماء الاجتماعيين كامل الحق في أن يسألوه، ولا شك أنهم فاعلون: إن لم يكن في التاريخ سوى متغيرات تابعة، فكيف يثبت المؤرخون علاقات السببية بينها ويؤكدونها؟ وإذا كان كل شيء يعتمد على كل شيء آخر، كيف لنا أن نعرف سبب أي شيء؟ وربما رأى علماء الطبيعة أيضًا أن هذه مشكلة محيرة. وعلى الرغم من أن أغلب المؤرخين يعرفون الإجابة بالغريزة، فإننا نادرًا ما نقدمها. عندما يسألنا طلابنا عن السببية يكون ردنا في الغالب: «لا تسألوا، فلن نجيب. ركزوا في إنهاء أطروحتكم. وسنخبركم عندما تصيبونها.»

وصفت هذا الاتجاه في التصدير بأنه جمالية معاكسة لجمالية مركز بومبيدو: أي إن المؤرخين لا يحبون أن يكشفوا شبكة وصلاتهم الأساسية. وبسبب عدم الاهتمام بهذه الأمور، فإننا كثيرًا ما نربك طلابنا ونربك أنفسنا. ونتمتم بكلام غير واضح عندما يقول لنا العلماء الاجتماعيون إن ما نفعله ليس علمًا حقيقيًا. ونحن نتذمر من بعد الحداثيين الذين يدعون أن ما نكتبه ليس إلا قصصًا خياليًا، لكننا لا نرد عليهم ردًا مؤثرًا. وهكذا نترك أنفسنا معرضين للهجوم مثل أقزام الهوبيت ساكني جوف الأرض. يفوتنا ذلك الإشباع الخاص -الذي يكفي أساسًا لشعورنا بالزهو- الذي يأتي من اكتشافنا المتأخر أن مناهجنا كانت أكثر دقة مما نعي، أي كما قال وليم هـ. ماكنيل: إن «ممارستـ[نا] كانت خيرًا من نظريتـ[نا] المعرفية».[5]

1

يستحسن أن أبدأ مناقشتي للسببية والاستوثاق من حيث انتهى كار وبلوخ: من الجثث.[6] اشتهرت الجثة التي وصفها كار بين دارسي المنهج التاريخي: وهي جثة المأسوف عليه روبنسون الذي دهسته سيارة معطوبة المكابح وهو يعبر الطريق ليشتري سجائر، يقودها جونز المخمور عند منعطف غير ظاهر في ليلة مظلمة. استخدم كار هذه الحالة للتمييز بين ما سماه سببية «عقلانية» وسببية «عارضة»:

> من المعقول أن نفترض أن تقييد تعاطي الكحوليات لدى قائدي السيارات أو فرض قيود أشد على حالة المكابح، أو تحسين تصميم الطرق من شأنه أن يحقق هدف خفض عدد وفيات المرور. ولكن ليس من المعقول على الإطلاق أن نفترض أن عدد وفيات المرور يمكن أن ينخفض بمنع الناس من تدخين السجائر.

يواصل كار كلامه فيقول إن الأسباب العقلانية تؤدي إلى تعميمات مثمرة ودروس نتعلم منها. والأسباب العارضة «لا تعلم دروسًا ولا تؤدي إلى خلاصات.» ويؤكد أن المؤرخين ينبغي ألا يقصروا اهتمامهم على الفئة الأولى، أما الثانية «فلا معنى لها سواءً في الماضي أم الحاضر».[7]

وهكذا، استطاع كار أن يربك نفسه وقراءه. فإذا صرفنا النظر عن المعنيين اللذين يشير إليهما بكلمة حدث «عارض»: وهما في آن واحد مجموعة عامة من الأسباب ونتيجة محددة. وهناك مشكلة أكبر وهي هذا الإبهام في التمييز بين «العقلاني» و«العارض». فالمؤكد أن من العقل ادعاء أن إدمان روبنسون النيكوتين ساقه في تلك الليلة إلى عبور هذا الطريق تحديدًا أمام هذه السيارة المعيبة التي كان يقودها جونز قيادة سيئة تحديدًا بسبب إدمانه الكحوليات. وهنا تجتمع سلسلة من الأسباب

العقلانيـة في إنتـاج نتيجة عارضـة: وهكذا تنطمس الحدود بـين فئات كار، حتى في الحالة التي مثل بها هذا التمييز.

أمـا ادعـاء أن العوارض لا معنى لهـا في التاريخ، فادعاء أقـل إقناعًا، كما أقر كار نفسـه بعد ذلك عندما اضطر إلى أن يفسر لماذا لم تغير الأزمة القلبية التي قتلت لينين مسـار التاريخ السـوفيتي.[8] وكأن كار كان يحاول أن يقول إنك لن تستطيع أن تتنبأ بمثل هذه الحوادث العارضة، لكن هذا يثير سؤالًا آخر، وهو هل ينبغي للمؤرخين أن يحاولوا تقديم مثل هذه التنبؤات أصلًا؟ ويبدو أن كار كان من أنصار هذا الرأي، فقـد قـال إن الهدف النهائي مـن تحديد الأسـباب «العقلانية» هو تقديـم «تعميمات مثمـرة ودروس» سـتؤدي بدورها إلى «خلاصات». لكنه تجنب مسـألة من سـيعلم هذه الدروس. وكيف سـنعرف متى فهموها على الوجه الصحيح. وإن إغفال هذه المسألة أمر خطير، لا سيما عندما تستحضر المرات العديدة التي أخطأ فيها كار نفسه فهم هذه الدروس.[9]

لهذه الأسـباب جميعًا أفضل ربط مارك بلوخ للأسـباب بالجثث: فقد ضرب مثل رجلٍ يسـقط من جرف. يقول بلوخ إن أشـياء كثيرة لا بد قد حدثت فأخرجت هذه النتيجـة: لا بد أن الرجل انزلق، كان الطريق الذي مشـى فيه مبنيًا على حافة صخرة جبليـة عالية، قبلهـا أدت عمليات جيولوجيـة إلى رفع الجبل عن السـهل، ثم عمل قانـون الجاذبيـة، وربما أضاف بلوخ، كان لا بد أن يسـبق هذا كلـه الانفجار الكوني العظيم. مع ذلك، فإن كل من يسأل عن سبب الحادثة سيقال له: «زلة قدم». السبب في هذا كما يوضح بلوخ أن الحدث السابق على الحادثة مباشرة يختلف عن الأحداث الأخرى من أوجه عدة: «فقد ظهر آخِرًا، وكان ... الأكثر اسـتثناءً في الترتيب العام للأشـياء، [و] أخيرًا، بسبب هذه الخصوصية الاستثنائية، بدا أن تفادي هذه الحادثة هي الأسهل في عرف الاحتمالات».[10]

تسـبب موت بلوخ نفسـه في منعه من اسـتكمال مناقشـته لهذه الميتة الافتراضية، ونتيجـة لهذا، فإن رؤيته للسـببية ليسـت معروفـة كرؤية كار. لكنها عـلى الرغم من

شكلها المتشظي تتجاوز رؤية كار تعقيدًا واتساقًا ونفعًا. إن كانت قراءتي كار صحيحة، فإنه كان يشير إلى ثلاث مجموعات من التمييزات ينبغي مراعاتها عند ربط الأسباب بالنتائج: التمييز الأول بين الفوري والوسيط والبعيد، والثاني بين الاستثنائي والعام، والثالث بين الحقائق والحقائق المناظرة. واسمحوا لي أن أفصّل كل واحدة من الثلاث، سعيًا إلى تبيان ارتباطها، ولو مجازًا، بعلوم الفوضى والتعقيد «الجديدة».

2

أولًا، التمييز بين الفوري والوسيط والبعيد. برغم أن السرديات التاريخية تتحرك إلى الأمام، فإن المؤرخين في مرحلة إعدادها يتحركون إلى الخلف.[11] يبدؤون عادة بظاهرة محددة -كبيرة أو صغيرة- ثم يتقصون سوابقها. أو بالمصطلحات التي استخدمتها سابقًا، يبدأون بالبنى ثم يستنبطون العمليات التي أنتجتها. ومن باب العرفان الضمني بفضل مثال زلة قدم متسلق الجبل الذي ضربه بلوخ، فإنهم يعزون الأهمية الكبرى إلى أقرب هذه العمليات -لكنهم لا يكتفون بذلك.

من غير المعقول، مثلًا، أن نبدأ سردًا للهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربر بانطلاق الطائرات من حاملاتها، إذ لا بد من معرفة كيف وصلت الحاملات إلى مسافة قريبة من هاواي، وهذا يقتضي شرحًا لسبب اختيار الحكومة في طوكيو أن تخاطر بدخول حرب مع الولايات المتحدة. لكنك لن تستطيع هذا دون مناقشة حظر البترول الأمريكي على اليابان، الذي كان نفسه ردًا على استيلاء اليابان على الهند الصينية التابعة لفرنسا. وقد نتج هذا بالطبع عن الفرصة التي أتاحتها هزيمة فرنسا من ألمانيا النازية، بالإضافة إلى الإحباطات التي أصابت اليابان في محاولتها غزو الصين. ويقتضي سرد هذا كله قدرًا من الاهتمام بصعود السلطوية والعسكرية في ثلاثينيات القرن العشرين، التي كانت بدورها مرتبطة بالكساد العظيم وكذلك

بمظالم واضحة في تسوية ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهكذا دواليك. يمكن مواصلة هذه العملية حتى الوصول إلى لحظة ظهور أول جزيرة يابانية في ظلل من غمام البخار والدخان من قلب ما صار يعرف بالمحيط الهادي، منذ مئات الملايين من السنين. لكننا في المعتاد لا نرجع إلى الخلف كل هذه المسافة.

ليس هناك من قاعدة تفرض على المؤرخين أن يتوقفوا عند حد معين في تقصي أسباب أي حدث تاريخي. لكن هناك ما يمكن أن نسميه مبدأ **تقليص الارتباط**: وهو كلما بعد الزمن الذي يفصل سببًا عن نتيجة، قل ما نعزوه من ارتباط إلى هذا السبب. ولنلاحظ أنني لم أستخدم مصطلح «عدم ارتباط»، برغم أن كار استخدمه مرة عندما استبعد ما سماه أسباب «المصادفة».[12] فمن غير الممكن أن الحكومة اليابانية كانت ستقرر الهجوم على الولايات المتحدة لو لم تكن الجزر اليابانية قد خرجت من البحر، مثلما أنه من غير الممكن أن يسقط متسلق الجبل عند بلوخ لو لم يظهر الجبل أصلًا. لكن ارتباط هذه الأسباب بعيد بدرجة تمنعها أن تكشف لنا شيئًا مهمًا، وإن الرجوع إلى هذه الأسباب يشبه تفسير نجاح الطيارين المقاتلين اليابانيين على أساس تطور الرؤية بالعينين والأصابع المنفصلة لدى مخلوقات ما قبل الإنسان. فنحن نتوقع أن تكون الأسباب التي نقدمها مرتبطة ارتباطًا أكثر مباشرة بالنتائج، وغالبًا ما نتجاهلها إن لم تكن كذلك.[13]

فماذا عن الأسباب التي ليست فورية ولا بعيدة ولكنها وسيطة؟ وهنا أيضًا يعمل مبدأ تقليص الارتباط، لكن المنطقة «الوسيطة» ضخمة جدًا مما يقتضي إضافة معيار إضافي للتمييز بين مستويات الارتباط الدنيا من طرف والمستويات العليا من الطرف الآخر. ففي حالة ميناء بيرل هاربر، مثلًا، يمكننا أن نضع ظهور الشنتوية(*)، وصعود الطوكوغاوية(**) والاستعادة الميجية في الفئة الأولى، والكساد العظيم وصعود العسكرية وغزو الصين والهند الصينية في الفئة الثانية. لكن ماذا يحدث عندما نصدر مثل هذه الأحكام؟

(*) أي طريق الآلهة وهي عقيدة يابانية أصيلة، وهي أكبر ديانات اليابان مع البوذية.

(**) هي أول حكومة عسكرية يابانية استمرت بين 1603 و1867، كل رؤسائها من عشيرة التوكوغاوا.

3

أعتقد أن هذا هو موضع عمل تمييز بلوخ الثاني بين الأسباب الاستثنائية والعامة. كانت فكرة بلوخ أن متسلق الجبل لم يكن ليسقط عن الحافة لو لم يكن الطريق الذي اتخـذه قـد بُني، ولـو لم يكن الجبل قد برز، ولـولا أثر قانون الجاذبيـة، لكن ليس كل مـن يمـشي على حواف طرق جبلية يهوي منها. إن بنـاء الطريق ووجود الجبل وآثار الجاذبية كلها أسباب عامة للحادثة: أي كانت ضرورية لحدوث الموت، لكنها بذاتها لم تكن كافية لتفسيره. لذلك لا بد أن نعود إلى زلة القدم.

ليـس هذا التمييز بين السـببية الضرورية والكافية هو نفسـه الذي بين المتغيرات التابعة والمستقلة التي يحرص العلماء الاجتماعيون عليه.[14] ذلك أن السـبب الكافي ما زال يعتمد على الأسباب الضرورية، ولهذا فإن زلة قدم على طريق جبلي أخطر من زلة قدم وسـط مرج. فليس من المعقول مناقشـة أي من الزلتين دون تحديد مكانها، مثلما من غير المعقول أن نضع حامـلات الطائرات اليابانية بالقرب من هاواي دون تفسـير لكيفية وصولها إلى هناك. فللأسـباب دائماً سياقات، ولمعرفة الأسباب ينبغي فهم السياقات.

وأود أن أواصـل حتـى أعرّف كلمة "سـياق" بأنها اعتماد الأسـباب الكافية على الأسباب الضرورية، أو بلغة بلوخ الاستثنائية على العامة. فعلى الرغم من أن السياق لا يتسـبب مباشرة فيما حـدث، فإنه يمكن بالتأكيد أن يحـدد النتائج. في حالة زلات القدم التي ذكرتها، فإنها ترسم الخط الفاصل بين كاحل مكسور في أسوأ الحالات في المرج، وعنق مكسور (في أحسنها عند حافة الجبل).

أعتقد أن فهم بلوخ للأسـباب الاسـتثنائية يسـتشرف ما سـماه منظـرو الفوضى "الاعتماد الحساس على الظروف الأولية"، وربما كان كار يفكر في شيء مماثل عندما تحدث عن أسـباب "المصادفة" بشـكل مربك جدًا. لم يعش أي من هذين المؤرخين حتـى يسـمع عن "آثار الفراشـة" -الفراشـة الشـهيرة حاليًا التي تطـير فوق بيجين

فتسبب كوارث في مكان آخر[15]- ناهيك عما اكتشف حديثًا جدًا، وهو أثر ورقة تصويت الفراشة(*) في فلوريدا. لكن بلوخ وكار، مثل أغلب المؤرخين، كأنهما عرفا بالغريزة هذه الظواهر، وكانا يسعيان جاهدين إلى وصف طرق عملها.

مع ذلك، كيف نعرف لحظة اعتماد حساس -أو سببية استثنائية- عندما نصادف إحداها؟ ليس عند بلوخ أو كار إجابة عن هذا، لكن ربما نجدها في الفيزياء. فاكتشافها في مجال الفيزياء يتم بالبحث عن نقاط التحول المرحلي، وهي نقاط الحرج التي يصير الاستقرار فيها غير مستقر: عندما يبدأ الماء في الغليان أو التجمد، مثلًا، أو تبدأ أكوام الرمل في الانحدار، أو خطوط الصدع في التفتت.[16] يحدث مثل هذا في الأحياء التطورية عندما يبدأ المناخ في التحول الفجائي، أو عندما يتم إدخال حيوانات ضارية جديدة، أو عند تفشي الأوبئة: تتسبب حالات عدم الاستقرار في ظهور أنساق استقرار جديدة لا يمكن التنبؤ بها مسبقًا.[17] ففي برنامج حاسوب كالذي اكتشف إدوارد لورنز عن طريقه الاعتماد الحساس على الظروف الأولية، فإن نقطة التحول المرحلي هي اللحظة التي يبدأ البرنامج فيها العمل، عندما يمكن لبعض التغييرات الطفيفة في المدخلات أن تنتج مخرجات لا يمكن التنبؤ بها مطلقًا.[18]

هل في التاريخ تحولات مرحلية؟ يبدو أن المؤرخ كلايتون روبرتس يعتقد ذلك، ولو أنه لم يستخدم المصطلح. فهو يقول: إن "المؤرخين يوقفون بالغريزة التتبع التاريخي عن السبب المطلوب عند نقطة بروز الحالة التي يسعون إلى تفسيرها."[19] ربما تكون هذه طريقة مربكة للتعبير في سياق التاريخ عن مبدأ وضع له علماء الحفريات وصفًا أرشق وهو التوازن المتقطع. ومعنى ذلك أن التطور لا يتواصل بسرعة ثابتة، بل إن مراحل طويلة من الاستقرار "تقطعها" تغيرات فجائية تذهب بالاستقرار. وغالبًا ما تسمح هذه التغيرات بظهور أنواع جديدة يتتبعها

(*) ورقة تصويت في ولاية فلوريدا بالم بيتش تسبب تصميمها في خسارة آل غور أصواتًا كثيرة في انتخابات 2001. أما أثر الفراشة عموما فيشير إلى تنامي التأثير البسيط لعوامل هامشية في فترة معينة وتشكيلة آثاراً استثنائية وهائلة في فترات لاحقة، كتأثير رفة جناح الفراشة في تشكل الأعاصير.

علماء الحفريات حتى نقطة انقطاع، وليس إلى بدايات الحياة نفسها أو الانفجار الكوني العظيم.[20]

أعتقد أن روبرتس يرى شيئًا من هذا في طريقة عمل المؤرخين، فنحن نبدأ بحدث محدد، سواء كان الهجوم على ميناء بيرل هاربر، أم الحرب الأهلية الإنجليزية في المثال الذي يستخدمه روبرتس، فقد بدأ تتبعه التاريخي منها. وقد نولي أهمية أكبر للأسباب الفورية من البعيدة. لكن كلما توغلنا في الماضي وجدنا أسبابًا محتملة أكثر. وعليه، إذا لم نصل إلى إعادة كتابة تاريخ الاستعادة الميجية أو الإصلاح البروتستانتي -وإذا لم نعد إلى مرحلة الرؤية بالعينين والأصابع المنفصلة- فإننا نحتاج إلى اختبار ما لتمييز السببية الاستثنائية عن العامة. يرى روبرتس أننا نفعل ذلك بالبحث عن "نقطة لا عودة": أي النقطة التي يتوقف عندها توازن كان قائمًا نتيجة للشيء الذي نحاول أن نفسره.

يقول روبرتس إن "نقطة اللاعودة" بالنسبة للحرب الأهلية الإنجليزية كانت فرض كتاب صلوات جديد على الكنيسة الاسكتلندية في عام 1637.[21] ويرى أغلب المؤرخين أن حظر البترول الأمريكي في أغسطس عام 1941 هو النقطة المعادلة لها في الحرب في المحيط الهادي.[22] لكن لم يكن لكتاب الصلوات الجديد أن يفرض لو لم يقع الإصلاح البروتستانتي نفسه وكل ما ترتب عليه، ولم يكن العدوان الياباني ليقع لو لم يتم تحديث اليابان بسبب عودة الميجي. وهكذا ينطبق اعتماد الاستثنائي على العام في كل هذه الحالات، كما يحدث الاعتماد المتبادل بين المتغيرات. إن أول اختبار سببي نجريه -وهو مبدأ تقليص الارتباط- هو ما يسوغ لنا التركيز على أهمية بعض المتغيرات أكثر من غيرها.

وعلى ذلك، فإن ما نبحث عنه ونحن نتتبع العمليات التي أدت إلى بنى معينة هو النقطة التي اتخذت فيها هذه العمليات مسارًا مميزًا أو غير عادي أو غير منظور. فنحن نبحث عن تحولات مرحلية ناتجة عن انقطاعات في توازن قائم، عن حدث استثنائي يعكس ظروفًا عامة، لكن ذلك لم يكن ليتنبأ منها.[23] أو كما قال أرسطو

في كتاب الشعر عن تلك اللحظات "التي تحدث فيها أشياء خلافًا للتوقعات لكنها تسبب بعضها بعضًا."[24] مع ذلك، كيف نعرف التوقعات السابقة على الحدث؟

4

وهنا يبرز إجراء ثالث لإثبات السببية، وهو دور الحقائق المناظرة. يقول بلوخ إننا ينبغي أن نبحث عن "السابقة الأسهل تفاديًا". ونحن نفعل هذا، كما يُفصّل لنا، عن طريق إعمال تمرين "جريء للعقل" ينقل فيه المؤرخون أنفسهم "إلى الزمن السابق على الحدث نفسه، ليحسبوا احتمالاته، كما بدت ليلة وقوعه." فنحن ننقل الحاضر إلى الماضي حتى يصير بتعبير بلوخ "مستقبلًا للأزمان الغابرة."[25]

أعتقد أن بلوخ هنا لم يكن يقصد شيئًا أقل من المعادل التاريخي للتجريب المختبري في العلوم الطبيعية: فالمؤرخون يستخدمون خيالهم لتنفيذ إجراءات تشبه ما يفعله الكيميائيون والفيزيائيون بأنابيب الاختبار وأجهزة الطرد المركزي وغرف الغمام. فهم يعاودون الذهاب إلى الماضي فيغيرون الظروف في سعيهم إلى تحديد ما سيختلف من نتائج. وهم يفعلون ذلك باستخدام الحقائق المناظرة.

حاولت في فصل سابق أن أكون حريصًا على التمييز بين العلم المختبري وغير المختبري. وقلت إن المؤرخين لا يمكن أبدًا أن يعيدوا تشغيل شريط التاريخ فعليًا، مثلما يعجز الفلكيون والجيولوجيون وعلماء الحفريات والأحياء التطورية عن إعادة الزمن. لكنني أكدت كذلك أن هؤلاء المتخصصين في العلوم غير المختبرية يجرون التجارب دائمًا في عقولهم. خيالهم هو مختبرهم. وهكذا الحال مع المؤرخين، كما يقول بلوخ. وهنا يأتي دور الحقائق المناظرة: وأستعير هنا مصطلحًا من نيل فيرغسون، الحقائق المناظرة هي المعادل الافتراضي للتجريب المختبري.[26]

لم يكن إ. هـ. كار ليرحب بهذا، وأسبابه في ذلك كاشفة. فبينما يقر بعدم حتمية أي شيء، فإنه يتساءل كيف "يستطيع المرء أن يكتشف تتابعًا متسقًا بين السبب والأثر، كيف نجد أي معنى في التاريخ، عندما يكون تتابعنا معرضًا للانقطاع أو الانحراف في أي لحظة بتتابع آخر، غير ذي صلة من وجهة نظرنا؟" ويدعي أن تاريخ الحقائق المناظرة مجرد تفكير منبعه التمني، لا سيما من جانب من كانوا يتمنون لو اتخذت الأمور مسارًا مختلفًا -مثل معارضي الثورة البلشفية.[27]

لكن هذه حالة أخرى خلط فيها كار سببًا خاصًا بمشكلة عامة في السببية التاريخية. ذلك أنه لو كان "معنى" التاريخ يقتضي إثبات تتابعات متسقة بين السبب والأثر، من جانب، مع عدم وجود أي شيء حتمي من جانب آخر، لكان من الصعب علينا أن نرى كيف يتحقق الاتساق إلا بالتفكير في مسارات لم تسلك وإيجاد تفسير لذلك. فالتاريخ إما محدد سلفًا أو ليس كذلك، فإذا لم يكن محددًا سلفًا، فالمؤكد أن أجزاءً منه كان يمكن أن تحدث بشكل آخر.

لكن طريقة التفكير بأسلوب الحقائق المناظرة لها قواعد معينة. فأنت لا يمكنك أن تحاول تحديد مركّب حرج في مختبر كيمياء بأن تلقي كل ما لديك -مثل عين سمندل الماء أو أصبع ضفدع- لترى ما سيحدث. بل إنك تبدل متغيرًا واحدًا في كل مرة وتُبقي غيره ثابتًا. وهذا حال تاريخ الحقائق المناظرة.[28]

ولنعد إلى مثال ميناء بيرل هاربر، فمن المناسب جدًا أن نسأل ما كان ليحدث لو لم تفرض الولايات المتحدة حظرًا نفطيًا على اليابان بعد استيلائها على الهند الصينية من فرنسا. ولكن ليس من المناسب أن نسأل عما كان سيحدث إذا كانت إدارة فرانكلين روزفلت قد أضافت إلى ذلك القرار عرضًا لنقل "القوات الحرة الفرنسية" إلى ذلك الجزء من العالم، مع بنية ضخمة للقوات الأمريكية في الفيليبين وسعي لحسم حرب الاتحاد السوفيتي على ألمانيا النازية، مما يسمح لستالين أن ينقل قواته شرقًا فيرهب اليابانيين. هذه كلها مبادرات كانت حكومة الولايات المتحدة

تستطيع أن تقدمها وقتها، ولكن تأمُّل أثرها الإجمالي يشبه عمل حساء ساحرات تأريخي يدخل فيه كل شيء ولا يخرج منه ناتج محدد أرجح من غيره.

وليس من المناسب كذلك أن نبدل متغيرًا واحدًا لو كان الحدث المقصود غير محتمل الحدوث وقتها. فمن غير المجدي أن نتفكر، مثلًا، فيما كانت ستحدثه القنبلة الذرية أو القمر الاصطناعي الاستطلاعي في عام 1941؛ لأن هذه المخترعات لم تكن قد ظهرت.[29] ومن غير المجدي أيضًا أن نتساءل عما كان سيحدث لو تحول اليابانيون جميعًا إلى المذهب البروتستانتي الأسقفي، أو أن كبار مسؤولي إدارة روزفلت افتتنوا فجأة بفن الكاريوكي. مثل هذه التأملات تؤدي إلى قصص خيال علمي رديئة أو نادرًا ما تكون جيدة.[30] لكن ما تؤدي إليه ليس بتاريخ لأنه أخفق في اختبار قابلية التصديق، فليست هذه بخيارات يمكن أن يقبلها صناع القرار في ذلك الوقت.[31]

يشير هذا إلى أن استخدام الحقائق المناظرة في التاريخ لا بد أن يكون منضبطًا انضباطًا صارمًا. فمن غير المقبول أن تلقي حقائق مناظرة متعددة في المرجل؛ لأن هذا يجعل من المستحيل تحديد أثر أي واحدة منها. ولا يمكن أن تجرب متغيرات مفردة لم تكن في متناول تكنولوجيا ذلك الزمن أو ثقافته. ومع هذه القيود، يمكن أن يساعد فكر الحقائق المناظرة في إثبات سلاسل سببية: فالقول إن اليابانيين ما كانوا ليهاجموا ميناء بيرل هاربر لو لم يفرض حظر البترول الأمريكي، أو الادعاء بأن الأمريكيين ما كانوا ليقرروا أن يوقفوا تدفق النفط لو لم يدخل اليابانيون الهند الصينية التابعة لفرنسا -فهذه كلها مواقف مشروعة يمكن أن يتخذها المؤرخون.

يستخدم المؤرخون فكر الحقائق المناظرة طيلة الوقت لإثبات السببية، كما يميزون بين الأسباب الفورية والوسيطة والبعيدة. لكن يظل السؤال: كيف يعرف المؤرخون أنهم أثبتوا أسباب حدثٍ ماضٍ، على نحو قاطع نهائي.

5

الإجابة، طبعًا، أنهم لا يعرفون.[32] فليست كل المصادر تبقى ولا يسجل كل شيء في المصادر أصلًا، ولأن ذكريات المشاركين قد لا تكون محل ثقة، ولو كانت محل ثقة فليس هناك مشارك شهد الحدث من كل الزوايا الممكنة، لذلك كله لا يمكن أبدًا أن نتوقع الحصول على قصة ما حدث كاملة. ربما أصابت الملابس الداخلية نابليون بالحكة في يوم ووترلو؛ مما شتت انتباه الرجل العظيم عن الإدارة السليمة للمعركة. ليس من الممكن أن نعرف هذا؛ لأن هذا ليس الشيء الذي يمكن أن يدون في السجلات. ربما وجد نابليون أن ذكر هذا الأمر محرج حتى لمساعده الشخصي.

ولكن لنقل من باب تتبع الحقائق المناظرة، أنه فعل وأن مساعده الشخصي دوّن ذلك، فالاحتمال قائم دائمًا لظهور أدلة جديدة من الماضي تجعلنا نعيد تقييم أصول أكثر الأحداث التاريخية ألفةً وقبولًا. بل هناك احتمال أن تحدث الرؤى الجديدة في الحاضر تغييرات فيما كنا نظن أننا نعرفه -مثل إمكانية إخضاع بعض بقايا تلك الملابس المؤذية للتحليل الميكروسكوبي لكشف بقايا البراغيث المؤذية.[33] وحتى في غياب إجابات جديدة من الماضي، فإن تحول رؤى الحاضر يمكن أن يجعلنا نطرح أسئلة جديدة عنه تغير صورته، كما يذكر ليو تولستوي شاكيًا قبل نهاية رواية الحرب والسلام: "كل عام، مع كل كاتب جديد، يتغير الرأي بشأن ما فيه خير الإنسانية؛ فما كان يبدو خيرًا من قبل، يبدو شرًا بعد عشر سنين، والعكس صحيح ... بل إننا نجد في التاريخ، في آن واحد، آراءً متناقضةً عما هو خير وما هو شر."[34]

لكن هذا لا يعني بحال أننا نفتقر إلى أساس لتحديد الأسباب في التاريخ: بل يعني أن أساسنا مشروط. يقول ر. ج. كولينغ إن:

> كل جيل لا بد أن يعيد كتابة التاريخ بطريقته، كل مؤرخ جديد، لا يقنع بتقديم إجابات جديدة عن أسئلة قديمة، لا بد أن يراجع الأسئلة نفسها -وبما أن الفكر

التاريخي نهر لا يمكن لأحد أن ينزله مرتين- فحتى المؤرخ نفسه الذي يعمل في موضوع واحد لمدة زمنية معينة، يجد أن السؤال القديم الذي يحاول مراجعته قد تغير.[35]

ليس في هذه المشروطية شيء فريد؛ لأنها تظهر في أصلب العلوم "الصلبة". يقول جون زيمان إن العلم الحديث تطوري: أي إنه "وريث سلسال متصل من الأشكال العضوية الساعية إلى اكتساب المعرفة، ويرجع هذا إلى بدايات الحياة على الأرض ... وهو يدرك ... أن الكيان برمته خاضع للتغير مع الوقت."[36] أو كما يصيغها جويس أبلبي ولين هنت ومارجريت جاكوب: "يمكن صياغة العلم تاريخيًا واجتماعيًا ويظل صحيحًا."[37] يبذل المؤرخون أقصى جهدهم لكن نتائجنا تخضع للمراجعة، كما في أي مجال من مجالات البحث الإنساني.

وفي إطار هذا الوصف نقيم نتائجنا بأن نسأل إلى أي حد تقترب تمثيلاتنا من الوقائع التي نسعى إلى تفسيرها. ناقشت مفهوم "التوافق" هذا في فصل سابق، واستعنت بقياسات على علم الخرائط وعلم الحفريات -وعلى مستوى أقرب إلى الحياة العادية- على الخياطة. قلت إنه ليس هناك في أي من هذه المجالات ما نرجوه من تمثيل كامل للواقع؛ لأن التماثل التفصيلي بين الشيئين يمكن أن يُنتج، بترتيب هذه المجالات، الخريطة المطابقة التي لم يجد لها خورخي لويس بورخس نفعًا، وديناصورا شرها لا يمكن أن يحبه إلا ستيفن سبيلبيرغ، وفي حالة الخياط جسمًا عاريًا.[38] كما أن أغراض التمثيل تتنوع: فخريطة العالم لن تساعدك على معرفة طريقك داخل المدينة، كما أن نموذج الديناصور الذي تصنعه لمتحف جامعي لا يصلح لفصل بروضة أطفال. وسأترك استعارات الخياطة الأخرى لخيالك: لكن فكرتي ببساطة أن هناك حدودًا بين التمثيل والواقع، ومن الأصلح احترامها.

السردية هي شكل التمثيل الذي يستخدمه أغلب المؤرخين.[39] قلت سابقًا إن عمل السردية هو "محاكاة" ما عرف أنه حدث في الماضي. فهي إعادة بناء العمليات التي أنتجت البناء الذي نسعى إلى تفسيره، وتتم عملية التجميع داخل المختبرات

الافتراضية في عقولنا. وهي تختلف في أهدافها، وليس في طرقها. ففيها جميعًا نسأل أنفسنا: "كيف أمكن حدوث هذا؟" ثم نشرع في محاولة إجابة السؤال بحيث نحقق أقرب توافق ممكن بين التمثيل والواقع.[40] لكن تحقيق ذلك يستلزم إجراءات إضافية عديدة:

أولًا، تفضيل الاجتزاء في النتائج، وليس الأسباب. وأقصد بهذا أن الأسباب التي نحددها لا بد أن تتلاقى لتثمر نتيجة محددة. ونعود إلى مثال ميناء بيرل هاربر، فمن المنطقي في سياقه أن نثبت كيف اتحدت عسكرة اليابان والاعتماد على النفط والقوة التكنولوجية مع موقع الولايات المتحدة المكشوف في المحيط الهادي، وعقوباتها الاقتصادية المتزايدة في قسوتها بالإضافة إلى فشل الدبلوماسية، في التسبب في الهجوم. ومن غير المنطقي على الإطلاق أن نخلص إلى أن الهجوم نفسه هو الذي حدد مسار الحرب ومآلها وطبيعة العلاقة بين اليابان والولايات المتحدة بعد الحرب. إن الحرص على اجتزاء النتائج يختلف لدى المؤرخين عن العلماء الاجتماعيين الذين يولونها قيمة عند تحديد الأسباب. يعد العلماء الاجتماعيون الحدث "المفرط في تحديده" -أي الذي له أسباب متعددة- حدثًا لم يفسر تفسيرًا ملائمًا.[41] لكنهم يفعلون ذلك لأن هدفهم ليس تفسير الماضي فقط بل استشراف المستقبل. لهذا فإن الإفراط في تبسيط الأسباب ضرورة لهم، وليس ضروريًا للمؤرخين؛ لأنهم يعدون السببية المتعددة الأساس المقبول الوحيد للتفسير، وهو نفسه -في أغلب الوقت- الشيء الوحيد الذي يرونه يستحق المحاولة.

ثانيًا، إخضاع التعميم للسرد. ليست المحاكاة نظامًا، بل هي تمثيل لما حدث لكنه يقول القليل عما سيحدث. لهذا يستطيع المؤرخون أن يوفقوا كل تفصيلة مع أخرى، حتى يصلوا إلى مستوى براغيث نابليون. وليس معنى هذا أن المؤرخين لا يعممون، فإننا نفعل ذلك طيلة الوقت، لكننا نفعله عن طريق دمج تعميماتنا في رواياتنا وليس العكس. فهناك عدد لا نهائي من الحلقات في أي سلسلة سببية: من أين أتت كل "برغوث"، مثلًا، وكيف ألصق نفسه بملابس الإمبراطور الداخلية ثم الإمبراطور نفسه؟ كيف تعلم كل طيار ياباني الطيران؟ كيف يعمل كل محرك في كل

طائرة من طائراتهم؟ ما نوع الملابس الداخلية التي كانوا يرتدونها في يومهم المنتظر؟ هناك أشياء لا يمكن أن نعرفها، وأشياء لا نحتاج إلى معرفتها، ولحسن الحظ فإن هذه الفئات تتداخل بدرجة كبيرة. ونحن نستخدم التعميمات محدودة النطاق لسد الفجوات في الأدلة ولدفع السردية إلى الأمام: فهي التي تتيح تمثيل الواقع. ونحن نقاوم التعميمات واسعة النطاق؛ لأنها تختزل الأسباب فتقوض السردية وبذلك تفصل التمثيل عن الواقع. وأستحضر المصطلحات التي استخدمتها في فصل سابق فأقول إننا نمارس التعميم الخاص، وليس التخصيص العام.

ثالثًا، التمييز بين المنطق مطلق الزمن ومحدود الزمن. بعض الخلاصات التاريخية لا تحتاج بحثًا، بل مجرد فهم عام. ليس ضروريًا أن تكون مؤرخًا متخصصًا حتى تفهم أن الأسباب لا بد أن تسبق النتائج، أو أن الصلات ليست بالضرورة أسبابًا. فهذه أفكار مشهودة الصدق من كل الناس، ولو في عالمنا هذا فقط.[42] أما ما يحتاج بحثًا فهو الفهم العام الذي لم يعد عامًا بيننا بسبب بعد المسافات زمنًا أو مكانًا أو ثقافة. وكما يؤكد مارك بلوخ يزخر التاريخ بأمثلة "حالات عقلية كانت شائعة من ذي قبل، وهي تبدو لنا الآن غريبة؛ لأننا لم نعد نتشارك فيها." "من الخطر دائمًا أن نرتفع إلى مستوى الملاحظات الأزلية بالاعتماد الحتمي على لحظة وجودنا القصيرة في الزمن."[43] إن تمييز الاختلاف بين سؤالي: كيف تحدث الأشياء وكيف حدثت الأشياء يقتضي أكثر من مجرد تغيير زمن الفعل. فهو جزء مهم مما يقتضي فعله لتحقيق هذا التوافق الشديد بين التمثيل والواقع.

رابعًا، الجمع بين الاستقراء والاستنباط. لأننا مؤرخون ولسنا روائيين، فإننا مضطرون إلى ربط سردياتنا بالدليل الباقي بأوثق ما يمكن، وهذه عملية استقرائية. ولكننا لن نعرف الأدلة المرتبطة ببحثنا حتى نبدأ في البحث عن الأدلة التي تخدم السردية التي نستهدفها، وهذا حساب استنباطي. وهكذا فإن بناء السردية سينتج مواضع تحتاج إلى المزيد من البحث، مما يعيدنا إلى الاستقراء. لكن الأدلة الجديدة يجب أن تتوافق مع السردية المعدلة، فإذا بنا نعود إلى الاستنباط. وهكذا دواليك، حتى "أشعر بأنني أدركت الصواب، فأكتبها وأرسلها إلى الناشر"،[44] كما يقول

وليم هـ. ماكنيل في قول استشهدت به سابقًا. لهذا فإن التمييز بين الاستقراء والاستنباط لا يكاد يكون له معنى بالنسبة إلى المؤرخ الذي يسعى إلى إثبات السببية. يحوي لفظ "التوفيق" الطريقتين، لهذا فهو اللفظ الأنسب. فليس الخياطون وحدهم من يهتمون بالنظر إلى ما ينبغي كسوته، ثم بما يكسونه به، ثم يكررون ذلك المرة تلو المرة، حتى ينضبط الملبس فيوافق الجسم على خير ما يرجى.

وأخيرًا، قابلية التكرار. لا بد للتمثيل -أو السردية، أو المحاكاة- أن تحصل على إجماع من يستخدمونها على أنها أقرب ما تكون إلى الواقع شبهًا. ولا ينسحب هذا على كل التفاصيل: فعندما يحتمل الدليل معانيَ مختلفة، توجد مساحة دائمًا للاختلاف بين المؤرخين، كما هو الحال بين علماء الحفريات الذين لا يمكنهم الاتفاق على اللون المناسب لجلد نماذج ديناصوراتهم أو تصور شكل الريش. أما عندما تكون الأدلة غير مبهمة ولكن لا يمكن تكرار النتائج -عندما تكون المصادر غير متماسكة أو يكون المنطق مغلوطًا- فإن الإجماع لا يتحقق.[45] لا يوجد معيار مطلق للوصول إلى إجماع في التاريخ أو العلم أو حتى القانون. ولكن هناك معايير تقترب من مستوى المطلق. وهي تستمد من السوابق التي ترسخت بعد مساعٍ متكررة لتطبيق التمثيلات على الوقائع، ومن خلال الاتفاقات التي تولدها حولَ موضع وجود توافق كبير من عدمه.[46]

6

أود أن أختتم بنقطة أخرى عن السببية والعرضية وصعوبات التعامل معهما، وهي دعوة للتسامح المنهجي. ذات يوم رفضت مجلة دولية كبرى في العلاقات الدولية مقالًا كتبته على أساس أنني انزلقت إلى تعددية النموذج التفسيري. قال تقرير المُحكّم: "ليس مقبولًا. فلا يمكن أن يسمح إلا بنموذج واحد في كل مرة."

بعـد التفكير في هذا المـدة طويلة، خلصت، ولا عجب في ذلـك، إلى أن هذه رؤية قصـيرة النظـر. وأرجـع في ذلـك إلى وليـم ويويـل الذي قـال منذ قـرن ونصف إن "الموقـف الـذي تلتقي فيه القواعد من أركان بعيدة وغير متصلة [لكنها تقع] على النقطـة ذاتها" موقـف يتأتى فقط "من كون هذه النقطة محـل الحقيقة."[47] ربما ليس من الصواب اسـتخدام كلمـة فقط وكلمة الحقيقة: فالأمور كانت في القرن التاسـع عشر أكثر يقينًا مما هي عليه الآن. لكن إذا فهمنا أن ويويل يقصد أن عددًا من النماذج التفسيرية يمكن أن تتلاقى لتحقق توافقًا أكبر بين التمثيل والواقع -إذا قبلنا عبارته "تقع على النقطة ذاتها" بوصفها مماثلة لعبارتي "تحقيق التوافق"- فإنني أعتقد أننا سـنرى الصلة. من اللافت بالنسبة إليّ أن علماء مثل ستيفن جاي غولد وإدوارد أو. ويلسون أعادوا اكتشاف ويويل.[48] وأتساءل لماذا لا يفعل المؤرخون ذلك.

لهذا في تقديري أن هذه منطقة أخرى يقترب فيها التاريخ أكثر إلى العلوم الطبيعية منـه إلى العلـوم الاجتماعية. فالمؤرخون منفتحـون -أو ينبغي أن يكونوا- على طرق متنوعـة في تنظيم المعرفة: فـإن اعتمادنا على التعميم محدود النطـاق أكثر من التعميم واسع النطاق يفتح لنا ميداناً واسعًا من المداخل المنهجية. ففي سردية واحدة بوسعنا أن نتبـع رانك أو ماركـس أو فرويد أو فيبر أو أن نكون بعد حداثيين، ما دامت هذه الأنـماط مـن التمثيـل تقربنا مـن الوقائع التـي نحاول تفسـيرها. ولنـا الحرية في أن نصف ونسـتحث ونسـتخدم الوصف الكمي والنوعي بل التشبيء، إذا كانت هذه الأسـاليب تسـاعد في تحسين مستوى "التوافق" الذي نسـعى إلى تحقيقه. باختصار، نستخدم كل ما يصلح.

صحيـح أن هـذا شيء براجمـاتي وغـير متسـق وكثيرًا ما يكـون مرتبـكًا. لكنه في اعتقادي علم جيد؛ لأن ما نستطيع أن نتعلمه ينبغي دائمًا أن يتقدم في قائمة أولوياتنا على نقاء المناهج التي نتعلم بها.

الفصل السابع

جزيئات لها عقول مستقلة

قلت إن بعض مناهج العلوم الطبيعية، كما تمارس حاليًا، أقرب إلى مناهج المؤرخين منهـا إلى مناهـج أغلب العلماء الاجتماعيين، وعلى هـذا اعتراض واضح. وهو أن ما تسـمى بالعلوم «الصلبـة» لا تتعامل مـع الكيانات التي تفكر في ذواتها وتسـتخرج تغذية راجعة وتتبادل المعلومات، وأقصد بها البشر.

لا تتعلـق القضيـة هنـا بالوعي، فهو موجود لـدى الغوريللات والـزراف وربما حيـوان العضـل(*)، ولو أنه ليس لدى نبات الخرنوقـي، فيما نعرف. لكن ما لا يظهر في أي مـن هـذه الأنـواع -مع مراعاة بعـض التأكيدات غـير المثبتة عن الشـمبانزي الذي يحسـب أو الببغاء الرمـادي الذي يتأمل- هو الوعي بالـذات. أي قدرة الفرد عـلى التفكـير في موقفه بوصفه فردًا، بهدف تحديد اسـتجابة مميزة جرى توصيلها إلى الآخرين.[1]

يعكس سـلوك الحيوان الظروف التي يجد نفسه فيها، لكن هذا التفكير المنعكس لا يختلف غالبًا من فرد إلى آخر. فهو جمعي ومن ثم قابل للتنبؤ إلى حد بعيد. فأسراب السـمك والطيـور وقطعان الغزلان تسـتجيب للضواري على نحـو مماثل وفي وقت

(*) من الفئران.

واحد تقريبًا.[2] فهي لا تقف (أو تطير أو تسبح) معًا للتداول في الأمر. أما السلوك الإنساني فأعقد من ذلك كثيرًا؛ لأن القدرة على التفكير في الذات تفتح إمكانية الاستجابة لظروف مشابهة بطرق مختلفة تمامًا. فليس هناك من احتمال إجماع فوري. لذلك فإن استشراف النتائج صعب في أحسن الأحوال ومستحيل في أغلبها.

ظهرت العلوم الاجتماعية بطبيعة الحال للتعامل مع هذه التعقيدات. وقد فعلت هذا كثيرًا بمحاولة فرض قابلية التنبؤ التي تأتي من دراسة أسراب السمك والطيور وقطعان الغزلان على البشر.[3] ومن الآليات المفضلة حاليًا نظرية الاختيار العقلاني: وهي طريقة غريبة تعمم بشأن السلوك الجمعي الإنساني بافتراض كل من العقلانية واستقلالية "تعظيم النفع" لدى صناع القرار. لكن احتمال اختلاف "المنافع" بين الأفراد والمجتمعات والمؤسسات والأمم والثقافات، أو عدم تطابق طرق "التعظيم" أو ظهور تغذية راجعة تجعل كل معظم للنفع يؤثر في معظم النفع الذي يليه -لا يبدو أن هذه التعقيدات تهم منظري الاختيار العقلاني. ولا يوجد اتفاق بينهم على معنى "العقلانية" تحديدًا.[4]

فهل نظرية الاختيار العقلاني بحث جديد عن المتغير المستقل؟ يشير إلى هذا كون جذور هذه النظرية في علم الاقتصاد -وهو أكثر العلوم الاجتماعية اختزالًا على خلاف في الآراء- فمثلما يفعل علم الاقتصاد، تفرض هذه النظرية البساطة على التعقيد بغرض استشراف المستقبل. فهي تبحث عن توازنات، وكما يقول عالما السياسة بجامعة ييل دونالد غرين وإيان شابيرو: "لا يمكن الوصول إلى مقولات تشبه القوانين -يمكن أن تُستخلص منها فروض تنبؤية- قبل اكتشاف هذه التوازنات."[5] وهي بذلك تتبع الافتراضات النيوتنية في تصورها للمنهج العلمي، أي إنها لم تتأثر بمنجزات القرن العشرين في العلوم الطبيعية إلا قليلًا، ولا بالتاريخ، ولا عجب.

يعجز منظّرو الاختيار العقلاني تحديدًا عن أن يضعوا في اعتبارهم احتمال أن تتسبب أفعال فرد واحد، في ظروف معينة، في أن "تحدث تحولًا في معايير العقلانية،

ومن ثم ما يعد سلوكًا سلبيًا." لدى الملايين غيره. فهم يعجزون عن تفسير ما فعله، مثلًا، بوذا والمسيح ومحمد، أو الإسكندر ونابليون وهتلر، أو لنكولن وتشرشل ومارجريت ثاتشر. إن هذا العجز عن التعامل مع الأفراد المتميزين -ممن تسميهم الأجيال السابقة، ومنهم مارجريت ثاتشر "العظماء"- الذين غالبًا ما يدفعون المؤرخين إلى نبذ أمثال نظرية الاختيار العقلاني، بل نبذ العلوم الاجتماعية عمومًا لعدم جدواها، وأحيانًا مفهوم العلم نفسه.[6]

قد يكون الاستنتاج الأخير متسرعًا حتى داخل عالم شديد الخصوصية، مثل عالم كتابة السّير. لا شك أن هناك خطًا واضحًا يفصل موضوعات البحث في العلوم الطبيعية عن العلوم الاجتماعية والتاريخ؛ لأن الثانية تتعامل مع البشر ولا تتعامل معهم الأولى. لكن هذا الوضوح يقل عندما يتعلق الأمر بطرق البحث. في هذه المساحة تعطينا علوم الفوضى والتعقيد "الجديدة"، بما تستخدمه من صور حية ومفردات سهلة -أسهل مما نجده في أغلب العلوم الاجتماعية- تعطينا مجازيًا على الأقل طرقًا جديدة لتفسير خصوصيات السلوك الإنساني، أي لجزيئات لها عقول مستقلة. وعلى المؤرخين استكشاف ولو الحد الأدنى من هذه الإمكانية، وهذا ما سأحاول فعله هنا.

1

من أغرب ما ظهر من أفلام في السنوات الأخيرة فيلم للمخرج سبايك جونز بعنوان (Being John Malkovich) "الرؤية بعيون جون مالكوفيتش". بطل أحداث الفيلم وكيل أعمال يستطيع أن يجد وسيلة للاطلاع على عقل الممثل، ثم يبيع هذه الوسيلة إلى زبائن فيستطيعون أن يروا كل ما يفعله مالكوفيتش ويشعروا به. أوَّل النقاد الفيلم بأنه معارضة ساخرة لما بعد الحداثة، لكنني أراه تعليقًا على السّير -ربما

لأنني أجهز لكتابة سيرة- يجمع على نحو غريب بين تعظيم الذات ونفي الذات، وهو ما ينطوي عليه هذا الشكل من الكتابة التاريخية.

لا بد لكاتب السير أن يرى الأمور من خلال منظور شخص آخر -أي يتقمص عقل شخص آخر. وعليه أن يقيد تميزه الشخصي ليفعل ذلك، وإلا ستعكس السيرة التي يكتبها ما في رأسه وليس ما في رأس موضوع كتابته. ولكن عليه في وقت ما أن يعزل نفسه ويسترد هويته، وإلا ستفتقر السيرة إلى العمق التحليلي أو المنظور المقارن. كان هذا يعني بالنسبة إلى شخصيات الفيلم الدخول إلى ممر دودي يلقي بهم في طريق نيوجيرسي تيرنبايك عندما ينتهي وقتهم داخل عقل مالكوفيتش. أما بالنسبة إلى كاتب السير فهي تعني مقاومة إغراء موضوع السيرة حتى تصل إلى خلاصاتك الشخصية. وفي الحالتين يتوقع أن يكون الهبوط صعبًا.

المشكلة أن عقل أي شخص آخر في العالم الحقيقي، مقابل السينمائي، لا سبيل إليه كالمشهد الماضي، ولو كان ذلك الشخص حيًا وسهل الوصول إليه بالمعنى المادي من كل جانب.[7] يؤكد فرويد أن بعض أجزاء عقولنا لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال عمليات حفر باستخدام التحليل النفسي. فكيف يزعم كتاب السير أنهم يعرفون ما جرى في عقول أفراد بعيدين ماتوا منذ أمد بعيد؟ أو كما يمكن أن يقول سبايك جونز، كيف يصبحون يوليوس قيصر أو فلاديمير إلييتش لينين، أو حتى جون لينون؟

يتعلق جزء من الإجابة طبعًا بما يجعل كتابة أي لون من التاريخ ممكنة: خلفت عمليات الماضي بنىً باقية -وثائق وصورًا وذكريات- تسمح لنا بإعادة بناء ما حدث في عقولنا ثم كتابته على حواسبنا. ويوفق كُتّاب السير بين التمثيلات والوقائع، كغيرهم من المؤرخين، ولكن بطريقة خاصة. فلا يكفي سرد ما حدث بالترتيب، بل لا بد لكتاب السير من العمل على تحديد سبب ما فعلته الشخصية، ويستلزم هذا استرجاع مجموعة من العمليات العقلية ربما لا يكون الشخص موضوع السيرة نفسه واعيًا تمامًا بها. هذه الحاجة إلى وصل الفجوة بين الأفعال والوعي وما دون

الوعي هو ما يجعل السيرة مشروعًا مرهقًا. ولهذا فمن شأنها أن تكسب كتاب السير صفة التواضع.

يشبه بعض عمل كتاب السير ما يفعله علماء الحفريات، فنحن نكسو حفرياتنا قدر ما نستطيع لحمًا. لكن الاختلافات تفوق التشابهات؛ فديناصور الميجالوسوروس الذي ترى نموذجه في متحف، مثلًا، تمثيل ثابت. أما كتاب السير فلا يقتنعون بذلك؛ لأن السيرة لا تكتفي بكساء العظم لحمًا بل تنفث فيها الحياة. فهي مثل التصوير الفوتوغرافي. مصادرنا لقطات، لكن الترتيب الذي نضعها فيه والأهمية التي نحددها للفواصل بينها على أهمية أي من اللقطات. فنحن نعيد تشغيل حيوات كاملة، وليس مجرد لحظات مفردة فيها.

وثمة اختلاف آخر بين كتاب السير وعلماء الحفريات هو أن كتاب السير يوثّقون الخصوصية. فأي حيوان يعاد بناؤه يقصد به تمثيل فصيلة كاملة. أما الحياة التي يعاد بناؤها فيقصد بها غالبًا تمثيل تلك الحياة المفردة وليس غيرها.[8] ونحن نادرًا ما نقول كما يقول علماء الحفريات إننا نعرض نموذجًا واحدًا لتصوير فصيلة كاملة. وخلافًا لما يحدث ليس في علم الحفريات فقط بل في أيٍّ من العلوم "الصلبة"، فإن موضوع كاتب السير الأساسي -أي ما يريد بيانه- يتصفُ بالفردية حتمًا.

لا شك أننا نستطيع، بل ينبغي لنا، أن نستعين بما تعلّمنا العلوم الاجتماعية -لا سيما علم النفس وعلم الاجتماع- عن السلوك الإنساني عمومًا، كما أن عالم الحفريات يعتمد اعتمادًا كبيرًا على المعروف عن البيئة في عصر ماضٍ بعيد. لكن العمومية مجرد نقطة البداية في كتاب السير؛ لأن هذا اللون بطبيعته يقاوم فكرة التعميم بشدة بل يهدمها. أما فرض إطار محدد سلفًا على أفراد مميزين -كما اتهم إريك إريكسون بارتكابه في حالتي لوثر وغاندي- فهو يكشف عن عزم على حشر الناس في صناديق زجاجية واستخدام الفرد لتمثيل فصيلة.[9]

يترتب على هذا أن السيرة، مثل مجال التاريخ الكبير الذي ينتمي إليه، عمل استنباطي واستقرائي في آن واحد. فأنساق السلوك الإنساني التي تتجاوز الزمان

والمكان ممكن أن تنبهنا إلى نوع الأسئلة التي ينبغي أن نسألها عن الفرد المحدد الذي نتعامل معه: وهنا يأتي الاستنباط. لكن هذه الأنساق وحدها لا تكفي لتحديد الإجابات، فمن السهل جدًا أن تجد ما تبحث عنه عندما تقرر سلفًا ما هو. لكن في مجال السيرة نستخدم الدليل المستقى من خبرة خاصة لضبط ما نعرفه من الخبرة العامة، ونفعل هذا باستخدام الاستقراء.

وعليه، فإن أول مرحلة في الوفاء باختبار مالكوفيتش هو موازنة العام بالخاص بطريقة أدق كثيرًا مما تتطلبه كتابة التاريخ غالبًا. ذلك أن الاستقراء في السيرة يأتي في الأساس من البنى الباقية التي تركها فرد واحد. أما الاستنباط فيعتمد على كل شيء آخر في الخبرة الإنسانية يمكن أن يساعدنا في فهم ذلك الشخص. تحتاج كتابة السير الأسلوبين، ولكن بتوازن دقيق حساس. يشبه الأمر ركوب دراجة بدولاب واحد، أي لا بد أن تكون واعيًا طيلة الوقت بالأفق الأوسع، وفي الوقت نفسه تركز على النقطة الإشكالية التي يلتقي فيها مطاط الدراجة بالطريق.

2

من المشكلات الأساسية التي تواجه كتاب السير الصفة الذاتية سيئة السمعة التي نسميها الشخصية. وأعرّف هذا المصطلح بأنه مجموعة من الأنساق في سلوك الفرد تمتد طوال حياته. وهي ما تجعل الشخص يتعامل مع مواقف مختلفة بطرق متشابهة. وحتى عندما لا يحدث هذا -عندما يكون السلوك مختلطًا أو متناقضًا- غالبًا ما يجد كتاب السير اتساقًا في استمرار هذه التناقضات.

مع ذلك فإننا لا نملك تفسيرًا جيدًا لكيفية اكتشافنا للشخصية عندما نراها. حياة الناس مليئة بالأنساق، فأيها تحديدًا يشكل الشخصية. للإجابة عن هذا السؤال، سنفكر في طريقة عمل كتاب السير، فهم يبدؤون عمومًا من المستوى الأدنى، أي الميلاد والطفولة والمراهقة؛ لأنهم يفترضون أن الشخصية تتكون فيه. ثم ينتقلون إلى

المستوى الأعلى، إذ يتتبعون الشخص موضوع السيرة راشدًا لأن هذا هو ما جعله يستحق الكتابة عنه. كتابة السيرة توسيع متواصل للآفاق، مثل الحياة، ومع تقدم العمر تطوى هذه الآفاق جميعًا مرة أخرى. وغالبًا ما يرى كتاب السير الشخصية في عناصر ذاتية تظل ثابتة في الفرد أو تكاد طوال عمره.

فما هذه الطريقة غير ما وجدناه في نظرية الفوضى والتعقيد، أي البحث عن التشابه الذاتي عبر المقياس؟ والمقياس في مثالنا هذا هو توسيع مجال حياة الشخص ثم تضييقه. ومثل ممارسي الهندسة الكسورية، يبحث كتّاب السير عن أنساق باقية مع انتقال الشخص في التحليل من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى ثم العودة. كتب بلوتارك منذ نحو ألفي عام: "إن أبرز الانتصارات لا ... [تكشف] دائمًا عن صلاح صانعها أو فساده، بل إن فعلًا عارضًا أو عبارة غريبة أو مزحة هي غالبًا ما يكشف حقيقة الشخصية أفضل من معارك أزهقت فيها آلاف الآلاف من الأرواح، وصالت فيها صفوف الجنود، وحوصرت فيها مدن كاملة".[١٥]

معنى ذلك أن المقياس الذي نسعى إلى تتبعه بحثًا عن التشابه ليس بالضرورة مرتبًا زمنيًا. ولنضرب أمثلة بوقائع من حياة ستالين بين 1929 و1940، ليست مرتبة تاريخيًا بل بتصاعد الفظاعة. نبدأ بالببّغاء الذي كان يضعه في قفص في شقته في الكرملين. كان ذلك الديكتاتور معتادًا على المشي ذهابًا وإيابًا لمدد طويلة يدخن غليونه ويفكر ويبصق على الأرض من آن لآخر. وذات يوم حاول الببّغاء محاكاة بصاق ستالين. فأدخل ستالين ذراعه في القفص وهشم رأس الببغاء بغليونه. ربما تقول: هذا حدث على المستوى الأدنى، فما أهميته؟

لكنك تعلم بعدها أن ستالين عندما كان في إجازة في القرم أيقظه كلب ينبح، اتضح بعد ذلك أنه كلب يقود صاحبه المزارع الأعمى. ينتهي مآل الكلب إلى القتل والمزارع إلى معتقل الغولاغ. ثم تعرف أن ستالين دفع زوجته الثانية، وكانت ذات عقل مستقل، إلى الانتحار لأنها حاولت أن تراجعه. وأنه رتب اغتيال تروتسكي وتتبعه في نصف الكرة الأرضية؛ لأنه كذلك حاول أن يراجعه. وأنه رتب مقتل كل

من استطاع الوصول إليه من شركاء تروتسكي، وكذلك مقتل مئات آلاف غيرهم لم تكن لهم صلة بتروتسكي. وعندما بدأ شعبه يراجعه بمقاومة عملية التحول إلى الزراعة الجماعية، ترك نحو أربعة عشر مليونًا منه يموتون من المجاعة التي تسببت فيها الزراعة الجماعية، وكان جزاء من لم يمت النفي أو الاعتقال.[11]

وهنا أيضًا تشابه ذاتي بالمقياس، إلا أن المقياس هنا هو عدد الجثث. إنها هندسة كسورية للفظاعة. بالتأكيد تواصلت شخصية ستالين عبر الزمان والمكان، لكنّ أميز ما في هذا التواصل هو امتداده عبر المقياس، أي إن سلوكه يبدو واحدًا في الأمور الكبيرة والصغيرة، وأغلب ما بينها. ومرة أخرى يقول بلوتارك: "يأتي الرسام بشبه الشخص موضوع رسمه بأن يركز على الوجه وتعبير العينين، وهذا ما يكشف الشخصية."[12] وعلى كاتب السير أن يكون بالقدر نفسه من الحساسية.

هل تعطينا الكسوريات أساسًا علميًا لتمييز الشخصية؟ ليس هدفي أن أصل بقولي إلى هذا الحد. فإن "قياساتنا" لهذه الصفة لن تبلغ دقة أو قابلية تكرار قياسات العلماء عندما يقيسون أنساق الصرف والمنحنيات الجبلية والأوعية الدموية وسيقان القرنبيط، وبالطبع الخط الساحلي البريطاني. لكن الكسوريات تقول شيئًا لا نسمعه كثيرًا عن السير: إنها تتجاوز الأبعاد المألوفة للزمان والمكان لتتعامل أيضًا مع المقياس.

بطريقة ما كنا نعرف هذا الأمر طيلة الوقت. فعندما نتكلم عن "كسو العظام لحما" في تصويرنا لشخصية تاريخية، فإننا بالتأكيد نقصد هذا بمعنى يتجاوز البعدين. لكن ماذا كان ذلك البعد الثالث؟ أكان البعد الثالث هو الخطوة الإضافية، التي تتجاوز تتبع زمان فرد ومكانه في الماضي لتدخل عقله؟ مبهم كلام كتاب السير -ونقادها- في هذه النقطة: كلنا نعرف ما نتحدث عنه، ولكننا لم يكن لدينا من الكلمات ما نعبر به عنه أو نصوره إلا مؤخرًا. ربما كانت الشخصية مفهومًا غير علمي في إطار العلوم الطبيعية والأحياء والعلوم الاجتماعية القديمة. ولست متأكدًا أنها أوضح في إطارها الجديد.

3

فـما الذي يلفـت انتباه المؤرخ للشـخصيات المميزة في التاريخ؟ إنها السـمعة، أو بتعبير آخر، بنية باقية تجعلنا نولي أهمية خاصة للعمليات التي أنتجتها. فإن تأسـيس أسرة حاكمـة أو اكتشـاف قارة أو تأسـيس ديانة أو فتح دولة أو إبـداع عمل فني أو إبادة شعب بأكمله -أو الشروع في إبادته- كلها عمليات صارت ذات أهمية لنا لأن نتائجها باقية وتشـكل وعينا، سـواء أكانت أديانا أم مؤسسـات أم تكنولوجيات أم قصائد أم مسرحيات أم لوحات أم روايات أم سيمفونيات أم ذكريات أم أشباحًا.

لكـن مقاييـس الأهميـة هـذه يمكـن أن تتغير لأسـباب تتعلـق بـالأدوات التي تسـتخدم في قياس الماضي أو رسـم خارطته.[13] فشـخصية هتلر كانـت قطعًا لتوفي باختبـار الأهميـة، وكان ذلك واضحًا في حياته وبالتأكيد لنفسـه.[14] ولكن ماذا عن فيكتـور كليمـبرر وهو عالم أصـول اللغة من درسـدن، هادئ، لم يسـمع به إلا عدد قليل حتى سنوات قليلة مضت؟ إن الذي جذب انتباهنا إلى كليمبرر -إلى درجة أن تاريـخ الرايخ الثالث اليوم لا يمكن أن يكتب دون ذكره- هو مجموعة من الظروف غـير مرجحـة الحدوث. فقـد كان يهوديًـا احتفظ بيوميـات دقيقة كاملـة، وكان من الناجين.[15]

يزخـر التاريخ بأناس بدوا غير مهمين بالنسـبة إلى معاصريهـم، ولكنهم صاروا مهمـين لنـا من خلال عمليـة أنتجت بنية باقيـة. فعدد مرات ذكـر صامويل بيبيز في تاريخ ليزا بيكارد عن لندن بعد استرداد الملكية أكثر من عدد مرات ذكر الملك تشارلز الثـاني. فكما هو الحال مع كليمبرر، كان الفرق الحاسـم هو وجود يوميات.[16] وما كان أحد ليتوقع أن امرأة من سكان أمهرست، ماساتشوستس، معزولة عن الناس، تصـير، رغم اختلاف الآراء في ذلك، أكثر شـعراء القرن التاسـع عـشر الأمريكيين تأثيرًا، لكن التراث الذي خلفته إميلي ديكنسـون، بعد اسـتحضاره، جعلها كذلك. وبالطبـع فقـد كانت إصابة رصاصتـه هدفها وموت متلقيها -الـذي خلف جمجمة

مهشـمة وميراثًا- هو ما أفسـح مكانًا لا يُمحى في التاريخ لشاب منبوذ من تكساس تصـادف أنه أحضر بندقيتـه ذات صباح مع صندوق غذائه في دالاس واسـتخدمها بنجاح في نوفمبر عام 1963.

مـع ذلك، نـادرًا ما يحـاول المؤرخون أن يحـددوا بدقة الشيء الذي يجعـل أفرادًا معينين متميزين عن الجميع. فأغلب الناس يمضون حياتهم دون أن يفكروا أو يفكر غيرهم أن سيرهـم تستحق الكتابة. ربما يحدث شيء في بعض المواقف يغير هذا، لكن الأشـياء غير القابلة للتنبؤ المتضمنة في هذه العمليـة تحبط محاولات التعميم. ونحن نكتفي بتركها للمصادفة أو للقدر -حسبما يقول أقربنا إلى دور النذير.

إذا كانت فكرة التشـابه ذاتي المقياس تزيد من دقة تعريفاتنا للشـخصية، فلماذا لا يسـاعدنا مفهوم آخر من العلـوم الجديدة -مفهوم الاعتماد الحسـاس على الظروف الأولية- في فهم التميز التاريخي؟ وأحب أن أغامر بطرح افتراض أن كل حالة انتقى فيها المؤرخون فردًا من بين حشود غيره، كانت بها لحظة حساسية: أي نقطة أنتجت فيها تحولات صغيرة في بداية عملية ما نتائج كبيرة في آخرها.

أنـا لا أحـاول أن أقـول إن هذا ينطبق عـلى الأحداث الكبيرة التـي تتداخل فيها أسـباب عديدة. فعندمـا يتعلق الأمر بقضايا مثل صعود إمبراطوريات وسـقوطها، فـإن الغلـو في التحديد يخلـق إطنابًا يصعّـب عملية تحديـد الظـروف الأولية: فهي الظـروف التي تظـل تظهر وتعاود الظهـور وتتداخل مع بعضها بعضًا، مما يسـتبعد أن تكون أنف كليوباترا سـبب سـقوط مصر أو روما، مهما كان الشيء الآخر الذي تسببت في قيامه.

إن الاعتماد الحساس قد يحدد صعود شخصيات مميزة في التاريخ. وكثيرًا ما نشير إلى هـذا، عـلى نحو غير دقيق، بأنـه الوجود في المكان الصحيـح في الوقت الصحيح -وهو شيء أجادته كليوباترا بالتأكيد لكنه يتعلق كذلك بأن يخلف الشـخص وراءه الأشـياء الصحيحة، وهذا شرط مهم للسـيرة. فحتى حياة الناس العاديين لا يمكن أن تكتـب مـا لم يحالـف مصدر اسـتثنائي حظًا اسـتثنائيًا فيبقـى. وعليه، فإن إنشـاء

أرشيف معين أو حفظه قد يصير حدثًا مهمًا مثل غرق ديناصور معين في بركة وحل في مكان ما بحيث نعرف منه الكثير عن الظروف العامة للحياة في عصر لا سبيل لنا لمعرفته غير هذا.

ولكن ما الذي يجعلنا نعد شخصًا ما يستحق أن نكتب سيرته -بالإضافة إلى أنه خلّف مصدرًا استثنائيًا؟ وماذا نقصد تحديدًا بالوجود في المكان الصحيح في الوقت المناسب؟ ليس الأمر مجرد تخطي عقبات؛ لأن كثيرًا من الشخصيات البارزة في الماضي كان طريقها ممهدًا، وليس الأمر ميراث مكانة أو ثروة؛ لأن كثيرًا من الناس في التاريخ اكتسبوا المال والمكانة ولم تكتب عنهم سيرة حياة. لقد جاهد المؤرخون لوقت طويل محاولين استخلاص شروط بروز الشخصية، ولكن ربما اتخذوا طريقًا خاطئًا.

ربما كان أجدر بهم أن يفكروا في الظروف التي تنشأ فيها السمعة؛ لأنني إن كنت مصيبًا بشأن الاعتماد الحساس، فإنها لحظة يتوفر فيها عدم اليقين بشأن قدرة أفعال شخص ما على إحداث اختلاف. ومثل هذه الظروف قائمة دائمًا: فالاغتيالات مثلًا يمكن أن تحدث في أي وقت، وعلى الرغم من أن بعضها، مثل المحاولة الفاشلة لاغتيال هتلر، وراءها أغراض تجعلها قابلة للتنبؤ، فإن بعضها الآخر، مثل الاعتداء الناجح على كينيدي، ليس لها هذه الأغراض، مما يجعلنا نواجه مأساة يزيد ألمها بسبب غياب الغرض الواضح.

مع ذلك، ففي أغلب الأحيان، ترتبط الظروف التي تجعل الأفراد بارزين -أي تسمح بنشأة السمعة- بوجود ما يمكن أن نسميه نوافذ الفرصة. خلقت الثورة الصناعية منفذًا لشخص -تصادف أنه كارل ماركس- أتاحت له وصف آليات عمل الرأسمالية ثم إدانتها بطريقة مقنعة بدرجة اكتسبت حشدًا من التابعين، وهو شيء لم يكن على الأرجح ليحدث لو كتب ماركس ما كتب قبلها بخمسين عامًا أو بعدها. وما كان قادة الحروب العظام مثل بيركليز وعائلة بيتس ليجذبوا الانتباه

لولا الصراعات التي رفعتهم لسدة السلطة. كم نابليون لم نسمع بهم لأنهم سعوا إلى القمة، لكنهم لم يجدوا الفرص التي توصلهم إليها، وكم أسامة بن لادن؟[17]

قلت سابقًا إن الاعتماد الحساس في العلم يأتي في الغالب الأعم من نقطة تحول مرحلي: وهي نقطة تتحول فيها خواص المادة إلى شيء آخر. فهل هذا ما نعنيه بنوافذ الفرص في التاريخ؟ هل يمكننا أن نعتمد على لغة العلم لشحذ تفكيرنا فيما أنتج نقاط الاعتماد الحساس في الماضي؟ ربما -لكن المؤكد أن هذا لن يتعلق بالمستقبل. فعلى الرغم من أن العلماء يمكن أن يقولوا أشياء عامة عن خواص نقاط التحول المرحلي، فإنهم نادرًا ما يستطيعون التنبؤ بالمسار الدقيق الذي ستأخذه الأحداث التي ستظهر فيها.[18] ولا يسعهم إلا معرفتها بأثر رجعي. وهذا أفضل ما نستطيع أن نفعله في التاريخ أيضًا.

4

وهناك شيء آخر لا يسع كتاب السير- والمؤرخون عمومًا- أن يتفادوه على الرغم من أن علماء الطبيعة لا يُطلب منهم أن يفعلوه أبدًا، وهو إصدار أحكام أخلاقية. ففي العلوم "الصلبة" لا ينشغل أحد بأخلاق الجزيئات. حتى الكواركات(*) (quarks) مهما كانت خواصها من لون أو نكهة أو جاذبية لا بد أن تعد إما خيرة أو شريرة. ولا أعرف عملًا تاريخيًا قط كتب دون كلمة -تصريحًا أو تلميحًا، بوعي أو بغير وعي- يحدد مكان موضوعه بين درجات الطيف الموجود دائمًا الذي يفصل بين مستحق الإعجاب ومستحق الكراهية. لا يسعك التفكير في التاريخ دون أحكام أخلاقية، ولا أعتقد أننا يجب أن نحاول ذلك.

(*) أي عدد من جسيمات دون الذرة تحمل شحنة كهربية ضئيلة، لم تشاهد مباشرة، مع ذلك فقد تأكد تجريبيًا صدق نبوءات نظرية تفترض وجودها.

السبب في ذلك أننا، خلافًا لغيرنا، حيوانات أخلاقية. ولا يعيش مجتمع دون إحساس بالصواب والخطأ، كان هتلر نفسه يعلم أن المحرقة غير أخلاقية، وإلا ما كان بذل كل الجهود التي بذلها ليحاول إخفاءها.[19] إن أي محاولة لنزع الحس الأخلاقي عن السلوك الإنساني هي إنكار لما يميز السلوك الإنساني، ساعتها لن تكون كتاباتنا عن البشر بل عن تاريخ أسراب السمك والطيور وقطعان الغزلان.

ليست القضية بالنسبة للمؤرخين إذن إصدار أحكام أخلاقية من عدمه، بل كيف نفعل ذلك على نحو مسئول، وأعني بذلك على نحو يقنع المتخصصين وغير المتخصصين ممن سيقرؤون عملنا بأن ما نقوله معقول. وقد صار هذا الأمر أصعب حاليًا من ذي قبل، في ظل الفكرة بعد الحداثية، النافذة البصيرة فيما أرى، التي تقول إن كل أسسنا في تقييم السلوك هي نفسها من تجليات السلوك. وقد كنا من قبل نعتمد على أسس صلبة لم تعد موجودة.[20]

ولا يترتب على الاعتقاد بأن نتائجنا حتمًا، تعكس هوياتنا ومحيطنا، عدم تفاضل هذه النتائج صحةً. ولأثبت هذا أحب أن أرجع إلى مناهج العلوم الطبيعية مرة أخرى، على الرغم من أن موضوعات بحثنا لا تتطابق بحال.

خير مكان نبدأ منه مكان ترددنا عليه مرارًا وهو الخط الساحلي البريطاني. ولنستحضر ما يذكرنا به لويس ريتشاردسون وبنوا ماندلبرو وهو عدم وجود طريقة لمعرفة طوله الحقيقي. في الوقت نفسه، قلت سابقًا إنه من غير الحكمة أن نخلص من ذلك، كما قد يفعل شخص بعد حداثي، إلى أن الخط الساحلي البريطاني ليس موجودًا في الواقع، ذلك أننا نستطيع أن نمر عن طريقه بسلام على متن ناقلة عملاقة -ولنسمها بول دي مان أو جاك دريدا.

استخدم هذا المثال لأبرز أهمية نقطة حاولت أن أطرحها عدة مرات، وهي ضرورة أن يولي المؤرخون مكانة متساوية للتمثيل من جانب والواقع من جانب آخر. فإننا إن أنكرنا التمثيل حرمنا أنفسنا من كل المعلومات التي لا تستطيع عيوننا وآذاننا أن تحصلها. أما سفينتنا بعد الحداثية فستعمل بلا خرائط أو بوصلات أو

حواسب أو أجهزة الاتصال أو رادار. وإن إنكار الواقع يعني عزل التمثيل عما يمثله: مما يسمح بغياب النتائج المحددة من أدواتك التي توهمك بعدم وجود شيء حولك على الإطلاق. إذا اتبعت أحد الفريقين دون الآخر فمآلك الاصطدام بالصخور.

وهنا تتضح ضرورة مناورة مالكوفيتش لكاتب السّير. فإن عقل موضوعك -الذي لا بد أن تدخل فيه- واقع لا يمكنك تغييره. فهو مثل الصخور والمياه الضحلة التي ستقابلها بصرف النظر عن السفينة المتوجهة إليها، أو وحدة القياس التي يستخدمها الملاح لكشفها. ولا جدال في هذا الواقع: فعليك بوصفك كاتب سيرة أن تقبل موضوعك كما هو. فلا تخفي التراب تحت البساط ولا ترسم هالات حول الرأس.

لا يمكنك تحقيق هذا إلا بالتقمص، وهذا شيء يختلف عن التعاطف. فدخول عقول الناس يقتضي أن يكون عقلك منفتحًا على انطباعاتهم -مخاوفهم وآمالهم ومعتقداتهم وأحلامهم وحسهم بالصواب والخطأ وإدراكهم للعالم ومكانهم المناسب فيه. يؤكد ر. ج. كولينغوود أن "التاريخ لا يمكن أن يُكتب علميًا إلا أن يستطيع المؤرخ في عقله إعادة تمثيل خبرة الناس الذين يحكي عنهم".[21] ولن تكون الانطباعات الناتجة متطابقة مع انطباعاتك أبدًا. قد يبهرك بعضها، وقد يفزعك بعضها. ولكنك يجب أن تعيد بناءها؛ لأن هذا هو السبيل الوحيد لفهم الأسباب وراء تصرف موضوعك على النحو الذي تصرف به. والمؤكد أنك حتى لو كنت تكتب سيرة حياة كاليغولا[*]، فإنك سترغب في ذلك القدر من الاستقلالية.[22]

لكنك ستطلب الخروج من هذا الموقف، ولأنك لا تريد أن تلقى في طريق نيوجيرسي تيرنبايك، فإن ستبادر بالقفز بنفسك لتخرج منه. وتحمل معك، بالطبع، مجموعة تمثيلات للمكان الذي كنت فيه. فقد تفاديت الصخور، مما يعني أنك حر في قياس موضوع سيرتك بما تختار من مقاييس. فإنك تصور الواقع الذي عشته افتراضًا، وأنت متحكم تمامًا وأنت تفعل هذا: إن ما ينبغي أن تقلق عليه الآن هو

(*) الإمبراطور الثالث للإمبراطورية الرومانية حكم في المدة ما بين عامي 37 حتى اغتياله عام 41 ميلادية، وعرف بتهتكه وساديته وجنونه.

استقلاليتك أنت، والمهم أنك لا تصنع هذه التمثيلات إلا بعد أن عرفت بنفسك -عن طريق التقمص- الواقع الذي تصوره.

لا يمكن أن يؤدي مؤرخان هذه المهمة بطريقة واحدة، وعليه فلا يوجد معيار واحد للموضوعية في كتابة السيرة، بل في التاريخ كله. ولن يتحقق أبدًا إجماع على سمعة بطرس الأكبر مثلما لن يتحقق إجماع على طول الخط الساحلي البريطاني. لكن هناك إجماع على وجودهما وعلى أن الأول أبحر بطول الثاني. فكيف نصل الفجوة بين ما نعرف يقينًا وما نختلف عليه؟

أعتقد أننا ندرك هذا بالعودة إلى فكرة "التوفيق" بين التمثيل والواقع. فأي أحكام يصدرها أي مؤرخ على الماضي لا يمكن إلا أن تعكس الحاضر الذي يسكنه المؤرخ. والمؤكد أنها تتغير بتغير اهتمامات الحاضر. فالتاريخ في حالة إعادة قياس دائمة باستخدام مقاييس كانت مهملة فيما سبق: ومن الأمثلة الحديثة دور المرأة والأقليات والخطاب والميول الجنسية والمرض والثقافة. تحمل هذه الأشياء جميعًا مترتبات أخلاقية، وهناك غيرها كثير. لكن التاريخ الذي تمثله هذه التمثيلات لم يتغير. فهو هناك في الماضي، راسخ رسوخ الخط الساحلي الذي لم يقس قياسًا دقيقًا بعد. هذا الواقع هو الذي يمنع تمثيلاتنا من أن تشطح في الخيالات.

تسمح لنا عملية التوفيق بين التمثيلات والوقائع بأن نقترب من الإجماع كما يسمح لنا التفاضل بالاقتراب من حساب المنحنى دون الوصول النهائي إليه. بالطبع ستحدث خلافات بين المؤرخين حول طريقة تنفيذ هذا، لكن هذه الخلافات نفسها قائمة بين طرق التقريب ولنعدها المعادل التاريخي لرسم الخرائط من ثلاث زوايا. عندما تولى البريطانيون عمل مسح للهند بحساب المثلثات في منتصف القرن التاسع عشر، فعلوا ذلك بالطرق التالية: بدؤوا بالساحل حتى وصلوا جبال الهيمالايا، ووضعوا كل نقطة على الخارطة حسب علاقتها بنقطتين أخريين على الأقل في المسطح الأرضي. استخدموا مناظير انحرافية لفرض مخطط واحد يبدؤون منه التحرك، وقد حقق هذا نجاحًا عظيمًا في تمثيل واقع معقد.[23]

أعتقد أن المؤرخين يفعلون شيئًا كهذا وهم يرسمون المشهد الأخلاقي والمادي الماضي، وهذه نقطة سأتناولها بتفصيل أكبر في الفصل الأخير، أما هنا فيكفي أن أقول إنه لا يوجد مقياس "صحيح" واحد؛ ولكن أثناء مناورة مالكوفيتش -وهي عملية دخول عقل شخص آخر والخروج منه، ثم الحوار فيما بيننا حول ما رأيناه فيه- نستطيع أن ننظر إلى الماضي من منظوره ومنظورنا. وهذا في المقام الأول هو هدف السيرة بل التاريخ كله.

5

لا بد لي عند هذه النقطة أن أعترف بالانحراف بعيدًا عن آراء المؤرخيْن اللذين ألهما هذا الكتاب، مارك بلوخ و إ. هـ. كار، فما كانا ليقبلا رأيي أن المؤرخين لا خيار لهم إلا أن يطلقوا أحكامًا أخلاقية. وكان بلوخ عنيفًا على غير عادته في هذا الشأن:

> هل نحن متأكدون من أنفسنا وعصرنا بحيث نقسم جمع الأجداد إلى عدول وملعونين؟ ... لا شيء أكثر تغيرًا من الأحكام؛ لأنها تخضع لكل تقلبات الرأي الجمعي أو الهوى الشخصي، ولأن التاريخ في الغالب يفضل جمع وثائق التكريم على جمع المذكرات، فقد أعطى نفسه مظهر أقل المجالات يقينًا. فالإدانات الجوفاء يليها تصحيحات، ومؤيدو روبسبير يليهم معارضوه. رأفة بنا، قولوا لنا ببساطة ماذا كان روبسبير.[24]

لم يكن كار أقل صراحة. فالمعاصرون وليست الأجيال التالية في رأيه هم من يحكمون على شخصيات التاريخ العظيمة. وهو يؤكد أن "الإحراج الأكبر" الذي يواجه المؤرخ المعاصر هو صعوبة مقاومة هذا النزوع. للمؤرخين كل الحق في إدانة مؤسسات مثل الاستبداد أو العبودية. لكنهم لا حق لهم في إطلاق الأحكام على ملاك عبيد بعينهم أو إدانة خطايا بعينها لشارلمان أو نابليون. يقر كار بأن "ستالين

قيل عنه إنه عامل زوجته الثانية بقسوة ووحشية، ولكنني بوصفي مؤرخًا للشئون السوفيتية، لا أشعر أن هذا الأمر يهمني كثيرًا."[25]

أعتقد أن هذا الكلام ينطوي على افتراض بأن كل عصر يفرض أخلاقه على من يعيشون فيه، أي لا جدوى من إدانة أفراد بسبب الظروف التي وجدوا فيها أنفسهم. ربما كان ذلك صحيحًا في أغلب الحالات. لكن القرن العشرين شهد على الأقل ثلاثة أمثلة فظيعة لأفراد فرضوا أخلاقهم على زمانهم: ما فعله هتلر في ألمانيا وما فعله لينين وستالين في الاتحاد السوفيتي، وما فعله ماو تسي تونغ في الصين. ولا يقدم لنا بلوخ أو كار أي إشارة عن كيفية تعامل المؤرخين مع مواقف كهذه.

وقع بلوخ نفسه ضحية واحد منهم. فما كان ليتوقع إعدامه على يد الجستابو عندما كان يؤلف كتاب حرفة المؤرخ، بالرغم من أنه كتاب شديد التسامح بالقياس إلى الظروف المرعبة التي ألف فيها. وهذا من أسباب عظم تأثيره، لكنه كان للأسف مراوغًا أيضًا؛ لأنه لا يقدم شيئًا يفسر صعود ألمانيا النازية أو طبيعتها، فهل كان مؤرخو تلك المدة، كما في حالة روبسبير، يقنعون بأن يقولوا لنا ماذا كان هتلر دون تعليق؟ بلوخ نفسه لم يحاول أن يقول شيئًا في هذا الشأن.

الأكثر من هذا إزعاجًا هو تفادي كار إطلاق حكم على الاتحاد السوفيتي؛ لأنه كان يملك الدليل الكافي على جرائم ستالين، ومع ذلك حاول إخفاءها وسط حسابات نفعية لما سماه "التقدم". فقد كتب في ما التاريخ يقول: "لكل حقبة من التاريخ ضحاياها ومنتصروها. وفكرة أن خير البعض يبرر معاناة غيرهم متضمنة في كل أشكال الحكم، وهي فكرة محافظة بقدر ما هي متطرفة."[26] لكن كار أقر في سياق خاص أنه "تجاوز بشكل ما عن الفظائع والأعمال الوحشية والإعدامات ... ولكن هل هذه هي الأشياء التي يسعى الفرد إلى التركيز عليها إذا أراد أن يستخلص المعنى النهائي للثورة؟"[27] ربما لا، ولكن ماذا لو كانت الفظائع والأعمال الوحشية والإعدامات هي المعنى النهائي للثورة؟

يتأثر المؤرخون بالتاريخ كما يتأثر كل الناس. أما القول بأن المؤرخ يستطيع أو يجب عليه أن ينأى عن الأحكام الأخلاقية فقول غير واقعي ينكر الحقيقة نفسها.

فهـذه الفكرة تفترض انفصال المراقبـة عن التقويم وهو يتناقض مع ما أصاب بقوله كل مـن بلوخ وكار عن اسـتحالة الموضوعيـة في التاريخ.[28] والمخـرج الوحيد من هـذه المشـكلة، فيما أرى، هـو أن نقبل انخـراط المؤرخ في أخلاق زمانـه، مع التمييز الصريـح لهـذا الانخراط -كما يفرض أسـلوب مالكوفيتش على كاتب السّـير- عن أخـلاق الفرد أو العـصر الذي يكتب عنه المـؤرخ. نحتاج زاويتـي الرؤية هاتين إذا أردنا أن نرى التاريخ من زوايا ثلاث.

6

يساورني الخوف من أن يكون هذا الفصل مثقلًا بالاستعارات التي فرضتها عليه أكثـر من غيره: جـون مالكوفيتش وطريـق نيوجيرسي تيرنبايك، وأنـف كليوباترا، وببغاء سـتالين والخط السـاحلي البريطاني والسـفينة الميمونة "جاك دريدا"، والمسح الهندي الكبير بالإضافة إلى تشكيلة الديناصورات المعتادة. لو قلت لك في البداية إن هذه هي الموضوعات التي سنغطيها لتوقعت قدرًا هائلًا من الارتباك. وربما وجدته.

أنـا لا أعتـذر على تقديم استعارات مختلطة أو غير مختلطـة. أولًا، لأنني أرى أن التقمـص -فيـما يتعلق بالماضي أو الحاضر أو المسـتقبل- يحتاجها كل الاحتياج. فإذا أردنـا الانفتاح عـلى التأثيرات، وهو ما قلت إنه يمثل معنـى التقمص، فلا بد لنا أن نقارن. وهذا نفسـه طريقة أخرى للقول إن شـيئًا ما "مثل" شيء آخر. وهذا يتحقق مع كيان يتصف بالتفكير المنعكس وتوليد التغذية الراجعة وتبادل المعلومات (إن لم يكن تعظيم النفع).

إذا كانت الاسـتعارات تسـاعدنا عـلى التفكير -إذا كانت تفتـح لنا نوافذ يدخل منها الهواء الجديد، وهذه نفسها استعارة أخرى- فإن لنا كل الحق في الاعتماد عليها، وفي أن نفعـل ذلـك دون أي خجل. فنحن نحتـاج كل ما يمكن أن نحصل عليه من عون.

الفصل الثامن

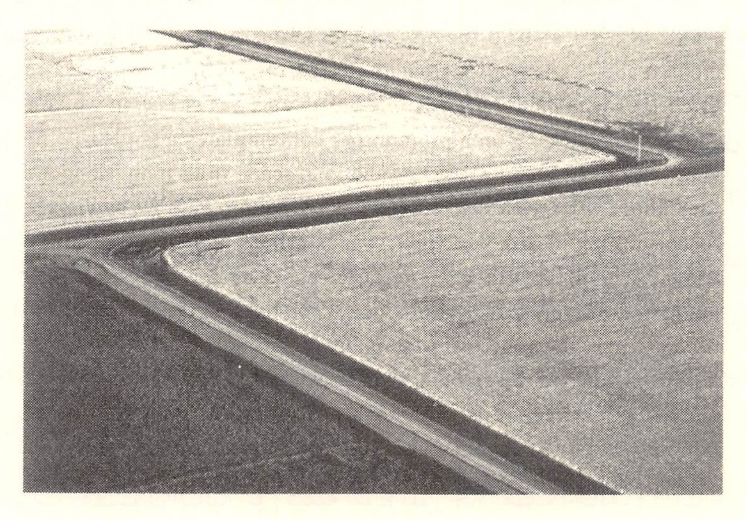
الرؤية بعيون مؤرخ

بـدأت أول فصل في هذا الكتاب وأنهيته بصورتـين يفصلهما 180 عامًا في كل منهما شـخص يولينـا ظهره، الأولى لوحة كاسـبر ديفيد فريدريش «طـواف فوق بحر من الضباب»، عام 1818، يقف فيها شاب على قمة جبل يتأمل مشهدًا، يعلم أنه هناك لكنه لا يراه، والثانية المشـهد الأخير من فيلم جون مادوين «شكسـبير عاشقًا»، عام 1998 الذي تظهر فيه غوينيث بالترو بشخصية فيولا في بداية مسرحية الليلة الثانية عـشرة، تخـوض في المـاء وحدها على شـاطئ مهجور، نتّبـين عندما توسـع الكاميرا الصـورة أنهـا قـارة غير معروفـة. وقلـت إذا تصورنـا المـاضي مشـهدًا، فالمؤرخ في موقع الشـخصين المصوريـن هنا: أي يوحي موقفهما بالأهميـة والتفاهة معًا والعزلة والانخراط والسيادة والتواضع والمغامرة وكذلك الخطر. وقلت إن التعلق بين هذه الأضداد هو جوهر الوعي التاريخي.

ركـزت الفصـول التالية على كيفية بلوغ المؤرخين هـذه الحالة، وذلك عن طريق التحكم في الزمان والمكان والمقياس، واسـتنباط العمليات الماضية من البنى الباقية، وتخصيص التعميم وإدماج العشوائية مع الانتظام، والتمييز بين الأسباب؛ وضرورة الدخول في عقل شخص آخر، أو عصر آخر، ثم التماس طريق العودة. وفي أثناء هذا كله توسعت في استخدام الاستعارات -بداية من مادة المارمايت التي انسكبت على

طريق م 40- حتى الناقلات بعد الحداثية العملاقة المتوجهة نحو الخط الساحلي البريطاني- بهدف حث القارئ على النظر إلى بعض القضايا المألوفة بطرق غير مألوفة، كالطريقة التي وجدت غرترود ستاين نفسها تنظر بها عندما طارت عبر الولايات المتحدة في 1938، وأدهشها أن ترى المشهد من الطائرة يتخذ خطوط الفن التكعيبي وأشكاله وألوانه.[1]

يعود هذا بي إلى مشهد آخر يرى من علٍ، وهو على غلاف كتاب صدر حديثًا هو **الرؤية بعيون ولاية** تأليف زميلي في ييل جيمس سي. سكوت. في المشهد انحناءتان بزاوية قائمة في طريق منشأٍ عبر البراري المستوية في داكوتا الشمالية وليس من سبب ظاهر لهاتين الانحناءتين. لكن هناك تفسير، وهو أن الطرق تتبع تقسيم حدود المدن المقرر في نظام المخططات التي تبلغ مساحة الواحدة منها ستة أميال مربعة الذي فرضته حكومة الولايات المتحدة، ليس في داكوتا الشمالية وحدها بل في أنحاء الوسط الغربي الأمريكي كافة، عندما مسحت تلك الأراضي في القرن التاسع عشر.



طريق داكوتا الشمالية مخطط بحيث يراعي تلاقي خطوط الطول وهي تقترب من القطب الشمالي. تصوير أليكس س. ماكلين، (مسجلة) 1994 أعيد نشرها في كتاب جيمس كورنر وأليكس س. ماكلين **قياس المسطحات الأرضية الأمريكية**، نيو هيفن: مطبعة جامعة ييل، 1990، ص: 56.

James Corner and Alex S. MacLean, *Taking Measures across the American Landscape* (New Haven: Yale University Press,1996), p. 56.

تعكس انحناءات الطريق حقيقة وهي أن خطوط الطول تتلاقى مع اقترابها من القطب الشمالي، وعليه يجب أن تتبعها الحدود والطرق.[2] وقد غاب عن هذا الفكر إمكانية عمل أي شيء سوى زوايا قائمة للوفاء بالتعديلات المطلوبة، ولم يسمح بأي طرق مختصرة في سياق هذا المنهج الذي فرضته الولاية في بناء الطرق.

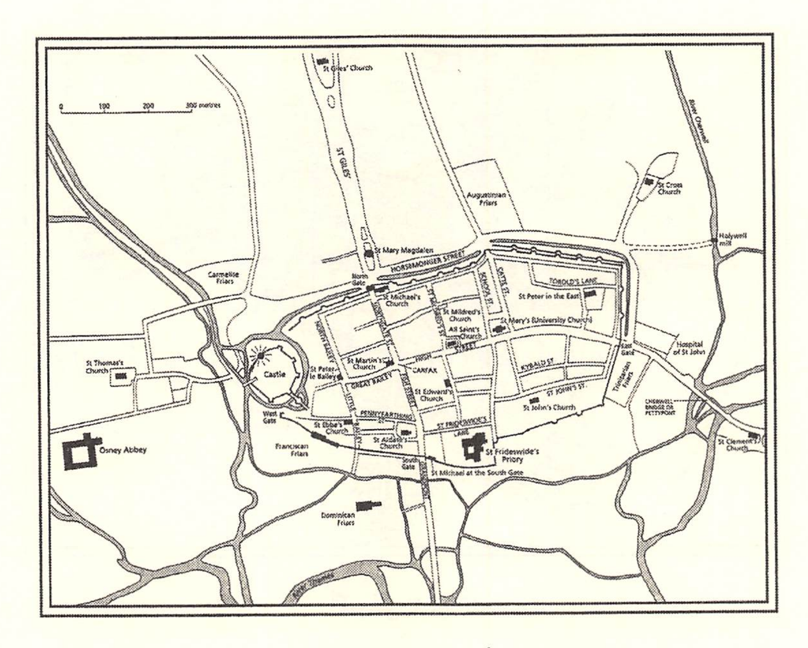
نقارن هذا بواحدة من أرقى الساحات العامة في أوروبا، وهي تقع وسط أكسفورد. لم تصمم الحكومة الانحناء الكبير في شارع أكسفورد الذي يمتد من كارفاكس حتى ينحدر إلى جسر ماجدالين، ولم يصمم هذا مهندس معماري، بل أنشأته الماشية، كما يشي بذلك اسم البلدة، كان ذلك هو الطريق الذي تتخذه الثيران وهي تعبر مخاضة من نهر التيمز أو إيزيس(*) إلى مخاضة في نهر تشرويل ثم تعود.[3]

يستخدم سكوت صورة داكوتا الشمالية ليرمز إلى ما تحاول أن تفعله الولايات بأجزاء من سطح الأرض تريد السيطرة عليها، ومن يعيش عليها من الناس. فإن الحكومات لا تستطيع أن تفرض سلطتها وتحافظ عليها إلا بأن تجعل الأراضي والمجتمعات قابلة للقراءة -ويقصد بهذا قابلة للقياس، ومن ثم قابلة للتحكم. وهو يقول: "هذه الاختزالات من جانب الولاية مثل الخرائط الموجزة." فهي لا تستنسخ الموجود بالفعل، ولكن "عندما تدعمها قوة الدولة [فإنها] تمكّن قدرًا كبيرًا من الواقع الذي [تصوره] من إعادة التشكل."[4] وليس هذا الحال دائمًا، فهناك

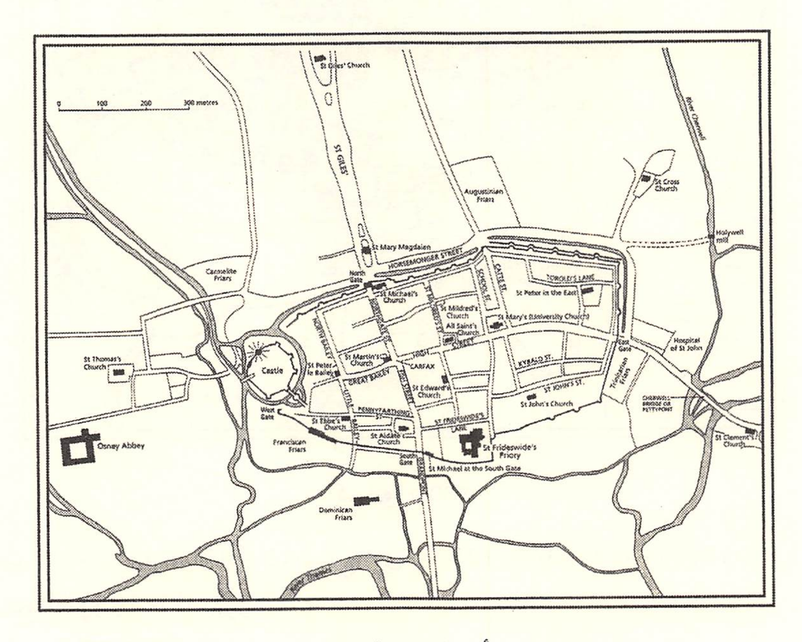
(*) (Isis) إيزيس فرع من نهر التيمز.

أماكن كثيرة مثل أكسفورد ليس لدى الحكومات حيالها خيار سوى توفيق سلطتها بأثر رجعي مع الموجود فعلًا.

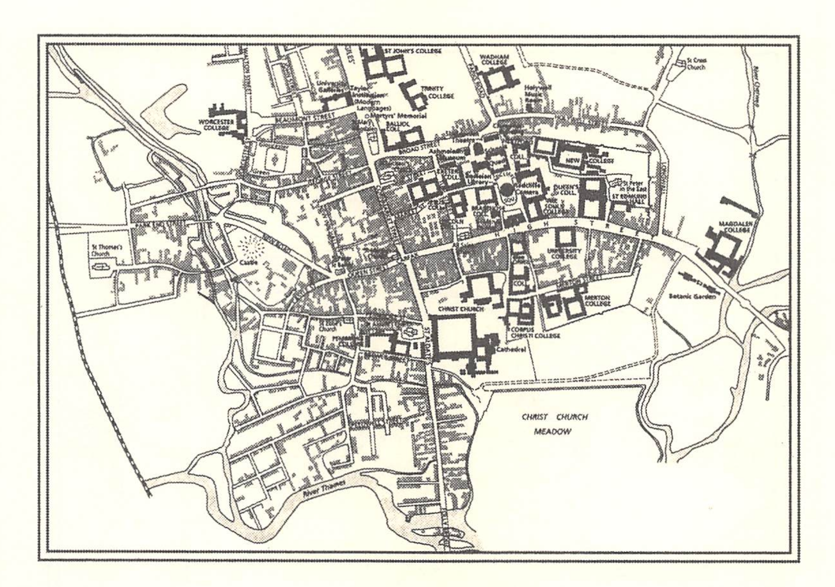
وفي كل مكان حولنا أدلة على إعادة صياغة الواقع وفق إرادة حكومية: في الطرق الرومانية التي تظل أشد استقامة من غيرها على خريطة الطرق البريطانية، في خطوط الأملاك التي ترجع إلى كتاب وليم الفاتح كتاب يوم الدينونة، في أن أغلبنا له ألقاب عائلية، وهو معادل العصور الوسطى لرقم الهوية، وفي تقنين الأوزان والمقاييس واللغات والمناطق الزمنية والهواتف الخلوية (الذي نرجوه سريعًا) في فرض الأبنية الضخمة المصطنعة التي تخص مدناً كبرى مثل باريس وواشنطن، وسانت بطرسبرغ، أو في آلاف البلدات الصغيرة غير الضخمة في وسط أمريكا، حيث التصميم ظاهر وحاضر في رتابة التقاطعات بزاوية قائمة، أو في الحدود المستقيمة التي فرضتها القوى الاستعمارية على مناطق شاسعة لم تُستكشف من أفريقيا في القرن التاسع عشر، ولكن كذلك، كما يشير سكوت، في مدى واسع من ظواهر القرن العشرين، بداية من زراعة المحصول الواحد الذي رفع إنتاجية المحاصيل والحيوانات الزراعية وأضعفتها، وكذلك عرضتها للهوس الشخصي السياسي والاقتصادي لزعيم مثل ستالين أو ماو تسي تونغ، اللذين فعلا الشيء نفسه لحقبة من الزمن بنتائج كارثية على الشعب.



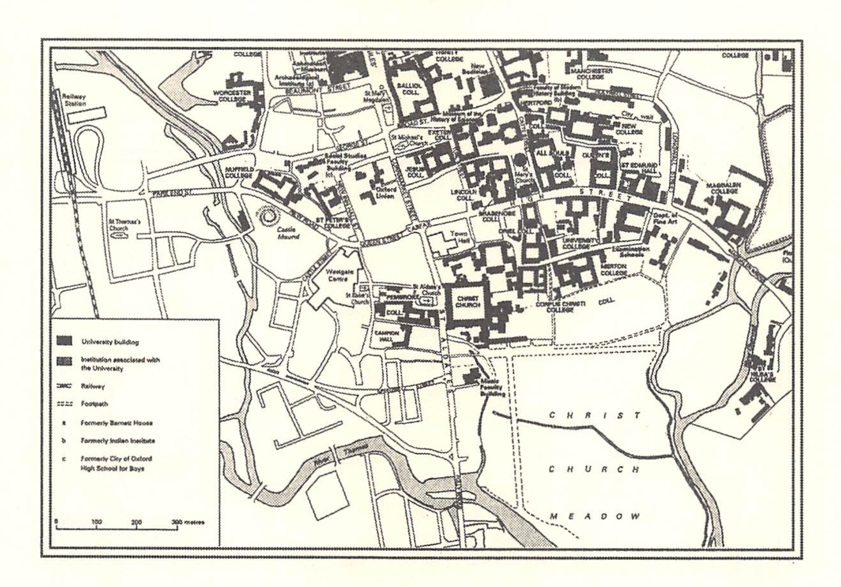
أكسفورد في 1250



أكسفورد في 1500



أكسفورد 1850



أكسفورد 1990

تكيف أكسـفورد مع حركة الثيران، شـارع هاي في 1250، 1500، 1850، 1990 مأخوذ عن **التاريخ المصور لجامعة أكسفورد**

John Prest, ed., *The Illustrated History of Oxford University* (Oxford: Oxford University Press ,1993), pp. xvi–xxi.

يحرص سكوت على التأكيد بأن آثار الحكومات في مسطحات الأرض ليست كلها سيئة. فمن دونها تغيب الخدمات التعليمية والطبية وخدمات النقل والدعم والاتصال التي تعتمد عليها المجتمعات كما نعرفها.[5] ودونها ما كنا تقدمنا كثيرًا عن أوروبا الوسيطة التي تملؤها الطيور المغردة والبشر الذين يقعون ضحية الأوبئة التي يحتفي بها مؤلفو روايات السفر عبر الزمن. لكن كان هناك ثمن لذلك قطعًا، وهو أن بحث الحكومة عن قابلية القراءة عن طريق فرض شكل عام واحد يقلص التنوع المحلي. فإن المعايير العامة غالبًا ما تضيّع علّما خاصًا بطريقة عمل الأشياء. أحد من قرؤوا صورة سابقة من كتابنا هذا وصف رؤية كوخ من القرن الخامس عشر يقف دون أن يمسه الماء بجوار سكك حديدية من القرن التاسع عشر، ومجموعة من منازل القرن العشرين أغرقتها فيضانات أكسفوردشاير عام 2000. فيقول: "ما مزيج الذاكرة والخبرة والتوقع والصدفة الذي دفع [باني الكوخ] إلى اتخاذ القرار السليم على الرغم من أن هذه الحسبة لم يهتد إليها لا بناة البونغالو ولا السكك الحديدية."[6]

يعود بنا هذا إلى إشكالية مثل إشكالية هايزنبيرغ، وهي ضرورة التضحية بقيم معينة -في هذه الحالة موقع بناء جاف دائمًا- من أجل تحقيق قيم أخرى، مثل رحلة سفر سريعة سلسة إلى لندن بالقطار، أو منازل معقولة السعر بها تدفئة مركزية. في كل يوم نجري مقايضات بين القديم والجديد، الخاص والعام، المميز والديمقراطي. ننتفع بالمنظومة الأساسية التي تفرضها الحداثة على حياتنا، مع استمرار دهشتنا وإعجابنا بالمنطق الهادئ القديم.

ما علاقة هذا كله بالمشهد التاريخي؟ الإجابة ببساطة كالتالي: احتمال وقوف المؤرخين، في علاقتهم بالماضي، موقفًا كموقف الولايات من الأرض والمجتمع.

فإن "رسم خارطة" الماضي يقتضي من المؤرخين وضع منظومة أساسية وتقليص الخصوصية والحرص على قابلية القراءة، كل ذلك هدفه جعل الماضي في متناول الحاضر والمستقبل ومثل حالة الحكومات، فإن الأثر الناتج مقيد ومحرر معًا، فإننا نقهر الماضي ونحن نحرره.

وهكذا يظهر مرة أخرى أن الوعي التاريخي ليس له وصف واحد، بل إنه ينطوي على توتر بين أضداد. وهذه الصفة تثير أسئلة عن جدوى دراسة التاريخ. وهذه هي الموضوعات التي أريد أن أستكشفها في هذا الفصل الأخير.

1

أبدأ بمسألة القهر، وبقاهر محدد، هذا القاهر هو أنا عندما كنت مؤرخًا شابًا للحرب الباردة، أكتب، وقت أن كان كثير ممن شاركوا فيها على قيد الحياة. كانوا في أغلب الأحوال فخورين بما فعلوا ومتشوقين أن يعرفوا كيف سينظر التاريخ إليهم. لكنهم في العموم وجدوا كتاباتي مخيبة للآمال. قليل منهم من رأى أنني فهمت الأزمات التي واجهوها فهمًا كاملًا، أو أنني أوليت اهتمامًا مناسبًا أو تصفيقًا كافيًا- لما توصلوا إليه من حلول. اضطررت مرارًا أن أشرح للواحد منهم تلو الآخر من رجال الدولة الكبار أنني أحترم رواياتهم، لكنني يجب أن أوازن بينها وبين روايات غيرهم ثم أقارن هذا كله بما يحويه الأرشيف. وكانوا يردون بأنهم يقرون بضرورة اتباع هذه الإجراءات، ومع ذلك، كانوا يجدون طريقة يطرحون بها سؤالًا، في حزن وتعالٍ معًا، وهو: "أنى لك أن تعرف حقيقة الأمر؟ فقد كنتُ في المشهد وقتها كنتَ أنت في الخامسة، على ما أعتقد، في ذلك الوقت."

يطارد المؤرخين كابوسٌ مهني نرى فيه من نكتب عنهم وقد عادوا، مثل شبح الملك هاملت، ليقولوا لنا رأيهم فيما كتبنا. لا أشك أننا من وجهة نظرهم ظلمة بل معذِّبون أو جلادون(7) وما يضيف الإهانة إلى الجرح أننا مهما بلغنا من العمر سنبدو

لهـم شـبابًا غرًا. ولا أجد مخرجًـا من هذه المشـكلة، فكما حاولت مـرارًا وتكرارًا أن أقول، التاريخ بالضرورة تمثيل لواقع، شـأنه شـأن رسـم الخرائط. فهو ليس الواقع نفسـه، وإن أردنـا الصـدق، فإنه تقريب بائـس للواقع، ومهما بلغت مهـارة المؤرخ، سيبدو غريبًا جدًا بالنسبة إلى أي شخص كان يعيشه فعلًا.

مع ذلك، فإنه بمرور الوقت تصير تمثيلاتنا واقعًا بمعنى أنها تتنافس مع ذكريات من عاشـوا الأحداث فعلًا وتزج بنفسـها فيها وفي النهاية تحـل محلها. تغطي المعرفة التاريخيـة على معرفة المشـاركين بها حـدث: أي إن المؤرخين يفرضون أنفسـهم على المـاضي فرضًا أثـره فعال -وخانق- كأثـر الحكومات على الأراضي التي تسـعى إلى السيطرة عليها. إننا نجعل الماضي قابلًا للقراءة، لكننا بذلك نضعه في سجن لا فرار منه ولا فدية ولا استئناف.

ولا شك أن المؤرخين يفعلون ذلك دون سوء نية، فليس في الأمر مؤامرة، فهكذا شـأن الجميـع مع الذاكرة. فكلنا مررنـا بتجربة ذوبان ما نتذكـره بالفعل عن الماضي في تمثيـل له، وهناك طرفة تروى كثيرًا -مع تعديلات- حتى صار لها كيان مسـتقل، وهي وجود صورة فوتوغرافية تصور لحظة واحدة، لكن بقاءها يجعلها كل ما نذكره عن شخص ما أو مكان أو زمن، أو فقرة في يومية توجز الماضي لمصلحة الذات حتى تصير هي الماضي.

ما حدث أننا جعلنا الماضي تحت السـيطرة عن طريق ذكريات مصنوعة، نفضلها كثيرًا على ذكريات خارج السيطرة مما يجعلها محرجة بل مفزعة. إنها آلية نفسية طبيعية فهمهـا جيـدًا أعظم من درس إدارة الذاكرة، سـيجموند فرويـد. ولا تختلف طريقة المـؤرخ في جعل التاريخ في المتناول عن الأسـلوب الذي يتبعه الفرد ليجعل التاريخ محتملًا: فإننا نكبت أشـياء كثـيرة، بوعي أو بغير وعي، كما نتعمد إبراز أشـياء كثيرة أخرى.



ونستون تشرشل في الاحتفال بعيد ميلاده الثمانين مع اللوحة التي لم تعجبه.
(© Hulton-Deutsch Collection / corbis).

جمع ونستون تشرشل بين صنع التاريخ وكتابته، مما جعله يفهم هذه النقطة جيدًا. فقد قال ذات مرة ساخرًا: «سيرفق التاريخ بي لأنني أسعى إلى كتابته». ولكن برغم آلاف الصفحات التي كتبها فعلًا، تلقى تشرشل في نهاية حياته المهنية تنبيهًا مؤلمًا أن الصورة التي ستمثله وتبقى بعده لن تسعده. فقد قال في غضب يوم إزاحة الستار عن اللوحة الرسمية التي رسمها غراهام سذرلاند، بتكليف من البرلمان، في عام 1954، إن الصورة «نموذج مميز للفن الحديث». لكن الرجل العظيم كره صورته تلك التي تصوره رجلًا مسنًا عبوسًا، وليس الشخص الشرس القوي الذي واجه هتلر وهزمه. لا شك أنه أراد أن يفعل ما فعلته كليمتاين تشرشل بالفعل بعدها بمدة قصيرة. أي أن يحرق اللوحة.[8]

أرتعد عندما أفكر في عدد الشخصيات التاريخية التي يمكن أن تفعل الشيء نفسه بالكتابات التاريخية عنهم -أو بالمؤرخين الذين كتبوها. اسأل نفسك عن عدد نماذج بيكاسو البشرية الذين رأوا أنفسهم في لوحاته، ثم ضع مؤرخًا مكان بيكاسو،

وضع الملك هنري الثامن، مثلًا، أو تيودور روزفلت أو نيكيتا خروشوف مكان النموذج البشري. عندها ستبدأ في إدراك المشكلة. لن يجدي حل تشرشل هنا؛ لأنه مهما أوتي الإنسان من سلطان في حياته، فلا بد لهذا السلطان أن يخضع لسلطان من يمثلون الحياة. فقد وصف خروشوف فن إرنست نيتشفستني بأنه «براز كلاب»، لكن ذلك الفنان هو من آل إليه تصميم مقبرة خروشوف.[9]

يقول ر. ج. كولينغوود: «ليس الواقع مجرد خبرة، بل خبرة فورية، لكن الفكر هو الذي يفصل ويميز ويتوسط، ومن ثم فبقدر ما نفكر في الواقع نشوهه بتدمير صفة الفورية، ولذلك فلا يمكن للفكر أن يحيط بالواقع أبدًا.»[10] بتعبير آخر، لا يحيط الفكر بالواقع إلا كما يحيط الفنانون بصورتهم والحكومات بمسطحات الأرض والمؤرخون بالتاريخ، إنهم جميعًا يدمرون الفورية ويقسمون ويميزون ويتوسطون، باختصار، يمثلون الواقع. إن إعادة بناء الماضي الحقيقي هو بناء ماضٍ في المتناول لكنه مشوه، فهو كبت للماضي وتقييد لتلقائيته وإنكار حريته.

2

هذا هو الجانب المظلم، ولكن لحسن الحظ ليس الجانب الوحيد. فإن المؤرخ الذي يكبت الماضي في الوقت نفسه يحرر الماضي، بالطريقة ذاتها التي تفرض الحكومات بها نفسها على مسطحات الأرض، ولكنها تتيح لأغلبنا الحياة المريحة فيها في أغلب الوقت. ولا يمكن أن يستبعد أحد الدولة وبنيتها التحتية كلها سوى فوضوي متطرف. وهذا حال كتابة التاريخ، إذا لم يكن لها نفع، فلماذا يهتم صناع التاريخ بهذا القدر بمن يكتبونه -سواء كانوا شيوخًا مخضرمين أم شبابًا بادئين- وما سيقولونه عنهم.

منذ أقدم الملاحم التي تواترت شفاهة حتى أحدث الحملات الرئاسية لتمويل المكتبات، ظل من يقومون بأعمال عظيمة يظنون أن سمعتهم ستظل باقية بعدهم.

وكانت العملية دائمًا تحتاج مخلدًا للذكرى، سـواء أكان شـاعرًا أعمى يلقي الأشـعار للنـاس المجتمعـين حول نـار معسـكر إغريقي، أم أحـدث كاتب سـيرة، وأكثرهم صـلاتٍ وأعلاهم أجرًا. مهما كانوا، فإنهم يحفظون الماضي بأن يجعلوه قابلًا للقراءة، وبالتـالي للاسـترجاع. والأمل حاضر دائـما بين صنـاع التاريـخ أن يعاملهم مدونو التاريـخ معاملة حسـنة. حتى هتلر نفسـه، كان متأكدًا وهو قابـع في غرفته المحصنة تحت الأرض أن التاريخ سينصفه.(11)

وكان الرجـل محقًا في ذلك، بمعنى واحـد على الأقل، وهو أن المؤرخين يحررون موضوعاتهم من احتمال النسـيان. يفهم أغلبنا أن البقايا المادية التي نتركها لن تكون مؤثرة. بعض العظام أو كومة رماد، أو في حالة شهيرة على نحو سيئ، رأس منكمش مثـل رأس أوليفـر كرومويل، الذي يقـال إنه أخذ يتنقل عبر كامبريـدج لعدة قرون قبـل أن يُودَع في هدوء، كما يقال، في حديقته في سـيدني ساسـيكس.(12) لكننا نرجو أشكالًا أكرم من أشكال إحياء الذكرى: كشاهد قبر أو لوحة تذكارية أو مبنى باسمه أو كرسي أسـتاذية، أو على الأقل لوحة في قاعـة الطعام في إحدى الكليات تنظر من علٍ إلى الطلاب الذين بلا شـك يهتمون بالطعام وببعضهم بعضًا أكثر من اهتمامهم بالشـخص المعلـق على الجدار. يـؤدي المؤرخون هذه المهمـة التذكارية لمن مات من العظماء، فإن كنا نحبسهم في تمثيل معين، فإننا على الأقل، نحررهم من النسيان.(13)

ينقـذ المؤرخون العـالم المحيط بقدر ما يضعون الشـخصيات التـي يكتبون عنها في سـياقها. حاولـت أن ألفت النظر في فصل سـابق إلى أن المؤرخـين يفوقون كتاب قصـص الخيال العلمي أنفسـهم في قدرتهم على اسـترداد عـوالم ضاعت، عن طريق التحكـم في الزمـان والمكان والمقياس.(14) نحن نصـور المجتمعات التي ربما خلفت وراءهـا آثـارًا، مثـل الحضارة الرومانيـة وكثير مـن الثقافات الزراعيـة. نحن نحرر الثقافـات التـي تملك آثارًا مما يدّعونه مـن عظمة، إذ نحـاول ألا نخلط بين الصورة التي أرادوا أن يراهم الناس عليها وصورتهم الفعلية. نحاول أن نحرر من لم يخلّفوا وراءهـم آثـارًا من الصمت والنسـيان الـذي فرضوه على أنفسـهم أو فرضه غيرهم

عليهم.[15] ففي الحالتين نبث الحياة، بمعنى بروستي،[*] فيما بقي من زمن آخر، ومن ثم نضمن له نوعًا من البقاء الدائم.

معنى ذلك أننا لا بد أن نحرر الناس والمجتمعات من طاغوت الأحكام الواردة من أزمان وأماكن أخرى. كتب كولينغوود ذات مرة، إذا شُق على إنسان عبور جبل لأنه يخشى وجود شياطين متخفية، «فمن الحماقة أن يحاول المؤرخ وعظه من وراء حاجز من قرون يفصلهما فيقول له (هذا محض خرافة، لا يوجد شياطين على الإطلاق، واجه الحقائق).»[16] ينبغي أن يحذر المؤرخون الخلط بين مرور الزمن وتراكم المعرفة بأن يفترضوا أننا الآن أذكى عقلًا مما كانوا عليه. ربما نملك معلومات أكثر أو تكنولوجيا أرقى أو وسائل اتصال أسهل. لكن هذا لا يعني بالضرورة أننا أمهر منهم في استخدام أوراق اللعب التي وقعت في أيدينا. فالمؤرخون الحاذقون يتعاملون مع الماضي بمنطق الماضي، بعدها يفرضون منطقهم. وهم يحذرون ما سماه ستيفن جاي غولد بأفدح الأخطاء التاريخية. وهو "الغطرسة بإصدار أحكام على أسلافنا على ضوء معرفة حديثة لم تكن قطعًا متوفرة لديهم".[17]

وهذا بدوره يعني تحرير كل ما هو عظيم، بل كل ما هو مبهم في التاريخ من الحتمية، أي من الاعتقاد بأن الأشياء كانت لا محالة واقعة على النحو الذي وقع. كان غولد يفهم التاريخ أفضل من أغلب المؤرخين، فكان يؤكد هذه النقطة: "جوهر التاريخ ... هو العرضية"، ويؤكد أن: "العرضية شيء مستقل بذاته، وليست استخدام معيار العشوائية لقياس الحتمية."[18] فالتاريخ لا يتحتم إلا عند حدوثه، فلا شيء حتمي إلا مرور الزمن. مع ذلك فهناك دائمًا اختيارات، مهما بدت غير واعدة في وقتها. ومسئوليتنا نحن المؤرخين أن نبين أن هناك دروبًا لم تسلك بالإضافة إلى تبيان الطرق التي سلكت، وهذا فيما أرى عمل تحريري.

(*) الإشارة هنا إلى الأديب الفرنسي مارسيل بروست (1871 – 1922) ومؤلفه الأشهر البحث عن الزمن الضائع.

أخيرًا، عندما تتواجه تأويلات المؤرخين للماضي، ففي هذا تحرير له بمعنى آخر، أي تحرير من احتمال وجود تفسير واحد صحيح لما حدث. من السهل أن تشعر أنك ضحية ظلم، والأسوأ أن تصدر كتابًا فيعامله زملاؤك المؤرخون في مراجعاتهم له معاملة القمامة. لكن ما يعزينا هو الاعتقاد بأن التحاور بين الرؤى البديلة بشأن الماضي يتيح للماضي مساحة تنفس. فنحن نبين أن معنى التاريخ لم يحسم بتمام حدوثه -أو كتابته. وهذا أيضًا عمل تحريري.

أرى شبحًا آخر يطارد المؤرخين وغيرهم إذا لم تتحقق هذه الأعمال التحريرية، وهو يتجلى في أرواحنا المطاردة المحبوسة في سجن مستقبلٍ لا يحترمنا فيه أحد أو حتى يتذكرنا. فهذا محبس يكافئ في ألمه ما يفرضه المؤرخونَ الأحياء على أشباح الماضي، ولهذا ينبغي أن نطرح احتمال أن هذه الأشباح، التي تخشى بديل النسيان، ترحب بالحبس في سجن التمثيل.

3

لكن أنساق القهر والتحرير في التاريخ لا تنبع مما يفعل المؤرخون بمن صنعوا التاريخ. فالماضي يلقي بثقله على الحاضر والمستقبل، حتى لا يكاد يوجد معنى لهذين العالمين الزمنيين دونه. وسواء اتخذت القيود التي يفرضها التاريخ على حياتنا مظهر اللغة التي بها نفكر ونتكلم، أو المؤسسات التي نعمل في إطارها، أو الثقافة التي نعيش فيها أو حتى الحيز الجغرافي الحقيقي الذي نتنقل فيه، فإن هذه القيود تتخلل حياتنا كما يتخلل الأكسجين أبداننا.

ويتضح هذا على نحو خاص في مكان مثل أكسفورد حيث غالبًا ما تعوق تراكمات الماضي الانتقال المباشر من حانة إلى أخرى، أو الكتاب إلى القارئ في النظام المكتبي، أو من مناهج عتيقة إلى مناهج متجددة. ذات مرة، سألت طالبًا يشتكي من مظاهر القصور هذه: "لماذا أتيت؟" فرد في الحال: "لأنه ساحر جذاب." وهو

بالفعل كذلك، وفيما أعتقد فإن أحد أسباب هذا هو أن عبء التاريخ يتكئ على هذا السحر ما وسعه الاتكاء. وكما تدفق المرور بشارع "هاي" وغيره عبر القرون، فإن أهل أكسفورد وماضيها تطورا معًا. لم تتم العملية دائمًا بانسجام تام، لكن الأمور لم تصل قط إلى الحد الذي شعر الناس فيه بضرورة اجتثاث الماضي تمامًا. وبهذا نجوا من عاقبةٍ تصيب من حاولوا ذلك، وهي أن الماضي ساعتها ينقلب عليهم ويجتثهم اجتثاثًا.

وأقصد باجتثاث الماضي ما يحدث عندما يسعى شخص إلى تهميش أو استبعاد شيءٍ لا يحبه في الحاضر عن طريق إعادة كتابة التاريخ بطريقة تحقق هذه الغاية. قد يتخذ هذا شكل التزوير -مثل كتاب بروتوكولات حكماء صهيون، تلك الوثيقة المزورة التي أدت إلى مآسٍ حقيقية كثيرة لليهود في القرنين التاسع عشر والعشرين. وقد ينتج عن تخيل مجتمع، وهذه العملية هي أساس أغلب الفكر القومي الذي يعني إقصاء من ليسوا جزءًا من هذا المجتمع أو اضطهادهم.[19] وقد يتضمن اكتشاف اتجاه يتخذه التاريخ، كما فعل ماركس، فقدم إلى لينين وأتباعه مبررًا لقمع كل الطبقات غير البروليتاريا [العمال]. وقد يظهر في صورة تمييز على أساس النوع أو الجنس أو العرق أو الميول الجنسية أو الإعاقة أو مجرد المظهر، وهي جميعًا أشياء تقتضي صناعة وعي تاريخي يقول إن بعض الناس أسمى من بعض. بل يمكن أن يتخذ شكل التفكيك الذي يمارسه بعض أتباع ما بعد الحداثة، ممن يخلطون حقيقة لا نزاع عليها، وهي وجود أشكال اجتماعية مصنوعة، وطرح خلافي وهو أن خلاصاتهم ليست من بين هذه الأبنية الاجتماعية المصنوعة.

يجنَّد التاريخ في كل حالة من هذه الحالات في أحد أعمال الظلم، أي يعاد بناء التاريخ -بمعنى جعله قابلًا للقراءة بطريقة محددة- بهدف تقييد حرية شخص آخر في المستقبل. وقد شارك المؤرخون كثيرًا في هذه العملية، لكنها ليست مقصورة عليهم. إن البحث عن ماضٍ نحاول به السيطرة على المستقبل شيء أصيل في الطبيعة الإنسانية، وهو المقصود عندما نقول إننا نتعلم من الخبرة. ويظهر الجانب المخيف في هذه العملية عندما تستهدف ضحايا، عندما تخلق مبررات للتهميش فتؤدي إلى

تمييز، والخطوة المنطقية التالية هي الاستبداد. بل إنني سأتجرأ وأعرّف هذا المصطلح بأنـه مـا يظهر عندما يُنتج ماضٍ أعيـد بناؤه اعتقادًا في ذهن زعيـم ما في الحاضر بأن المستقبل يحتاج شعبًا أعيد تكوينه.

العنوان الفرعي لكتاب جيم سـكوت هو **كيف فشـلت مخططات معينة لتحسين الحالة الإنسـانية**، وهو يبدأ كتابه بقضية الغابات وهي بداية يظهر فيها حسـن النية. فيعـرض كيف بـدأ تطبيق طـرق الزراعـة "العلميـة" في أواخر القـرن الثامن عشر في أوروبـا، بالاقتصـار على زراعـة أنواع بعينها من الأشـجار في خطوط مسـتقيمة وإزالـة الشـجيرات النامية تحتها ثـم الحصاد، أي قطع الأشـجار المفترض أن تكون بحجم ووزن وشـكل واحد لاستخدامها كأخشـاب. وجرى الأمر على هذا النحو لمـدة، ولكن بعد عـدة عقود بدأ يتدهور إنتـاج هذه الغابات. كان السـبب طبعًا هو تدمـير نظامها البيئـي، فالنحل والطيور والحشرات التي كانـت تنقل حبوب اللقاح لم تعـد تجـد مكانًا يكفي لعمل أعشاشـها، وذهـب التنوع النباتي الـذي كان يحد من ضرر الأمـراض والأوبئة، وصارت آثـار العواصف والحرائق أشـد تدميرًا من ذي قبل. فقد اقتربت مسـاعي جعل الغابة قابلة للقراءة، ومن ثم قابلة للتحكم من حد اجتثاثها.[20]

يسـتخدم سـكوت هذا المثال كأمثولة لما يسـميه "الحداثة العاليـة"، التي يعرّفها بأنها "صورة قوية، بل جامدة للثقة بالنفس بشـأن ... توسع الإنتاج وتصاعد إشباع الحاجـات البشرية والسـيطرة على الطبيعة (بـما فيها الطبيعة الإنسـانية) وفوق ذلك كلـه، التصميم العقلاني للنظام الاجتماعي [بحيث يكون] متناغمًا مع الفهم العلمي لقوانـين الطبيعـة."[21] باختصـار، يمنـح المرء وزنًا للمبـادئ العامة أكـبر مما يعطيه للظـروف الخاصة، كما يسـعى إلى قابلية القـراءة ويهمل المسـاءلة، ويفضل الخطوط المستقيمة المتقاطعة بزاوية قائمة على تعرجات المشهد الطبيعي وأشكاله غير المتماثلة.

تكشـف الحداثة العالية عن نفسـها في عـمارة المباني التي ليـس لواجهاتها ملامح والتـي تطمـس ملامـح سـكانها، أو في التخطيـط الحـضري الذي يفـرز أماكن غير

مريحة للناس مثل برازيليا أو شـاندي‌غار(*)، أو في مخططات النقل التي تسـمح لطرق السـيارات التي تربط المـدن بأن تطمس أحياء ومدنًا صغـيرة، أو في مخططات النقل الإجبـاري للسـكان كما حدث في تنزانيا وأثيوبيا في سـبعينيات القـرن العشرين، أو في أعـمال إعادة تنظيم ضخمة للمسـطحات الأرضية كالتي قامت بها سـلطة وادي تينيسي طبقًا لمبادرة "الصفقة الجديدة"، أو خروشـوف في مشروع "الأراضي البكر"، أو مـشروع الصـين الغريـب لإغـراق المضايق العظمى لإنشـاء سـد نهـر يانغتسي. والـشيء الأشـد تدمـيرًا في الحداثة العاليـة هو محاولة إعادة تشـكيل شـعب بأكمله المتمثلـة في إنشـاء هتلر الرايـخ الثالث(**) الآري الخـاص، مثلًا، أو محاولة سـتالين تحويل الفلاحين الروس إلى عمال صناعيين قسرًا، أو أفظع ما وقع في القرن العشرين من حيث ما تسـبب فيه من وفيات وصلت إلى ثلاثين مليون شـخص جراء «القفزة الكبرى إلى الأمام» التي دعا إليها ماو تسي تونغ.[22]

مـن الواضح أن جمع هذه الأمثلة معًـا ينطوي على مبالغة. فإن التكاليف البشرية للفظائع المعمارية لا تقارن بالثمن الذي كبدته لنا فظائع الاستبداد أو تداني ما أحدثته مـن آلام في عصرنـا. لكن علينا أن نتذكر كيف أثير في هذا الكتاب موضوع التشـابه الـذاتي عبر المقياس. ولا يسـتخدم سـكوت هذا المصطلح، لكنـي أعتقد أنه في ذهنه عندمـا يـبرز الصفة المميزة للحداثة العالية، أي عدم الاكتفاء بمحاولة جعل مشـهد ما وشـعبه قابلًا للقراءة، بل جعل مسـتقبلهم قابلًا للقراءة. وهذا نسـق حاضر دائمًا على الرغم من وجود اختلافات واسـعة في المقياس، والشيء الأكثر لفتًا للانتباه هو أن أفعال القهر هذه دائمًا ما يبررها أفعال تحررية. فالعبودية، كما عند جورج أورويل يفترض فعلًا أنها تنتج الحرية.

(*) عاصمة الولايات الشمالية لإقليم البنجاب الهندي.

(**) الرايخ الثالث هي الحقبة التي حكم فيها ألمانيا حزب العمال الاشتراكي القومي الألماني بقيادة أدولف هتلر في الفترة من (1933-1945).

4

لكنها طبعًا لا تفعل. فإذا كان للتاريخ هذا الثقل الكبير على الحاضر والمستقبل، فالمؤكد أن جزءًا من مهمة المؤرخ هو أن يحاول رفع ذلك العبء، أي يبين أن أغلب أشكال الظلم مصنوعة لذا يمكن تفكيكها، ويدلل على أن ما هو قائم لم يكن دائمًا قائمًا في الماضي، وعليه فلا ضرورة لوجوده في المستقبل. بهذا المعنى لا بد أن يكون المؤرخ ناقدًا اجتماعيًا، فبهذا النقد يحرر الماضي الحاضر والمستقبل حتى وهو يقهرهما- وللمفارقة، فإن هذا ما يفعله المؤرخ بالماضي نفسه.

ولكي نرى ما أقصده بتحرير الماضي للحاضر، أبدأ بموقف يتكرر كثيرًا: شاب يكبر وداخله إحساس بأنه "مختلف" بشكل ما، ولا يهم هذا الشكل، ربما كان مكانة عنصرية أو عرقية أو ميولاً جنسية أو مكانة اقتصادية أو اجتماعية -قل ما شئت. سيكون الشعور الذي يتملكه دائمًا شعور العزلة، أنه وحده وسط الجمع، لكنه ليس واحدًا "منهم". وبالأطفال قسوة تجاه بعضهم بعضًا -ولن نقول شيئًا عما يمكن أن يفعله الكبار بالصغار- وهذا لا يخفف شعور الوحدة بأي حال.

ثم تخيل شعور الارتياح الذي يأتيك عندما تعلم أنك في الواقع لست وحدك في هذا، وأن آخرين عبر الزمان والمكان مروا بما تمر به، وأن المعايير نفسها التي تجعله "مختلفًا"، ربما لم تكن موجودة دائمًا. فكر في الأثر الذي يحدث عندما يقرأ شاب لكاتب مثل فوكو أو جون بوزويل وهو مقتنع تمامًا -كما هو حال كثيرين مثله- أنه هو الذي اخترع المثلية الجنسية. ننتقل الآن إلى دائرة تركيز أوسع: الاستجابة التي حظيت بها كتابات و. إ. ب. دوبوا عن العبودية وإعادة البناء داخل حركة الحقوق المدنية عندما جرى إحياؤها، أو عندما أثبت سي. فان وودوارد أن الفصل العنصري لم يكن موجودًا دائمًا في الجنوب. ولنوسع رقعة الرؤية أكثر لتشمل حركة التاريخ النسائية وهي تتطور في سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته: فالهدف هنا

ليس أقل من تحرير النساء جميعًا بإثبات أن مصادر قهرهن محدودة الزمن وليست مطلقة الزمن.

معرفة الماضي في كل حالة من هذه الحالات تحرر من ملك هذه المعرفة من ألوان القهر التي فرضتها عليه اختلاقات تمت في الماضي البعيد. يقول جويس أبلبي ولين هنت ومارجريت جاكوب: "ليس هناك أكذب من القول المبتذل إن ما لا تعرف لا يضرك. فالعكس تمامًا يبدو هو الصحيح."[23]

بالطبع ينطوي هذا اللون من الكتابة التاريخية على مخاطرات، فالحماس الذي تعرض به قضيتك، يمكن أحيانًا أن يغلب الصبر المطلوب لإثباتها، وربما تحقق إجماعٌ على تفاصيل محددة أو لم يتحقق. فقد انتُقد كل من ذكرت من المؤرخين لضلوعهم في عملية "دعوة"، أي إنهم سمحوا للقضية بأن تؤثر في استنتاجاتهم. وقد راجع بعضهم هذه الاستنتاجات، وأحيانًا فعل مؤرخون آخرون هذا بدلًا عنهم. أما الرسالة الأساسية -وهي أن مصادر القهر تسكن في الزمان وليست مستقلة عنه- فقدت صمدت أمام الفحص العلمي مما يقوي آثارها التحريرية.

وعليه فإن الماضي يمكن أن يحررنا كما يقيدنا. لكن التناغم يغيب هنا، فبينما تعاون المؤرخون كثيرًا لفرض هذه القيود، فما كانوا ليستطيعوا تحقيق ذلك من دون مساعدة أقوى كثيرًا من الدولة تحديدًا والمجتمع عامة. وبذلك يكون المؤرخون ممثلين ثانويين نسبيًا في هذه العملية القهرية. أما في تحرير الماضي للحاضر، فإن دور المؤرخين أبعد ما يكون عن الثانوية: فهو في هذه الأيام طليعة الحركة، ولدينا دعوة مشكورة -وهي زيادة قبول فكرة أن المؤرخ ينبغي أن يصدر أحكامًا أخلاقية. وهذا كله خير، فيما أرى؛ لأنه إذا كان هناك تحيز مقبول في كتابة التاريخ وتدريسه، فليكن إلى ناحية التحرير.

5

وأخيرًا نصل إلى نقطة بداية لفهم الغرض الحقيقي من دراسة التاريخ. رجعت في أول الكتاب إلى جيفري إلتون وقلت إن الوعي التاريخي يساعد على إرساء الهوية الإنسانية، وإن هذا جزء من العملية التي نسميها النمو. لكنني أجلت إلى الآن مناقشة هذا الطرح؛ لأنه بدا لي ضروريًا أن نحدد كيف يفكر المؤرخون أولًا، حتى نفيد من الحديث عن غرض هذا الفكر. وإنني أود أن أقول الآن إن هذا الغرض هو "**تحقيق التوازن الأقصى، داخل أنفسنا أولًا ثم داخل المجتمع، بين قطبي القهر والتحرير**".

ولنعد إلى الوليد الذي تحدثت عنه في الفصل الأول. فهو من منظور ما، مقهور تمامًا، نتيجة خروجه إلى العالم معتمدًا عليه اعتمادًا كاملًا. لكنه متحرر تحررًا تامًا، بمعنى أنه ليس لديه أفكار مسبقة ولا مكبوتات، ولا اهتمام بأحد إلا نفسه. وهكذا فإننا نبدأ حياتنا بهذين الطرفين، وبالتدريج، نضيق الفجوة بينهما. ومع نمونا البدني، تزداد قدرتنا على رعاية أنفسنا، حتى نصير أكثر استقلالية. وفي هذه الأثناء، ندخل كل يوم في شبكة من الخبرات والدروس والواجبات والمسؤوليات، حتى إذا صرنا راشدين، يكون أغلبنا قد تعلم على الأقل الموازنة بين هذه التوترات أو حسمها.

فكيف يكون الحال إذا وصلنا إلى سن الرشد دون تحقيق ذلك التوازن؟ عند طرف القهر من هذا الطيف يمكن أن نشبه شخصية زيليغ التي قدمها وودي آلان في أحد أفلامه، وهو شخصية طيعة جدًا، تواقة لإرضاء الآخرين، قابلة للقراءة إلى درجة أنه يبدأ في انتحال هويات الشخصيات الأقوى من حوله، بل مظهرهم الخارجي.[24] وفي طرف التحرر قد نجد الشخصية المصابة بالنسيان الحاد التي يصفها الدكتور أوليفر ساكس في إحدى مقالاته الطبية العلاجية، ولا تستمر ذاكرته لأكثر من دقيقتين. فهو متحرر من كل القيود، لكن البنية التي يعيش فيها تبدو غير مألوفة على الدوام، ومن ثم مفزعة على الدوام. يقول ساكس: "ما لون الحياة (إن

كان ثمة حياة)، أي عالم، أي ذات يمكن أن تستمر في إنسان فقد الجزء الأعظم من ذاكرته، وضاع معها ماضيه ونقاط حياته الرئيسة."[25]

المفارقة هنا أن القهر التام والتحرر التام -إذا أخذنا هذه الأمثلة رموزًا لها- كلاهما يعودان بنا إلى شيء يشبه العبودية. فالحرية تأتي من التوتر بين هذين الضدين. ولهذا فالشخصية الصحيحة مثل غابة جيم سكوت الصحيحة بها الكثير من الأشجار الكبيرة المنتجة والجاهزة للحصاد، مع ذلك فهناك أيضًا الكثير من الشجيرات الصغيرة تحتها وحولها يسكنها النمل والنحل والطيور وكذا الطفيليات. وهناك توازن بين المعرفة العامة والخبرة الخاصة، بين الاعتماد على الآخرين والاستقلالية، بين قابلية القراءة والخصوصية. ولا توجد مساحة هنا للإيمان بالمتغيرات المستقلة، أو بتفوق الاختزالية بوصفها نمطًا في البحث. بل إن كل شيء يعتمد على غيره: فالشخصية تصير البيئة. وهذا ما نعنيه بصفة التكامل. وهذا هو المطلوب ليحفظ علينا عقولنا.

ليس في هذه العملية شيء ذاتي الحركة؛ لأننا جميعًا حظينا بوالدين ومعلمين ساعدونا طيلة الطريق، والمؤكد أنني لست بحاجة لتأكيد القدر الذي وصل إليه هؤلاء المرشدون في الجمع بين القهر والتحرير وهم يعلموننا. فقد رسموا شبكة الخطوط التي نصير داخلها أحرارًا في توجيه حياتنا، وهم يحتاجون إحساسًا بالماضي ليتمكنوا من فعل هذا، ولا يقتضي هذا التوغل في الماضي. إن كثيرًا من الناس الذين لا يعرفون إلا القليل عن التاريخ حققوا نجاحًا في إعداد أولادهم لمرحلة الرشد. وهناك كثير من الأميين تاريخيًا كانوا عالمين علمًا واسعًا بجوانب أخرى من الحياة.

لكن ماذا عن المجتمع ودور الفرد داخله؟ إذا كان التوازن بين القهر والتحرير يصنع هوية الفرد، فهذا نفسه ينطبق على أي نظام اجتماعي. وهنا لا يمكن الاستغناء عن التاريخ بوصفه مجالًا علميًا؛ لأنه الأداة التي ترى بها أي ثقافة فيما وراء حواسها. فهو أساس رؤية أوسع عبر الزمان والمكان والمقياس. لذلك يمكن اعتبار الوعي

التاريخي الجمعي شرطًا لمجتمع صحي متكامل بقدر ما نعدّ التوازن البيئي السليم لازمًا لغابة صحيحة وكوكب صحيح.

ولا يسعنا أن نعد هذا أمرًا مفروغًا منه؛ لأن حالات التوازن بين القهر والتحرر صارت أكثر وأعظم أثرًا في القرن العشرين عن ذي قبل. لذلك فإن استرداد هذا التوازن والحفاظ عليه مهارة ينبغي تعلمها ولا يفترض وجودها سلفًا. والتعلم من الخبرة هنا يعني إدراك ضرورة نبذ التعلم العرضي أو العشوائي. يرجع بنا هذا إلى أهم ما يجب على المؤرخين فعله سواء في الفصل الدراسي أم فيما يكتبون من رسائل علمية، أم في حديثهم التليفزيوني، وهو التدريس.

والمرجو من ثمرة هذا التدريس حاضر ومستقبل يستند إليه الماضي برشاقة، كما هو الحال في مدينة أكسفورد وأقصد بهذا مجتمعًا مهيئًا لاحترام الماضي مع وضعه موضع المساءلة، مجتمعًا أبعد عن فكرة الاجتثاث وأقرب إلى خلق التوافق مع الماضي، مجتمعًا يقدم الحس الأخلاقي على التبلد الأخلاقي. وربما لا يكون الحس التاريخي السبيل الوحيد لبناء هذا المجتمع، لكن كما في عالم الكيانات غير المتفكرة في ذاتها، حيث أثبت المنهج العلمي أنه أقدر من غيره من أنماط البحث على اجتذاب أوسع إجماع ممكن، فإن المنهج التاريخي يمكن أن يحتل مكانة متميزة مشابهة عندما يتعلق الأمر بالشئون الإنسانية.

6

أود الآن أن أختتم بأن أرد آخر استعارة لي إلى أول استعارة، أي أن أعود إلى طوّاف كاسبر ديفيد فريدريش وفيولا غوينيث بالترو، حيث يواجهنا ظهر كل منهما على نحو مثير للفضول. ولقد دفعتكم طيلة الوقت إلى الاعتقاد بأننا في نقطة الحاضر نتأملهما وهما يتأملان الماضي -أو كما سميته المشهد التاريخي. لكن ماذا لو كان فهمنا

هذا خطأ وأنهما في الواقع يواجهان المستقبل؟ والضباب والهوة السحيقة، يمكن أن توجد في الاتجاهين فما أساس الإيمان بهذا الطرح؟

يتعلق الأمر بالتدريس، وهو في أصله نشاط يولي وجهه شطر المستقبل. ويمكن أن أعرفه بأنه في آن واحد قهر وتحرير للصغار من جانب الكبار وللكبار من جانب الصغار. فإذا بدا هذا مربكًا -أي يجعلك في حيرة لا تعرف من يواجه وفي أي اتجاه، أم هو في حالة التفات- فهذا مقصودي؛ لأن هذه الالتباسات في أصل المهنة.

من المؤكد أننا نحن المعلمين نقهر تلاميذنا عندما نفرض عليهم حضور الدروس، أو نجعلهم يكتبون مسودات عديدة لأوراقهم البحثية، أو نحاول أن نجعلهم يرون أن تقدير جيد جدًا -وهذه مشكلة صعبة في جامعة ييل على وجه التحديد- لن يدمر حياتهم بل يمكن أن يدفعهم إلى تحقيق إنجازات أكبر. لكننا في الوقت نفسه نحرر تلاميذنا بكشف الخطوط الرئيسة لهم وتزويدهم بوسائل قابلية القراءة، وتوصيلهم إلى شاطئ قارة مجهولة في العقل عليهم استكشافها، وهذا ما ينبغي أن نصل بهم إليه.

وما لا يقل عن هذا أهمية أن طلابنا يقهروننا ويحرروننا في آن واحد. فمن المحبط أن تقرأ نثر طلاب يصرون إلى حد الارتياب على وجود مؤامرة -على استخدام المبني للمجهول أو يفضلون فصل المصدر المؤول عن حرف "أن" أو يكتبون ما أسميه فقرة "مكنسة الشفط".(*) فمن الخبرات المخيفة انتظار الطلاب على أمل ألا يحضروا في الساعات المكتبية، أو أن يطلب منك كتابة خطابات توصية عاجلة لهم أو الرد على رسائلهم الإلكترونية في جوف الليل.

لكن إحساس القهر هذا يتبدد سريعًا عندما نقارنه بمدى تحرير الطلاب لنا. فهم يحرروننا، أولًا، على الأقل من ضربات الشيخوخة، فإن التدريس لطلاب شباب دائمًا طريقة ليست سيئة لأن تبقى أنت شابًا. يحررنا الطلاب، إذا كانوا متميزين وكنا معلمين متميزين، من تعظيم أنفسنا، فإن التدريس دون أن يرد عليك أحد ليس تدريسًا على الإطلاق، فيما أرى. وهم يمدوننا بالمعلومات بل يعلموننا، فإن أكثر

(*) شديدة العمومية فضفاضة الأفكار.

لحظات التدريس إشباعًا ورضا بالنسبة لي على الأقل تأتي عندما تدرك أن تلميذك يعرف الآن أكثر مما تعرف عن موضوع ما. وبالطبع فإن تلاميذنا في النهاية، يحررونا من الانزواء في عالم النسيان، فربما كانت لديهم رغبة مدفونة في اللعب برأس الأستاذ س، مثل، رأس كرومويل، لكنهم لن ينسوا الأستاذ س سريعًا.

هل ينظر الشخصان الرمزيان اللذان تحدثت عنهما إلى الأمام أم إلى الخلف؟ هل ما ينظران إليه هو مشهد الماضي أم المستقبل؟ سأتفادى الإجابة المباشرة وأقول: كلاهما -ولا حاجة لنا بحسم الأمر- لأننا إن استطعنا أن نعيش بهذا التوتر بين القهر والتحرير في حياتنا اليومية، فالمؤكد أننا نستطيع أن نعيش احتمال أن الظهرين اللذين نراهما يخفيان وجهًا يقابل إما ماضيًا أو مستقبلًا، ومهما كانت الجهة التي يتوجهان إليها، أو نتوجه، فإن الحكمة والرشد وحب الحياة وحياة الحب يمكن أن توجد بها.

الهوامش

تصدير

1. *We Now Know: Rethinking Cold War History* (New York: Oxford University Press, 1997).
2. Miguel de Cervantes, *Don Quixote de la Mancha*, trans. Charles Jarvis(New York: Oxford University Press, 1992), p. 23.
3. لاحظ هذا اثنان ـــ ولا عجب نظرًا لسعة مجال اهتماماتهما، وهما وليم هـ. ماكنيل:

William H. McNeill, "Mythistory, or Truth, Myth, History, and Historians," *American Historical Review* 91 (February 1986), 1–10, "History and the Scientific World View," *History and Theory* 37 (February 1998), 1–13, and "Passing Strange: The Convergence of Evolutionary Science with Scientific History," *ibid.* 40 (February 2001), 1–15;

ونيال فيرغسون:

Niall Ferguson, "Virtual History: Towards a 'Chaotic' Theory of the Past," in *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals*, ed. Ferguson (New York: Basic Books, 1999), pp. 71–79. See also *History and Theory* 38(December 1999), a special issue on the convergence of evolutionary science and history.

4. See, for example, Marc Bloch, *The Historian's Craft*, trans. Peter Putnam (Manchester: Manchester University Press, 1992, first published in 1953), pp. 8, 59; and E. H. Carr, *What Is History?* 2d ed. (New York: Penguin, 1987, first published in 1961), pp. 19–20.
5. ربما يكون الأقرب إلى هذا:

Richard J. Evans, *In Defence of History* (London: Granta, 1997).

أما إيفانز فيتجاهل الصلة بالعلوم الفيزيائية (الطبيعية) وعلوم الأحياء التي أنشأها بلوخ وكار.

الفصل الأول: المشهد التاريخي

1. Paul Johnson, *The Birth of the Modern: World Society*, 1815–1830 (New York: HarperCollins, 1991). For his discussion of the painting, see p. 998.
2. John Ziman, *Reliable Knowledge: An Exploration of the Grounds for Belief in Science* (New York: Cambridge University Press, 1978), p. 21. See also the economist Brian Arthur's short history of modern science as metaphor, quoted in M. Mitchell Waldrop, *Complexity: The Emerging Science at the Edge of Order and Chaos* (New York: Simon

& Schuster, 1992), pp. 327–30; as well as Stephan Berry, "On the Problem of Laws in Nature and History: A Comparison," *History and Theory* 38 (December1999), pp. 122, 132.

3. Edward O. Wilson, *Consilience: The Unity of Knowledge* (New York: Knopf, 1998), p. 26. R. G. Collingwood, *The Idea of History* (New York: Oxford University Press, 1956), pp. 95–96,

وهو يقدم دفاعًا تفصيليًا عميقًا عن استخدام الاستعارة، قائمًا على فلسفة كانط.

4. لاستعارة فنية مشابهة، انظر:

Walter Benjamin, *Illuminations*, trans. Harry Zohn (New York: Schocken Books, 1968), p. 257.

5. Connie Willis, *Doomsday Book* (New York: Bantam, 1992); Michael Crichton, *Timelines* (New York: Knopf, 1999).
6. Marc Bloch, *The Historian's Craft*, trans. Peter Putnam (Manchester: Manchester University Press, 1992, first published in 1953), p. 42.
7. Gertrude Stein, *Picasso* (Boston: Beacon Press, 1959), p. 50. See also Gertrude Stein, *Everybody's Autobiography* (Cambridge, Mass.: Exact Change, 1993), pp. 197–98; and, for a similar point about the writings of Garrett Mattingly, R. J. Evans, *In Defence of History* (London: Granta, 1997), pp. 143–44.
8. J. K. Rowling's description of the latter institution in *Harry Potter and the Philosopher's Stone* (London: Bloomsbury, 1997; *Harry Potter and the Sorceror's Stone* [New York: Scholastic, 1998] in the United States) will resonate with students at the first two.
9. G. R. Elton, "Putting the Past Before Us," in *The Vital Past: Writings on the Uses of History*, ed. Stephen Vaughan (Athens: University of Georgia Press, 1985), p. 42. See also Elton, *The Practice of History* (New York: Crowell, 1967), pp. 145–46; and *Return to Essentials: Some Reflections on the Present State of Historical Study* (Cambridge: Cambridge University Press, 1991), pp. 43–45, 73.
10. Mark Twain, "Was the World Made for Man?" quoted in Stephen Jay Gould, *Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History* (New York: Norton, 1989), p. 45.
11. See Stephen Jay Gould, *Time's Arrow, Time's Cycle: Myth and Metaphor in the Discovery of Geologic Time* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1987).
12. Niccolo Machiavelli, *The Prince*, trans. Harvey C. Mansfield, 2d ed. (Chicago: University of Chicago Press, 1998), p. 4. Collingwood, *The Idea of History*, pp. 59–60, cites Descartes and Kant on the necessity of displacement for historians.
13. Machiavelli, *The Prince*, pp. 3–4, 22.
14. E. H. Carr, *What Is History?* 2d ed. (New York: Penguin, 1987, first published in 1961), p. 114. See also Collingwood, *The Idea of History*, pp. 333–34. For three recent elaborations on this argument, see Jared Diamond, *Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies* (New York: Norton, 1999); Robert Wright, *Non-Zero: The Logic of Human Destiny* (New York: Pantheon, 2000); and, from a methodological point of view, Martin Stuart-Fox, "Evolutionary Theory of History," *History and Theory* 38 (December 1999), 33–51.
15. Jonathan Haslam, *The Vices of Integrity: E. H. Carr*, 1892–1982 (New York: Verso, 1999). See also Michael Cox, ed., *E. H. Carr: A Critical Appraisal* (New York: Palgrave, 2000), especially pp. 9–10, 91.
16. For a comparable view of the importance of "consensibility" in science, see Ziman, *Reliable Knowledge*, p. 3.
17. The point is made in Evans, *In Defence of History*, pp. 103–5; Ferguson, "Virtual History," pp. 65–66; and Joyce Appleby, Lynn Hunt, and Margaret Jacob, *Telling the Truth about*

History (New York: Norton, 1994), pp. 216–17. See also Bloch, *The Historian's Craft*, pp. 120–22, and Carr, *What Is History?* pp. 73, 82.

18. Machiavelli, *The Prince*, pp. 40–41.
19. *Ibid.*, pp. 98, 103.
20. Thucydides, *The Peloponnesian War*, trans. Richard Crawley (New York: Random House, 1982), pp. 164–65, 240, 472.
21. *Ibid.*, pp. 13, 180–81, 351.
22. See, on this point, Stephen Kern, *The Culture of Time and Space*, 1880–1918 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983), especially pp. 21–24, 87, 119.
23. Collingwood, *The Idea of History*, p. 246. Tracy Chevalier's novel *Girl with a Pearl Earring* (New York: Dutton, 1999)

إذ يطرح النقطة طرحًا رشيقًا فيما يخص يوهان فيرمير.

24. يقدم مايكل فراين شرحًا أوضح ما يكون لغير المتخصص في الملحوظة التي تلي مسرحيته:
Michael Frayn *Copenhagen* (London: Methuen, 1998), p. 98. See also, within the text of the play, pp. 24 and 67–68, as well as Collingwood, *The Idea of History*, p. 141; and for the problem as it relates to the "new" social history, Appleby, Hunt, and Jacob, *Telling the Truth about History*, pp. 158, 223.
25. Harold Bloom, *Shakespeare: The Invention of the Human* (New York: Penguin Putnam, 1998).

الفصل الثاني: الزمان والمكان

1. "To his coy Mistress," in *Andrew Marvell*, ed. Frank Kermode and Keith Walker (New York: Oxford University Press, 1994), pp. 22–23.
2. نقطة طرحت بقوة في:
R. J. Evans, *In Defence of History* (London: Granta, 1997), chs. 3 and 4. See also R. G. Collingwood, *The Idea of History* (New York: Oxford University Press, 1956), pp. 192, 246.
3. كان والد وولف هو السير لسلي ستيفن/ محرر المعجم القومي للأعلام (Dictionary of National Biography) ونجد وصفًا جيدًا لاتجاهاتها المعقدة نحوه في كتاب
Hermione Lee, *Virginia Woolf* (London: Chatto & Windus, 1996), pp. 68–74.
4. Virginia Woolf, *Orlando: A Biography* (New York: Harcourt, Brace, 1928), pp. 18, 64, 98, 266–67.
5. Hayden White, *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth- Century Europe* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1973), p. 5. See also Collingwood, *The Idea of History*, p. 203.
6. "ما نسميه تاريخ هو الفوضى التي نسميها الحياة خاضعة لقدر من النظام والنّسق وربما الهدف."
G. R. Elton, *The Practice of History* (New York: Crowell, 1967), p. 96.
7. للاطلاع على اتجاه ماكولي الحافظ، انظر مقدمة هيو تريفور- روبر لطبعته المختصرة لكتاب
Hugh Trevor-Roper's introduction to his abridged edition of *The History of England* (New York: Penguin, 1968), pp. 7–13. For Adams, Paul C. Nagel, *Descent from Glory: Four Generations of the John Adams Family* (New York: Oxford University Press, 1983).
8. Jan van Eyck's lost *mappa mundi* apparently did something similar. See Anita Albus, *The Art of Arts: Rediscovering Painting*, trans. Michael Robertson (Berkeley: University of California Press, 2000), pp. 3–7.

9. Thomas Babington Macaulay, *The History of England from the Accession of James II* (New York: Harper & Brothers, 1849), I, 262, 298.
10. Henry Adams, *History of the United States of America during the Administration of Thomas Jefferson* (New York: Library of America, 1986), pp. 7, 11–12.
11. للمزيد عن مخاطر السفر عبر الزمن، انظر:
David Lowenthal, *The Past Is a Foreign Country* (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), pp. 28–34
12. Fernand Braudel, *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, trans. Sian Reynolds (New York: Harper & Row, 1973).
13. Carlo Ginzburg, *The Cheese and the Worms: The Cosmos of a Sixteenth- Century Miller* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1992); Jonathan D. Spence, *The Question of Hu* (New York: Vintage, 1989); Laurel Thatcher Ulrich, *A Midwife's Tale: The Life of Martha Ballard, Based on Her Diary,* 1785–1812 (New York: Vintage, 1991).
14. E. H. Carr, *What Is History?* 2d ed. (New York: Penguin, 1987), p. 11.
15. Robert Darnton, *The Great Cat Massacre, and Other Episodes in French Cultural History* (New York: Basic Books, 1984). This is no idle speculation, for Darnton has pioneered electronic publishing in the field of history. See David D. Kirkpatrick, "The French Revolution Will Be Webcast," *Lingua Franca* 10 (July–August 2000), 15–16.
16. David Macaulay, *Motel of the Mysteries* (New York: Houghton Mifflin, 1979), makes this point with great wit and imagination, as does Peter Ackroyd, *The Plato Papers: A Prophesy* (New York: Random House, 1999). So too did an exhibit by Katie Maverick McNeal, "Natural History," at the University Museum in Oxford in September 2000.
17. John Keegan, *The Face of Battle* (New York: Viking, 1976), p. 13.
18. Stephen Kern, *The Culture of Time and Space,* 1880–1918 (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983). See also Peter Stansky, *On or about December* 1910*: Early Bloomsbury and Its Intimate World* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1996).
19. Marc Bloch, *The Historian's Craft*, trans. Peter Putnam (Manchester: Manchester University Press, 1992, first published in 1953), p. 101, makes this point in a slightly different way.
20. William H. McNeill, *Plagues and Peoples* (Garden City, N.Y.: Doubleday, 1976).
كان هذا الكتاب أيضًا نافذة على المستقبل، وقد ظهر قبل أن يسمع أحد بمرض الإيدز مع تقديمه تفسيرًا جيدًا لكيفية سيطرة هذا المرض. انظر تحديدًا ص. 33
21. William H. McNeill, *The Pursuit of Power: Technology, Armed Force, and Society since A.D.* 1000 (Chicago: University of Chicago Press, 1982), and *Keeping Together in Time: Dance and Drill in Human History* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1995).
22. David Hackett Fischer, *Historians' Fallacies: Toward a Logic of Historical Thought* (New York: Harper & Row, 1970), p. 65
23. أتبع هنا تفسير هـ. و. براند في مقاله
H. W. Brand's "Fractal History, or Clio and the Chaotics," *Diplomatic History* 16 (Fall 1992), 495.
وأشكر غاغان سود (Gagan Sood) لأنه نبهني إلى نظرية المجموعات واختيار كتاب تستخدم فيه استخدامًا مثيرًا:
K. N. Chauduri, *Asia before Europe: Economy and Civilisation of the Indian Ocean from the Rise of Islam to* 1750 (Cambridge: Cambridge University Press, 1990).
24. Stephen W. Hawking, *A Brief History of Time: From the Big Bang to Black Holes* (New York: Bantam Books, 1988), p. 1.
25. للاطلاع على طريقة أخرى لصياغة هذه المشكلة، انظر:
Evans, *In Defence of History*, p. 142.

26. توجد مناقشة مفيدة لهذه المفارقة في
James Gleick, *Chaos: Making a New Science* (New York: Viking, 1987), pp. 94–96.
وللاطلاع على عرض في موقع على الإنترنت يغطي الخط الساحلي لولاية ماساتشوستس انظر:
http://coast.mit.edu/index.html.
27. Joyce Appleby, Lynn Hunt, and Margaret Jacob provide a sympathetic but by no means uncritical evaluation in *Telling the Truth about History* (New York: Oxford University Press, 1994), pp. 198–237. See also Terry Eagleton, *The Illusions of Postmodernism* (Oxford: Blackwell, 1996).
28. Quoted in Chauduri, *Asia before Europe*, p. 92.
29. Bloch, *The Historian's Craft*, p. 23.
30. *The Confessions of St. Augustine*, trans. E. B. Pusey (New York: Barnes & Noble, 1999), p. 269.
31. Quoted in Niall Ferguson, "Virtual History: Towards a 'Chaotic' Theory of the Past," in *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals*, ed. Ferguson (New York: Basic Books, 1999), p. 49.
32. Singularities are discussed in Hawking, *A Brief History of Time*, pp. 88–89.
33. See Gleick, *Chaos*, pp. 11–31; also Chapter Five.
34. Scott D. Sagan, *The Limits of Safety: Organizations, Accidents, and Nuclear Weapons* (Princeton: Princeton University Press, 1993), pp. 11–52.
35. للاطلاع على تمييز مماثل بين الماضي والمستقبل، انظر:
Bloch, *The Historian's Craft*, p. 124.
36. أخذت هنا الشكل بعد تعديله من:
A Brief History of Time, p. 23.
37. Denis Cosgrove, ed., *Mappings* (London: Reaktion Books, 1999), especially pp. 24–70; also Jeremy Black, *Maps and History: Constructing Images of the Past* (New Haven: Yale University Press, 1997), pp. 1–26.
38. Jorge Luis Borges, *Collected Fictions*, trans. Andrew Hurley (New York: Penguin Books, 1998), p. 325. See also Lewis Carroll's 1893 novel *Sylvie and Bruno Concluded*, in *The Complete Works of Lewis Carroll* (London: Penguin, 1988), pp. 556–57.
39. استخلصت هذه النقطة من المناقشة المفيدة في
Jane Azevedo, *Mapping Reality: An Evolutionary Realist Methodology for the Natural and Social Sciences* (Albany: State University of New York Press, 1997), p. 103.
فهي تتوافق فيما أعتقد مع مشكلة "مستوى التحليل الشهيرة في علم السياسة". انظر مثلًا:
Martin Hollis and Steve Smith, *Explaining and Understanding International Relations* (Oxford: Oxford University Press, 1990), pp. 7–9; and Michael Nicholson, *Rationality and the Analysis of International Conflict* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), pp. 26–27.

الفصل الثالث: البنية والعملية

1. Marc Bloch, *The Historian's Craft*, trans. Peter Putnam (Manchester: Manchester University Press, 1992, first published in 1953), pp. 40, 45.
ثبت فيما بعد أن بلوخ أخطأ بشأن رمسيس الذي توجد مومياؤه المحنطة تحنيطًا جيدًا الآن في المتحف المصري بالقاهرة ليشاهدها عن قرب علماء المصريات -وغيرهم. وأدين بهذا الوصف لمايكل غاديس (Michael Gaddis) الذي شاهدها هناك.

2. John H. Goldthorpe, "The Uses of History in Sociology: Reflections on Some Recent Tendencies," *British Journal of Sociology* 42 (June 1991), 213–14. See also G. R. Elton, *The Practice of History* (New York: Crowell, 1967), pp. 9, 59–61.
3. John McPhee, *Annals of the Former World* (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1998), p. 36.

يعرض ماكفي هنا قول عالم الجيولوجيا كنيث ديفيز من جامعة برنستون.

4. See Simon Winchester, *The Map That Changed the World: William Smith and the Birth of Modern Geology* (New York: HarperCollins, 2001).
5. E. H. Carr, *What Is History?* 2d ed. (New York: Penguin, 1987), p. 56.
6. لا يقدم جيفري إلتون أي إضافة إذ يقول: "قضية هل التاريخ علم أم لا، قضية ميتة، فهو كلاهما":
Geoffrey Elton isn't much more helpful. "Whether history is an art or a science is a dead issue," he writes. "It is both." *The Practice of History*, p. 5.
7. John Ziman, *Reliable Knowledge: An Exploration of the Grounds for Belief in Science* (New York: Cambridge University Press, 1978), p. 3. See also R. G. Collingwood, *The Idea of History* (New York: Oxford University Press, 1956), p. 9; Joyce Appleby, Lynn Hunt, and Margaret Jacob, *Telling the Truth about History* (New York: Norton, 1994), p. 197; and Edward O. Wilson, *Consilience: The Unity of Knowledge* (New York: Knopf, 1998), p. 53.
8. Stanley Hoffmann, "International Relations: The Long Road to Theory," in *International Relations and Foreign Policy: A Reader in Research and Theory*, ed. James N. Rosenau (New York: Free Press, 1961), p. 429.
9. Carr, *What Is History?* pp. 56–57. For more on this shift in science, see William H. McNeill, "History and the Scientific Worldview," *History and Theory* 37 (February 1998), 1–13; and Ernst Mayr, "Darwin's Influence on Modern Thought," *Scientific American* 283 (July 2000), 79–83.
10. Bloch, *The Historian's Craft*, pp. 14–15.
11. Carr, *What Is History?* p. 72. For the Hegelian origins of this idea, see Collingwood, *The Idea of History*, pp. 210–12; and Appleby, Hunt, and Jacob, *Telling the Truth about History*, pp. 66–71.
12. Ziman, *Reliable Knowledge*, pp. 6–10.
13. الرقم الحقيقي الآن 206 مليار، وأنا مدين إلى لويد ن. تريفثين (Lloyd N. Trefethen) بهذه المعلومة.
14. Collingwood makes a similar argument in *The Idea of History*, p. 249, as does Isaiah Berlin in his essay "The Concept of Scientific History," reprinted in Berlin, *The Proper Study of Mankind: An Anthology of Essays*, ed. Henry Hardy and Roger Hausheer (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1998), p. 20.
15. For another way of stating this point, see Niall Ferguson, "Virtual History: Towards a 'Chaotic' Theory of the Past," in *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals*, ed. Ferguson (New York: Basic Books, 1999), p. 83.
16. See Stephen Jay Gould, *Time's Arrow, Time's Cycle: Myth and Metaphor in the Discovery of Geological Time* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1987), especially the drawings on pp. 60 and 71. Also helpful on this subject is John McPhee, *Basin and Range* (New York: Farrar, Straus, & Giroux, 1980).
17. Stephen Jay Gould's title essay in *The Panda's Thumb: More Reflections in Natural History* (New York: Norton, 1992), makes the case for imperfection as evidence of evolution.
18. Natalie Angier, "A Pearl and a Hodgepodge: Human DNA," *New York Times*, June 27, 2000; Stephen Jay Gould, "Genetic Good News: Complexity and Accidents," *New York Times*, February 20, 2001.

19. Stephen Jay Gould, *Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History* (New York: Norton, 1989), provides one of the best explanations of how this is done.
20. Collingwood, *The Idea of History*, pp. 153, 202–4. Collingwood is here drawing on the ideas of Michael Oakeshott and Benedetto Croce.
21. Laurel Thatcher Ulrich, *A Midwife's Tale: The Life of Martha Ballard, Based on Her Diary*, 1785–1812 (New York: Random House, 1990).
22. Jared Diamond, *Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies* (New York: Norton, 1997).
23. Quoted in Gertrude Himmelfarb, *On Looking into the Abyss: Untimely Thoughts on Culture and Society* (New York: Vintage, 1995), pp. 147–48.

24. الطالب هو دانيال سيرفيانسكي (Daniel Serviansky) ويطرح نيل فيرغسون (Niall Ferguson) نقطة مشابهة في:

"Virtual History," p. 72.

25. See Jonathan Weiner, *The Beak and the Finch: A Story of Evolution in Our Time* (New York: Knopf, 1994).
26. John Lewis Gaddis, *We Now Know: Rethinking Cold War History* (New York: Oxford University Press, 1997), pp. 266–67.

27. أفضل شرح للعملية كلها في:

Dino A. Brugioni, *Eyeball to Eyeball: The Inside Story of the Cuban Missile Crisis* (New York: Random House, 1991).

28. يؤكد غولد (Gould) تأكيدًا خاصًا على أهمية النقطة الأخيرة، وكذلك يفعل

Thomas S. Kuhn, *The Structure of Scientific Revolutions*, 3d ed. (Chicago: University of Chicago Press, 1996).

29. Jeremy Black, *Maps and History: Constructing Images of the Past* (New Haven: Yale University Press, 1997), contains many examples. See also James C. Scott, *Seeing Like a State: How Certain Schemes to Improve the Human Condition Have Failed* (New Haven: Yale University Press, 1998),

للاطلاع على مناقشة رائعة عن كيفية فرض الحكومات الشبكات الأيديولوجية على المسطحات الأرضية. وسأناقش كتاب سكوت بتفصيل أكبر في الفصل الثامن.

30. Jane Azevedo, *Mapping Reality: An Evolutionary Realist Methodology for the Natural and Social Sciences* (Albany: State University of New York Press, 1997), pp. 110, 112.

تستخدم جين أزفيدو بالفعل مصطلح "ميتاثيوري" [نظرية النظريات، أو النظرية الشارحة للنظرية] بدلًا من "نظرية" في المقتبس الثاني، للتمييز بين الإسقاط وأغراض الخارطة، وأفضل الالتزام باستخدامها مصطلح "النظرية" وليس "نظرية النظرية" طلبًا للوضوح.

31. يؤيد بلوخ وكار هذه النقطة بقوة، انظر:

The Historian's Craft, pp. 53–54, 71, 119, and *What Is History?* pp. 28, 55, 59, 61, 103.

32. لمفهوم "التوافق"، انظر:

Appleby, Hunt, and Jacob, *Telling the Truth about History*, p. 248.

يكتب كولينغوود في (Collingwood, *The Idea of History*, p. 242) عن رؤية المؤرخين للماضي بوصفه "شبكة عنكبوتية من التركيب الخيالي تصل بين نقاط محددة ثابتة أرستها مقولات مراجعه." فإذا كانت النقاط "متكررة بشكل كافٍ وتمتد الخطوط من كل واحدة إلى الأخرى بالعناية المطلوبة، ... فالصورة كلها تتوثق باللجوء إلى هذه البيانات، دون مخاطرة كبيرة بالانفصال عن الواقع الذي تمثله." يناقش برلين (Berlin) أيضًا هذه الرؤية لمفهوم «التوافق» في (The Concept of Scientific History p. 45)، لكنني أعتقد أنه يقلل من مدى حدوثها في العلم الطبيعي وفي التاريخ.

33. أدين باستعارة "الخياطة" في المقام الأول لرواية جون لي كاريه خياط بنما:

John le Carré's novel *The Tailor of Panama* (New York: Knopf, 1996)

ولكنها أيضًا جزئيًا ترجع إلى:

The Education of Henry Adams (Boston: Houghton Mifflin, 1961), pp. xxiii–xxiv.

34. عقد المؤتمر بجامعة أوهايو في مايو 1994. وللاطلاع على دفاع ثلاثة من علماء الاجتماع الكبار عن منهج ماكنيل، انظر:

Gary King, Robert O. Keohane, and Sidney Verba, *Designing Social Inquiry: Scientific Inference in Qualitative Research* (Princeton: Princeton University Press, 1994), pp. 46–47.

وانظر أيضًا مسرحية طوم ستوبارد:

Tom Stoppard *Arcadia* (London: Faber & Faber, 1993), p. 46.

35. Ziman, *Reliable Knowledge*, p. 36,

التوكيد من عندي. قارن هذا بقول كولينغوود: "السؤال والدليل في التاريخ قرينان. فكل شيء يمكنك من إجابة سؤالك دليل -أي السؤال الذي تسأله الآن. والسؤال المجدي (وهو النوع الوحيد الذي يسأله إنسان كفء علميًا) سؤال تعتقد أنك تملك أو ستملك دليلًا للرد عليه". (*The Idea of History*, p. 281)

36. Wilson, *Consilience*, p. 64.
37. William Whewell, *Theory of Scientific Method*, ed. Robert E. Butts (Indianapolis: Hackett, 1989), p. 154. See also Peter Gay, *Style in History*(New York: McGraw-Hill, 1974), pp. 178–79.
38. Wilson, *Consilience*, pp. 10–11.
39. Bloch, *The Historian's Craft*, p. 8.
40. Carr, *What Is History?* p. 20.

41. في ذهني تحديدًا أتول غاوندا وستيفن جاي غولد وستيفن و. هوكينغ وفيليب موريسون وشيروين ب. نولاند وستيفن واينبرغ وإدوارد أو. ويلسون ولويس توماس.

Atul Gawande, Stephen Jay Gould, Stephen W. Hawking, Philip Morrison, Sherwin B. Nuland, Steven Weinberg, Edward O. Wilson, and Lewis Thomas.

الفصل الرابع: الاعتماد المتبادل بين المتغيرات

1. حتى علماء السياسة الذين يظهر عملهم قوة الاعتماد المتبادل بين المتغيرات، ما زالوا يميزون بين المتغيرات المستقلة والتابعة. انظر مثلًا:

Robert Jervis, *Systems Effects: Complexity in Political and Social Life* (Princeton: Princeton University Press, 1997), pp. 92–103; and Stephen Van Evera, *Guide to Methods for Students of Political Science* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1997), pp. 10–11.

2. See, for example, Richard Ned Lebow, "Social Science and History: Ranchers versus Farmers?" in *Bridges and Boundaries: Historians, Political Scientists, and the Study of International Relations*, ed. Colin Elman and Miriam Fendius Elman (Cambridge, Mass.: MIT Press, 2001), pp. 123–26.
3. Gary King, Robert O. Keohane, and Sidney Verba, *Designing Social Inquiry: Scientific Inference in Qualitative Research* (Princeton: Princeton University Press, 1994), p. 123.

يفضل كينغ وكيوهان وفيربا مصطلح "المتغيرات الشارحة"، ويعادلونها بالمتغيرات المستقلة(p. 77).

4. للمزيد عن الفكرة الأخاذة التي تقول إن الاختزال ربما لا ينجح حتى في فيزياء الجسيمات، انظر:

George Johnson, "Challenging Particle Physics as Path to Truth," *New York Times*, December 4, 2001.

5. يشير ستيفن جاي غولد في كتاب

Stephen Jay Gould, *Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History* (New York: Norton, 1989), pp. 278–79,

إلى أن منهج جامعة هارفارد أقرب إلى اعتماد هذه التراتبية. لكن هذا لا يجعل الادعاء صحيحًا في كل الظروف.

6. استخدمت هنا مصطلح "الاستشراف" بدلًا من "التنبؤ"؛ لأنه لا يفرض على العلوم الضغط الذي يفرضه الاستشراف. "فالاستشراف قول عن خواطر مجهولة قائم على تعميمات معروفة أو مقبولة وعلى ظروف غير مؤكدة مجهولة جزئيًا". أما التنبؤ فيتضمن الربط بين تعميمات معروفة أو مقبولة وظروف مؤكدة ("معلومات") لإنتاج قول عن ظواهر مجهولة.

John R. Freeman and Brian L. Job, "Scientific Forecasts in International Relations: Problems of Definition and Epistemology," *International Studies Quarterly* 23 (March 1979), 117–18.

7. John Ziman, *Reliable Knowledge: An Exploration of the Grounds for Belief in Science* (New York: Cambridge University Press, 1978), pp. 158–59; Dorothy Ross, *The Origins of American Social Science* (New York: Cambridge University Press, 1991), p. 390; Rogers M. Smith, "Science, Non- Science, and Politics," in *The Historic Turn in the Human Sciences*, ed. Terence J. McDonald (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1996), pp. 121–23.

صمتت هذه الادعاءات في السنوات الأخيرة لدرجة أن مصطلحي "تنبؤ" و "استشراف" لا يظهران إلا نادرًا في كتاب كينغ وكيوهان وفيربا (*Designing Social Inquiry*). لكن المؤلفين يذكرون (ص 15) أن الموضوعات البحثية في العلوم الاجتماعية "ينبغي أن يكون لها عائد على الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، وعلى فهم شيء يؤثر تأثيرًا كبيرًا في حياة كثير من الناس، أو في فهم أحداث قد تكون ضارة أو نافعة، واستشرافها بها." وقد ناقشت دور التنبؤ والاستشراف على نحو أشد تفصيلًا في:

"International Relations Theory and the End of the Cold War," *International Security* 17 (Winter 1992–93), 6–10.

8. I've borrowed this term from Joseph Fraccia and R. C. Lewontin, "Does Culture Evolve?" *History and Theory* 38 (December 1999), 54.

9. يقدم روبن كولينغوود توصيفا لوجة نظر من القرن الثامن عشر. انظر:

R. G. Collingwood, *The Idea of History* (New York: Oxford University Press, 1956), pp. 84–85.

10. انظر حول هذه النقطة:

Ross, *The Origins of American Social Science*, pp. 299–300; Peter Novick, *That Noble Dream: The "Objectivity Question" and the American Historical Profession* (New York: Cambridge University Press, 1988), pp. 69–70; and Terence J. McDonald, "Introduction," in *The Historic Turn in the Human Sciences*, ed. T. McDonald, pp. 4–5.

11. Smith, "Science, Non-Science, and Politics," pp. 123–24; also Donald R. Green and Ian Shapiro, *Pathologies of Rational Choice Theory: A Critique of Applications in Political Science* (New Haven: Yale University Press, 1994), pp. 25–26.

12. Collingwood, *The Idea of History*, p. 54.

13. Tom Stoppard, *Arcadia* (London: Faber & Faber, 1993), p. 5.

14. See James Gleick, *Chaos: Making a New Science* (New York: Viking, 1987), p. 41.

15. The best overall critique is Green and Shapiro, *Pathologies of Rational Choice Theory*, especially pp. 1–32. But see also W. Brian Arthur, "Competing Technologies, Increasing Returns, and Lock-in by Historical Events," *Economic Journal* 94 (March 1989), 116–31; Smith, "Science, Non-Science and Politics," especially pp. 132–33; and Paul Omerod, *Butterfly Economics: A New General Theory of Social and Economic Behaviour* (London: Faber & Faber, 1998), especially pp. 11–27, 36, 72.

وسأتحدث باستفاضة أكبر عن نظرية الاختيار العقلاني في الفصل السابع.

16. Peter Burke, *History and Social Theory* (Cambridge: Polity Press, 1992), pp. 104–9.
17. Michael E. Latham, *Modernization as Ideology: American Social Science and "Nation Building" in the Kennedy Era* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2000).
18. أوضح الأمثلة الحديثة هو تسليم الأحزاب الشيوعية في الاتحاد السوفيتي السابق وأوروبا الشرقية السلطة سلميًا. وهناك كذلك أمثلة أمريكية طريفة عديدة، منها المقاومة الشديدة التي أبدتها وزارة الدفاع لزيادة ميزانيتها، قبل الحرب الكورية، بينما كانت وزارة الخارجية تؤيده بشدة. وكذلك عدم إقبال البنتاجون على اعتماد استخدام القوة العسكرية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، في مقابل التأييد المتكرر لاستخدام القوة من جانب مستشاري وزارة الخارجية، وغيرهم من المستشارين المدنيين.
19. Burke, *History and Social Theory*, pp. 114–15; also, for an example of still controversial physiological findings, Simon LeVay and Dean H. Hamer, "Evidence for a Biological Influence in Male Homosexuality," *Scientific American* 270 (May 1994), 44–49.
20. ناقشت بعض أسباب الحدث الأخير في

The United States and the End of the Cold War: Implications, Reconsiderations, Provocations (New York: Oxford University Press, 1992).

ولفشل النظرية انظر:

Gaddis, "International Relations Theory and the End of the Cold War," pp. 5–58; also Richard Ned Lebow and Thomas Risse-Kappen, eds., *International Relations Theory and the End of the Cold War* (New York: Columbia University Press, 1995).

21. William C. Wohlforth, "A Certain Idea of Science: How International Relations Theory Avoids the New Cold War History," *Journal of Cold War Studies* 1 (Spring 1999), 39–60. See also Colin Elman and Miriam Fendius Elman, "Negotiating International History and Politics," in *Bridges and Boundaries*, ed. Elman and Elman, pp. 18–19; and Andrew Bennett and Alexander L. George, "Case Studies and Process Tracing in History and Political Science: Similar Strokes for Different Foci," *ibid.*, p. 141.
22. Isaiah Berlin, "The Concept of Scientific History," in Berlin, *The Proper Study of Mankind: An Anthology of Essays*, ed. Henry Hardy and Roger Hausheer (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1998), pp. 34–35.
23. Green and Shapiro, *Pathologies of Rational Choice Theory*, p. 6. Robert G. Kaiser, "Election Miscalled: Experts Dissect Their (Wrong) Predictions," *International Herald Tribune*, February 10–11, 2001.

يناقش هذا العمل جهود علماء السياسة لتفسير أسباب خطأ استشرافهم بحدوث انتصار ساحق في التصويت لآل غور في انتخابات الرئاسة الأمريكية لعام 2000. يدعي أحدهم ببساطة أنه "كان ينبغي أن يكون مجمل عدد الأصوات التي حصل عليها غور أكبر بكثير مما حصل عليه. باختصار، خالف الواقع النظرية.

24. للمزيد عن هذه النقطة انظر:

King, Keohane, and Verba, *Designing Social Inquiry*, pp. 10–12.

يأتي مصطلح "التوازن المتقطع" من ستيفن جاي غولد ونايلز إلدريدج. انظر:

Eldridge, *Time Frames: The Evolution of Punctuated Equilibria* (Princeton: Princeton University Press, 1985); also Gould and Eldridge, "Punctuated Equilibrium Comes of Age," *Nature* 366 (November 18, 1993), 223–27.

25. The late Douglas Adams, to be sure, did have an independent variable for the Norwegian coastline. See *The Hitch Hiker's Guide to the Galaxy* (London: Macmillan, 1979), p. 143.
26. Alexander Wendt, *Social Theory of International Politics* (New York: Cambridge University Press, 1999), p. 372. See also William R. Thompson, *Evolutionary Interpretations of World Politics* (New York: Routledge, 2001).
27. Terence J. McDonald, "What We Talk about When We Talk about History: The Conversations of History and Sociology," in *The Historic Turn in the Human Sciences*, ed. T. McDonald, pp. 107–8.

28. Paul Omerod, *Butterfly Economics: A New General Theory of Social and Economic Behavior* (London: Faber & Faber, 1998), surveys these trends.
29. See, in particular, Alexander L. George, "Case Studies and Theory Development: The Method of Structured, Focused Comparison," in *Diplomacy: New Approaches in History, Theory, and Policy*, ed. Paul Gordon Lauren (New York: Free Press, 1979), pp. 43–68; Alexander L. George, *Bridging the Gap: Theory and Practice in Foreign Policy* (Washington: United States Institute of Peace Press, 1993); and Bennett and George, "Case Studies and Process Tracing in History and Political Science," pp. 137–66.
30. Richard J. Evans, *In Defence of History* (London: Granta, 1997), p. 83, makes the point clearly.
31. Carr, *What Is History?* p. 63. For a similar argument, see Collingwood, *The Idea of History*, pp. 194–95.
32. King, Keohane, and Verba, *Designing Social Inquiry*, p. 48.

33. هذه مصطلحاتي، لكنها تتبع المقولة المحورية في :

Clayton Roberts, *The Logic of Historical Explanation* (University Park: Pennsylvania State University Press, 1996).

وهي كذلك توازي تمييز جاك س. ليفيز استخدام "حالة محددة" والاستخدام "المجرد" للنظرية في:

Jack S. Levy, *Bridges and Boundaries*, ed. Elman and Elman, pp. 45–47.

ويقدم برلين تمييزًا مشابهًا في:

"The Concept of Scientific History," pp. 27–28.

وكذلك يفعل جيفري إلتون في:

Geoffrey Elton in *The Practice of History* (New York: Crowell, 1967), p. 27.

34. John Lewis Gaddis, *We Now Know: Rethinking Cold War History* (New York: Oxford University Press, 1997), pp. 288–91.
35. Collingwood, *The Idea of* History, p. 224. See also Roberts, *The Logic of Historical Explanation*, pp. 1–15; and Stephan Berry, "On the Problem of Laws in Nature and History: A Comparison," *History and Theory* 38(December 1999), especially pp. 129, 133.

36. لتناول موازٍ لهذا في علم السياسة، انظر مناقشة النظرية التصنيفية في:

Bennett and George, "Case Studies and Process Tracing in History and Political Science," pp. 156–60.

37. النصوص الكلاسيكية هي:

Hans J. Morgenthau, *Politics among Nations: The Struggle for Power and Peace*, 6th ed. (New York: McGraw Hill, 1985, first published in 1948); and George F. Kennan, *American Diplomacy:* 1900–1950 (Chicago: University of Chicago Press, 1951)

38. Michael Oakeshott, *Experience and Its Modes* (Cambridge: Cambridge University Press, 1933), p. 128, as quoted in Niall Ferguson, "Virtual History: Towards a 'Chaotic' Theory of the Past," in *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals*, ed. N. Ferguson (New York: Basic Books, 1997), pp. 50–51. See also Berlin, "The Concept of Scientific History," pp. 37–38; and Jervis, *Systems Effects*, pp. 10–27.

وقد اســتفدت هنا أيضًا من عمل أحد طلابي للدراسات العليا بجامعة أوهايو، وهي ورقة بحثية أعدت في معهد جامعة أوهايو للتاريخ المعاصر.

Jeffrey Woods, "The Web Model of History," a 1994 paper prepared in the Ohio University Contemporary History Institute.

39. أناقش مبدأ تقلص العلاقة في الفصل السادس.

40. تأتي الأمثلة من:

Roberts, *The Logic of Historical Explanation*, pp. 116–17.

41. Trevor Royle, *Crimea: The Great Crimean War*, 1854–1856 (London: Little, Brown, 1999), pp. 15–19. For sensitive dependence on initial conditions, see Gleick, *Chaos*, pp. 11–31.

42. للتعبير عن هذه بمصطلحات سياسية نرتاح أكثر إلى فكرة النهايات المتماثلة:
Bennett and George discuss this concept in "Case Studies and Process Tracing in History and Political Science," p. 138.

43. For a good example, see Stephen G. Brooks, "Dueling Realisms," *International Organization* 51 (Summer 1997), 465–66, which discusses John Mearsheimer's spectacularly wrong prediction that the Ukrainians would never give up their nuclear weapons.
حيث يناقش تنبؤ جون ميرشايمر الخاطئ تمامًا بأن الأوكرانيين لن يتخلوا أبدًا عن أسلحتهم النووية.

44. King, Keohane, and Verba, *Designing Social Inquiry*, p. 20.
يقول المؤلفون إن العلماء الاجتماعيين صاروا مغالين في الاعتماد على الاجتزاء في تفسير الظواهر.

45. Bennett and George, "Case Studies and Process Tracing in History and Political Science," p. 148.

46. Gould, *Wonderful Life*, p. 51.
وعليه يكون الناتج "معتمدًا على المسار" لشرح هذا المصطلح، وهو يكتسب شيوعًا حاليًا بين العلماء الاجتماعيين أيضًا. انظر:
Elman and Elman, "Negotiating International History and Politics," pp. 30–31.
ومن الظواهر الموازية في علم الاقتصاد ظاهرة "زيادة العوائد" وهي موصوفة وصفًا جيدًا في:
M. Mitchell Waldrop, *Complexity: The Emerging Science at the Edge of Chaos* (New York: Viking, 1992), pp. 15–98.
فهل التعديل الذي يستشهد به غولد ويبدو غير مهم في الظاهر يرقى إلى مكانة المتغير المستقل؟ أعتقد هذا في حدود هذا المسار المحدد وحده، وفي هذه الرحلة وحدها. ولا يوجد ما يضمن نجاحه في مسارات أخرى أو رحلات أخرى.

47. مع كامل احترامي، اختلف هنا مع الخلاصة التي وصل إليها إشعيا برلين في:
Isaiah Berlin "The Concept of Scientific History," especially pp. 56–58.

48. Kenneth N. Waltz, *Theory of International Politics* (New York: Random House, 1979), pp. 161–93.

49. John Lewis Gaddis, *The Long Peace: Inquiries into the History of the Cold War* (New York: Oxford University Press, 1987), especially pp. 219–23.

50. Waltz, *Theory of International Politics*, p. 183. In fairness to Waltz,
إنصافًا لوالتز، لم يكن استشرافه هذا أبعد عن الصواب من أحد استشرافاتي، وهو أن "النقطة التي تدرك فيها قوة عظمى أن اضمحلالها بدأ هي نقطة خطيرة، حيث يمكن أن يكون سلوكها خاطئًا أو يائسًا، قبل أن تبدد قوتها المادية" (*The Long Peace*, p. 244). ولاستشراف خاطئ آخر يعكس تأثير والتز انظر:
John Lewis Gaddis, "How the Cold War Might End," *Atlantic* 260 (November 1987), 88–100.

51. Martin Hollis and Steve Smith, *Explaining and Understanding International Relations* (Oxford: Oxford University Press, 1990), pp. 110–18, provide an effective critique of Waltz.

52. For more on this, see Gaddis, *We Now Know*, pp. 283–84.

53. *Ibid.*, p. 284.

54. Paul W. Schroeder makes a similar point in "History and International Relations Theory: Not Use or Abuse, but Fit or Misfit," *International Security* 22 (Summer 1997), 69; as does Michael Nicholson in *Rationality and the Analysis of International Conflict* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), pp. 27–28.

55. See Sherwin B. Nuland, *How We Live* (New York: Vintage, 1997).

56. Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (New York: Simon & Schuster, 1996), p. 20. See also Sigmund Freud, *Civilization and Its Discontents*, trans. and ed. James Strachey (New York: Norton, 1961), p. 72.
57. Ziman, *Reliable Knowledge*, p. 3.
58. Smith, "Science, Non-Science, and Politics," p. 124.
59. أثارت حركة البريسترويكا الانقلابية داخل جمعية علم السياسة الأمريكية مجموعة مشابهة من الادعاءات داخل ذلك الميدان. انظر أيضًا:
Scott Heller and D. W. Miller, "'Mr. Perestroika' Criticizes Political- Science Journal's Methodological Bias," *Chronicle of Higher Education*, November 17, 2000; D. W. Miller, "Storming the Palace in Political Science," *ibid.*, September 21, 2001; Jacob Blecher, "Forward the Revolution: How One E-Mail Shook Up the Political Science Establishment," *New Journal* [Yale University] 34 (December 2001), 18–23; and Rogers M. Smith, "Putting the Substance Back in Political Science," *Chronicle of Higher Education*, April 5, 2002.

الفصل الخامس: الفوضى والتعقيد

1. *The Education of Henry Adams: An Autobiography* (Boston: Houghton Mifflin, 1961), pp. 224, 395.
2. يأتي التمييز بين "المجمعين" والمفرقين" من:
J. H. Hexter, *On Historians: Reappraisals of Some of the Masters of Modern History* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1979), pp. 241–43,
برغم أن هكستر نفسه ينسبه إلى دونالد كيغان. يأتي ذكر "توليفة العذراء والدينامو لآدامز" في الفصل 25 من كتاب التعليم لهنري آدامز.
3. *The Education of Henry Adams*, pp. 224, 396–98.
4. *Ibid.*, p. 455. See also, on Adams and chaos, N. Katherine Hayles, *Chaos Bound: Orderly Disorder in Contemporary Literature and Science* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1990), pp. 61–90. For more on Poincaré, see Trinh Xuan Thuan, *Chaos and Harmony: Perspectives on Scientific Revolutions of the Twentieth Century* (Oxford: Oxford University Press, 2001), pp. 75–81. E. H. Carr, too, was impressed with Poincaré. See *What Is History?* 2d ed. (New York: Penguin, 1987, first published in 1961), pp. 58, 90.
5. James Gleick, *Chaos: Making a New Science* (New York: Viking, 1987), pp. 46–47.
6. Tom Stoppard, *Arcadia* (London: Faber & Faber, 1993), pp. 44–46.
7. للمزيد عن الاختناقات المرورية والمحاكاة الحاسوبية لها، انظر:
Per Bak, *How Nature Works: The Science of Self-Organized Criticality* (New York: Oxford University Press, 1997), pp. 192–98; also Stephen Budiansky, "The Physics of Gridlock," *Atlantic Monthly* 283 (December 2000), 20–24.
8. William H. McNeill, "Passing Strange: The Convergence of Evolutionary Science with Scientific History," *History and Theory* 40 (February 2001), 2. The point is also made in Niall Ferguson, "Virtual History: Towards a'Chaotic' Theory of the Past," in *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals*, ed. N. Ferguson (New York: Basic Books, 1999), pp. 71–72.
9. Stephen Jay Gould, *Time's Arrow, Time's Cycle: Myth and Metaphor in the Discovery of Geological Time* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1987), pp. 120–23.
10. *The Education of Henry Adams*, pp. 226–28.

11. Thomas S. Kuhn, *The Structure of Scientific Revolutions*, 3d ed. (Chicago: University of Chicago Press, 1996).
12. Niles Eldridge, *Time Frames: The Evolution of Punctuated Equilibria* (Princeton: Princeton University Press, 1985); also Stephen Jay Gould and Niles Eldridge, "Punctuated Equilibrium Comes of Age," *Nature* 366 (November 18, 1993), 223–27.
13. Walter Alvarez and Frank Asaro, "What Caused the Mass Extinction? An Extraterrestrial Impact," *Scientific American* 263 (October 1990), 78–84.

14. لمناقشة مشابهة لكنها أضيق نطاقًا، انظر:

John Ziman, *Real Science: What It Is, and What It Means* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), pp. 56–58; also Stephan Berry, "On the Problem of Laws in Nature and History: A Comparison," *History and Theory* 38 (December1999), 124.

15. كما كتب غاري ديفيد شو: "أي اتفاق معتبر على شروط المناقشة [بين العلماء التطوريين والمؤرخين] يمكن أن يتيح للتاريخ لغة أيسر مما لديها حاليًا للمقارنة والتحليل."

16. Lorenz's experiment is described in Gleick, *Chaos*, pp. 9–31.
17. David Hackett Fischer, *Historians' Fallacies: Toward a Logic of Historical Thought* (New York: Harper & Row, 1970), p. 174.
18. Bak, *How Nature Works*, pp. 49–84.

19. يطرح ستوبارد فكرة مشابهة في مسرحيته أركاديا (ص 48).

20. These and other examples are discussed in Mark Buchanan, *Ubiquity: The Science of History; or, Why the World Is Simpler than We Think* (London: Weidenfeld & Nicolson, 2000). See also Berry, "On the Problem of Laws in Nature and History," pp. 126–28.
21. Stephen Jay Gould, *Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History* (New York: Norton, 1989), p. 277.
22. For more on path dependency, see Colin Elman and Miriam Fendius Elman, "Negotiating International History and Politics," in *Bridges and Boundaries: Historians, Political Scientists, and the Study of International Relations*, ed. Elman and Elman (Cambridge, Mass.: MIT Press, 2001), pp. 30–31.
23. Paul A. David, "Clio and the Economics of QWERTY," *American Economic Review* 75 (May 1985), 332–37; W. Brian Arthur, "Competing Technologies, Increasing Returns, and Lock-in by Historical Events," *Economic Journal* 99 (March 1989), 116–31. See also, for an extensive discussion of Arthur's work, M. Mitchell Waldrop, *Complexity: The Emerging Science at the Edge of Chaos* (New York: Simon & Schuster, 1992), pp. 15–98.
24. Robert D. Putnam, with Robert Leonardi and Raffaella Y. Nanetti, *Making Democracy Work: Civic Traditions in Modern Italy* (Princeton: Princeton University Press, 1993).

25. انظر حول هذه النقطة:

Waldrop, *Complexity*, p. 50. I've discussed these movements more fully in Chapter Four.

26. انظر الفصل الثاني.

27. Gleick, *Chaos*, pp. 94–96. See also Bak, *How Nature Works*, pp. 19–21; Thuan, *Chaos and Harmony*, pp. 108–10; and Benoit Mandelbrot, *Fractal Geometry of Nature* (New York: W. H. Freeman, 1988).
28. Stoppard, *Arcadia*, p. 47.
29. Carr, *What Is History?* pp. 26–27.

30. انظر الفصل الثاني.

31. James Miller, *The Passion of Michel Foucault* (New York: Doubleday, 1993), pp. 15–16.
32. *I Shall Bear Witness: The Diaries of Victor Klemperer*, 1933–45, two vols, trans. Martin Chalmers (New York: Random House, 1998–99). See also Stephen Kotkin, *Magnetic Mountain: Stalinism as a Civilization* (Berkeley: University of California Press, 1997);

Sheila Fitzpatrick, *Everyday Stalinism: Ordinary Life in Extraordinary Times: Soviet Russia in the* 1930*s* (New York: Oxford University Press, 1999); and Ian Kershaw, *Hitler,* 1936–45*: Nemesis* (London: Penguin Press, 2000), especially pp. 233–34, 249–50.

33. انظر حول هذه النقطة:
John Naughton, *A Brief History of the Internet: The Origins of the Future* (London: Weidenfeld & Nicolson, 2000).

34. Waldrop, *Complexity*, pp. 286–87. Stephen Jay Gould points out that the tendency by no means exists in all life forms. See his *Full House: The Spread of Excellence from Plato to Darwin* (New York: Harmony Books, 1996), especially p. 197.

35. Kenneth A. Oye, "Explaining Cooperation under Anarchy: Hypotheses and Strategies," in *Cooperation Under Anarchy*, ed. K. Oye (Princeton: Princeton University Press, 1986), pp. 1–2.

36. Gleick, *Chaos*, pp. 53–56, 137–53, 221–29; Thuan, *Chaos and Harmony*, pp. 101–3.

37. Waldrop, *Complexity*, pp. 272–86. See also Stephen Wolfram, *A New Kind of Science* (Champaign, Ill.: Wolfram Media, 2002).

38. John H. Holland, "Complex Adaptive Systems," *Daedalus* 121 (Winter 1992), 17–30.

39. لمناقشة بدائية منهجيًا لهذه القضية، انظر:
John Lewis Gaddis, *The Long Peace: Inquiries into the History of the Cold War* (New York: Oxford University Press, 1987), pp. 215–45.

40. Buchanan, *Ubiquity*, pp. 37–38.

41. Bak, *How Nature Works*, pp. 1–32; Buchanan, *Ubiquity*, pp. 85–100.

42. *Ibid.*, p. 200. For more on "greatness," see Chapter Seven.

43. Waldrop, *Complexity*, pp. 292–94.

44. McNeill, "History and the Scientific World View," p. 10, emphases in the original.

45. Waldrop, *Complexity*, p. 140.

46. Berry, "On the Problem of Laws in Nature and History," p. 126.

47. نقطة أبداها بريستون كينغ:
Thinking Past a Problem: Essays on the History of Ideas (London: Frank Cass, 2000), p. 243.

48. لبعض المؤشرات الدالة على أن هذا التكيف يحدث بالفعل في مجال نظرية العلاقات الدولية، انظر، بالإضافة إلى أعمال أخرى مذكورة في هذا الكتاب:
James N. Rosenau, *Turbulence in World Politics: A Theory of Change and Continuity* (Princeton: Princeton University Press, 1990); Jack Snyder and Robert Jervis, eds., *Coping with Complexity in the International System* (Boulder: Westview Press, 1993); Judith Goldstein and Robert O. Keohane, eds., *Ideas and Foreign Policy: Beliefs, Institutions, and Political Change* (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1993); Steven Bernstein, Richard Ned Lebow, Janice Gross Stein, and Steven Weber, "God Gave Physics the Easy Problems: Adapting Social Science to an Unpredictable World," *European Journal of International Relations* 6 (2000), 43–76; and William R. Thompson, *Evolutionary Interpretations of World Politics* (New York: Routledge, 2001).

49. McNeill, "Passing Strange," p. 2.

الفصل السادس: السببية والعرضية والحقائق المناظرة

1. Carole Fink, *Marc Bloch: A Life in History* (New York: Cambridge University Press, 1989), pp. 315–24.
2. R. W. Davies, "From E. H. Carr's Files: Notes Towards a Second Edition of *What Is History?*" in E. H. Carr, *What Is History?* 2d ed. (London: Penguin, 1987, first published in 1961), pp. 163–65.
3. Contrast, for example, Gary King, Robert O. Keohane, and Sidney Verba, *Designing Social Inquiry: Scientific Inference in Qualitative Research* (Princeton: Princeton University Press, 1994), with John Ziman, *Real Science: What It Is, and What It Means* (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).

.4 هذه النقطة معروضة عرضًا جيدًا في:

Terence J. McDonald, "Introduction," in *The Historic Turn in the Social Sciences*, ed. T. McDonald (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1996), pp. 1–14.

من المدهش أن اثنين من أفضل محاولات إعادة تقييم المنهج التاريخي لا يقولان شيئًا على الإطلاق عن الصلة بين التاريخ وعلوم الفوضى والتعقيد "الجديدة"، والكتابان هما:

Joyce Appleby, Lynn Hunt, and Margaret Jacob, *Telling the Truth about History* (New York: Norton, 1994), and Richard J. Evans, *In Defence of History* (London: Granta, 1997).

5. William H. McNeill, "Mythistory, or Truth, Myth, History, and Historians," *American Historical Review* 91 (February 1986), 8.

.6 لم يكونا وحدهما من استخدما الجثث لتفسير السببية، انظر:

R. G. Collingwood, *The Idea of History* (New York: Oxford University Press, 1956), pp. 266–82.

7. Carr, *What Is History?* pp. 104–8.
8. Davies, "From E. H. Carr's Files," pp. 169–70.

.9 هذا النسق موثق في:

The Vices of Integrity: E. H. Carr, 1892–1982 (New York: Verso, 1999), especially pp. 59–60, 78–79, 94–95, 128–29, 235, 248; also Michael Cox, "Introduction," in *E. H. Carr: A Critical Appraisal*, ed. M. Cox (New York: Palgrave, 2000), pp. 8–12.

وانظر أيضًا لنقد مناقشة كار عن السببية:

Appleby, Hunt, and Jacob, *Telling the Truth about History*, p. 304; and Evans, *In Defence of History*, pp. 129–38.

10. Marc Bloch, *The Historian's Craft*, trans. Peter Putnam (Manchester: Manchester University Press, 1992, first published in 1953), pp. 157–58.
11. Clayton Roberts, *The Logic of Historical Explanation* (University Park: Pennsylvania University Press, 1996), p. 108.
12. Carr, *What Is History?* p. 105.
13. Stephan Berry, "On the Problem of Laws in Nature and History: A Comparison," *History and Theory* 38 (December 1999), 122, makes a similar argument.
14. This point is also made in a slightly different way in King, Keohane, and Verba, *Designing Social Inquiry*, p. 87n.
15. See James Gleick, *Chaos: Making a New Science* (New York: Viking, 1987), pp. 11–31.
16. *Ibid.*, pp. 126–28, 160–61; M. Mitchell Waldrop, *Complexity: The Emerging Science at the Edge of Order and Chaos* (New York: Simon & Schusnoter, 1992), pp. 228–35; Mark Buchanan, *Ubiquity: The Science of History; or, Why the World Is Simpler than We Think* (London: Weidenfeld & Nicolson, 2000), pp. 75–76, 80–81.

17. Waldrop, *Complexity*, pp. 198–240; Stephen Jay Gould, *Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History* (New York: Norton, 1989).
18. Gleick, *Chaos*, pp. 16–18.
19. Roberts, *The Logic of Historical Explanation*, p. 111.

20. أفضل مقدمة لهذه النظرية التي وضعها إلدريدج بالاشتراك مع ستيفن جاي غولد نجدها في:
Niles Eldridge, *Time Frames: The Evolution of Punctuated Equilibria* (Princeton: Princeton University Press, 1985). See also Waldrop, *Complexity*, pp. 308–9.

21. Roberts, *The Logic of Historical Explanation*, pp. 108–9.

22. انظر على سبيل المثال:
Saburo Ienaga, *The Pacific War, 1931–1945: A Critical Perspective on Japan's Role in World War II* (New York: Pantheon, 1978), pp. 131–33.

23. فهل هذه متغيرات مستقلة؟ لا أظن: لأن الانتقالات المرحلية والانقطاعات والأحداث الاستثنائية كان لها دائمًا سوابق.

24. Aristotle, *Poetics*, trans. Malcolm Heath (New York: Penguin, 1996), p. 17. See also Anthony Gottlieb, *The Dream of Reason: A History of Western Philosophy from the Greeks to the Renaissance* (London: Allen Lane, 2000), p. 276. I am, of course, indebted to Toni Dorfman for this reference.
25. Bloch, *The Historian's Craft*, p. 103.
26. Niall Ferguson, "Virtual History: Towards a 'Chaotic' Theory of the Past," in *Virtual History: Alternatives and Counterfactuals*, ed. Ferguson (New York: Basic Books, 1997), pp. 1–90, is by far the best defense of counterfactual history.
27. Carr, *What Is History?* pp. 96–99.
28. See King, Keohane, and Verba, *Designing Social Inquiry*, pp. 77–78, 82–83.

29. ظهرت تكهنات كثيرة وفيلم عام 1984 -تجربة نقل عن بعد تشمل المدمرة (U.S.S. *Eldridge*)، وللاطلاع على واقعة فضح المركز التاريخي للبحرية الأمريكية، انظر:
http://www.history.navy.mil/faqs/faq21-1.htm.

30. أحد الأمثلة الجيدة:
Harry Turtledove, *The Guns of the South* (New York: Ballantine, 1993),
الذي يغير نهاية الحرب الأهلية الأمريكية عن طريق منح الكونفيدراليين أسلحة من نوع (AK-47)

31. Ferguson, "Virtual History," p. 85.

32. يقدم كتاب كينغ وآخرين تأويلاً رسميًا لذلك. انظر:
King, Keohane, and Verba, *Designing Social Inquiry*, pp. 82–83.

33. من أبرز الأمثلة الحديثة استخدام صورة تحليل دي إن إيه لإثبات أبوة توماس جيفرسون لواحد أو أكثر من أبناء أَمَته سالي همنجز:
the Thomas Jefferson Memorial Foundation *Report of the Research Committee on Thomas Jefferson and Sally Hemings*, January, 2000, at: http://www.monticello.org/plantation/hemings_report.html.

34. L. N. Tolstoy, *War and Peace*, trans. Rosemary Edmonds (London: Penguin, 1982), p. 1341.
35. Collingwood, *The Idea of History*, p. 248.
36. Ziman, *Real Science*, p. 7.
فكرة زيمان هنا تعكس فكرة كار عن التاريخ بوصفه وراثة صفات مكتسبة. انظر:
What Is History? pp. 150–51.
37. Appleby, Hunt, and Jacob, *Telling the Truth about History*, p. 171.

38. انظر الفصل الثالث.

39. الاعتراضات بعد الحداثية على السردية تفند تفنيدًا دقيقًا في:
Evans, *In Defence of History*, pp. 148–52. See also Appleby, Hunt, and Jacob, *Telling the Truth About History*, pp. 228–37.

40. لمناقشات موازية انظر:
The Idea of History, pp. 110, 240–46; and Appleby, Hunt, and Jacob, *Telling the Truth about History*, pp. 195, 248–50, 259, 268.

41. لنقد هذا النوع من الفكر، انظر:
King, Keohane, and Verba, *Designing Social Inquiry*, p. 20.

لكن قارن كذلك هذه الاعتراضات على الاجتزاء هنا مع الموافقة الظاهرة عليها في ص 123.

42. على الرغم من أن المؤرخين بالتأكيد يهملونها مما يثير الدهشة، انظر:
David Hackett Fischer, *Historians' Fallacies: Toward a Logic of Historical Thought* (New York: Harper & Row, 1970).

43. Bloch, *The Historian's Craft*, p. 67.

44. انظر الفصل الثالث.

45. لمناقشة الوثائق بوصفها وسيلة لقابلية إعادة الإنتاج، انظر:
Bloch, *The Historian's Craft*, p. 100.

حيث يناقش مثالًا لا تصلح له هذه الهوامش، وكذلك يفعل إيفانز:
Richard J. Evans, *Telling Lies about Hitler: History, the Holocaust and the David Irving Trial* (London: Heineman, 2001).

46. G. R. Elton, *The Practice of History* (New York: Crowell, 1967), pp. 83–87, is helpful on this point.

47. William Whewell, *Theory of Scientific Method*, ed. Robert E. Butts (Indianapolis: Hackett, 1989), p. 153.

48. انظر الفصل الثالث.

الفصل السابع: جزيئات لها عقول مستقلة

1. يعبر كولينغوود عن الفكرة نفسها:
R. G. Collingwood, *The Idea of History* (New York: Oxford University Press, 1956), p. 216.

وكذلك فوكس:
Martin Stuart- Fox, "Evolutionary Theory of History," *History and Theory* 38 (December 1999), 35.

2. M. Mitchell Waldrop, *Complexity: The Emerging Science at the Edge of Order and Chaos* (New York: Simon & Schuster, 1992), pp. 241–43.

3. See, on this point, Michael Taylor, "When Rationality Fails," in *The Rational Choice Controversy: Economic Models of Politics Reconsidered*, ed. Jeffrey Friedman (New Haven: Yale University Press, 1996), pp. 226–27.

لنقد علمي حاد، انظر:
Donald P. Green and Ian Shapiro, *Pathologies of Rational Choice Theory: A Critique of Applications in Political Science* (New Haven: Yale University Press, 1994), especially pp. 1–32. Friedman, ed., *The Rational Choice Controversy*

حيث يتيح ساحة مفيدة لنقاد رأي غرين وشابيرو ومؤيديهم. أما النقد الأقل رسمية للاختيار العقلاني فيظهر في:

Paul Omerod, *Butterfly Economics: A New General Theory of Social and Economic Behaviour* (London: Faber & Faber, 1998); also Jonathan Cohn, "Irrational Exuberance: When Did Political Science Forget about Politics?" *New Republic*, October 25, 1999; Louis Uchitelle, "Some Economists Call Behavior a Key," *New York Times*, February 11, 2001; and Roger Lowenstein, "Exuberance Is Rational," *New York Times Magazine*, February 11, 2001.

4. ويجدر بي أيضًا أن أشكر أليسون ألتر وجيريمي سوري وجيمس فيرسون لمحاولتهم الشجاعة شرح نظرية الاختيار العقلاني لي.

5. Green and Shapiro, *Pathologies of Rational Choice Theory*, p. 24.

6. See, on this point, Collingwood, *The Idea of History*, pp. 212–13.

7. تقوم رواية باري أنزورث إضاعة نلسون على الإشكالية التي يواجهها أي كاتب سيرة، وهي أنه لن يستطيع أبدًا أن يمسك بموضوعه فعليًا:

Losing Nelson (New York: Doubleday, 1999) is built around the dilemma any biographer faces: that you can never really know your subject. See also A. S. Byatt, *The Biographer's Tale* (London: Chatto & Windus, 2000).

8. لهذا استثناءات. إذ يستخدم مؤرخون مثل ناتالي زيمون ديفيز وكارلو غنزبيرغ ولوريل ثاتشر أولريخ سير الأشخاص "العاديين" لاستجلاء ثقافات بعيدة عن ثقافتنا، انظر على الترتيب:

The Return of Martin Guerre (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983); *The Cheese and the Worms: The Cosmos of a Sixteenth- Century Miller* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1992); and *A Midwife's Tale: The Life of Martha Ballard, Based on Her Diary*, 1785–1812 (New York: Random House, 1990).

9. David Hackett Fischer, *Historians' Fallacies: Toward a Logic of Historical Thought* (New York: Harper & Row, 1970), p. 49.

10. Plutarch, *Greek Lives*, trans. Robin Waterfield (New York: Oxford University Press, 1998), p. 312.

أشكر مايكل غاديس على هذا المرجع.

11. هذه الفقرة مأخوذة من:

John Lewis Gaddis, "The Tragedy of Cold War History," *Diplomatic History* 17 (Winter 1993), 5–6.

والمؤلف نفسه يأخذ عن سيرة ممتازة وهي:

Robert C. Tucker, *Stalin in Power: The Revolution from Above*, 1928–1941 (New York: Norton, 1990).

12. Plutarch, *Greek Lives*, p. 312.

لتوصيف عيني ستالين على نحو كان بلوتارك ليوافق عليه، انظر أيضًا:

George F. Kennan, *Memoirs:* 1925–1950 (Boston: Atlantic–Little, Brown, 1967), p. 279.

13. لمناقشة جيدة لهذا، انظر:

Joyce Appleby, Lynn Hunt, and Margaret Jacob, *Telling the Truth about History* (New York: Norton, 1994), esp. Ch. 4.

14. هذه النقطة معروضة عرضًا واضحًا في:

Ian Kershaw's recent biography, *Hitler*, 1936–1945*: Nemesis* (London: Penguin, 2000).

15. *I Shall Bear Witness: The Diaries of Victor Klemperer*, 1933–41 (London: Phoenix, 1999); *To the Bitter End: The Diaries of Victor Klemperer*, 1942–45 (London: Phoenix, 2000).

16. Liza Picard, *Restoration London* (London: Phoenix, 1997).

17. لوصف مميز لنافذة فرص قبل أن يقفز أحد منها، انظر تقرير مفوضية الولايات المتحدة للأمن القومي في القرن الواحد والعشرين، الذي صور على ثلاثة أجزاء بين سبتمبر 1999 ومارس 2001، وهو متوفر كذلك على موقع: (http://www.nssg.gov)، وقد عرف عضوا مجلس الشيوخ غاري هارت ووارين رودمان بالاشتراك

في رئاسة المفوضية، وقد شملت هذه الدراسة تحذيرًا صريحًا من أن الولايات المتحدة معرضة لهجمات إرهابية مدمرة على أراضيها.

18. Waldrop, *Complexity*, pp. 233–34.
19. Kershaw, *Hitler*, 1936–45, pp. 487, 522. See also Isaiah Berlin, *The Crooked Timber of Humanity: Chapters in the History of Ideas*, ed. Henry Hardy (New York: Random House, 1990), pp. 203–6; also James Q. Wilson, *The Moral Sense* (New York: Free Press, 1993), especially p. 15.
20. حقيقة أثارت فزعًا غريبًا بين مؤرخين معنيين، وكأن البرابرة على الأبواب. انظر مثلًا:
G. R. Elton, *Return to Essentials: Some Reflections on the Present State of Historical Study* (Cambridge: Cambridge University Press, 1990); Keith Windshuttle, *The Killing of History: How Literary Critics and Social Theorists Are Murdering Our Past* (New York: Free Press, 1996);
وعمل آخر يستحق الإعجاب فيما عدا هذه النقطة هو:
Richard J. Evans, *In Defence of History* (London: Granta, 1997).
21. Collingwood, *The Idea of History*, p. 39, also pp. 87 and 199. See, as well, Bloch, *The Historian's Craft*, pp. 118–19.
22. لمحاولة حديثة للتعامل مع هذه الصعوبات، انظر:
Roger Shattuck, *Candor and Perversion: Literature, Education, and the Arts* (New York: Norton, 1999).
23. John Keay, *The Great Arc: The Dramatic Tale of How India Was Mapped and Everest Was Named* (New York: HarperCollins, 2000).
24. Bloch, *The Historian's Craft*, p. 116.
25. Carr, *What Is History?* pp. 75–79.
26. *Ibid.*, p. 79.
27. Carr to Betty Behrends, February 19, 1966, quoted in Jonathan Haslam, *The Vices of Integrity: E. H. Carr*, 1892–1982 (New York: Verso, 1999), p. 235.
28. See, for example, Bloch, *The Historian's Craft*, p. 66; Carr, *What Is History?* p. 120.

الفصل الثامن: الرؤية بعيون مؤرخ

1. انظر الفصل الأول.
2. James C. Scott, *Seeing Like a State: How Certain Schemes to Improve the Human Condition Have Failed* (New Haven: Yale University Press, 1998).
3. John Prest, "City and University," in *The Illustrated History of Oxford University*, ed. J. Prest (Oxford: Oxford University Press, 1993), p. 1.
4. Scott, *Seeing Like a State*, pp. 2–3.
5. *Ibid.*, pp. 4, 340, 352.
6. Letter from Tom Hamilton-Baillie, January 24, 2001.
7. لنظرة أكثر تفاؤلًا، انظر:
G. R. Elton, *The Practice of History* (New York: Crowell, 1967), p. 74.
8. Martin Gilbert, *"Never Despair": Winston S. Churchill*, 1945–1965 (London: Heineman, 1988), pp. 1073, 1076–77, 1253.
9. يروي وليم توبسمان (William Taubman) الحادثة في سيرته قيد الإصدار عن خروشوف.
10. R. G. Collingwood, *The Idea of History* (New York: Oxford University Press, 1956), p. 141.

11. Ian Kershaw, *Hitler, 1936–1945: Nemesis* (London: Penguin, 2000), pp. 821–22.
12. John Drummond, *Tainted by Experience: A Life in the Arts* (London: Faber & Faber, 2000), p. 51.

13. صاروا بعدها، على أغلب الظن، الموتى الشاكرين.

14. يتناول الفصل الثاني هذا بتفصيل أكبر.

15. لهذه النقطة، انظر:

Peter Novick, *That Noble Dream: The "Objectivity Question" and the American Historical Profession* (New York: Cambridge University Press, 1988), pp. 469–521; also, more briefly, Joyce Appleby, Lynn Hunt, and Margaret Jacob, *Telling the Truth about History* (New York: Norton, 1994), pp. 147–51.

16. Collingwood, *The Idea of History*, p. 317.

ولمثال جيد جدًا لمؤرخ يحرر الماضي من تأويلات مفروضة عليه بأثر رجعي، انظر:

Joanne B. Freeman, *Affairs of Honor: National Politics in the New Republic* (New Haven: Yale University Press, 2001).

17. Stephen Jay Gould, *The Lying Stones of Marrakech: Penultimate Reflections in Natural History* (New York: Harmony Books, 2000), p. 18. See also Gould's *Time's Arrow, Time's Cycle: Myth and Metaphor in the Discovery of Geologic Time* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1987), p. 27.
18. Stephen Jay Gould, *Wonderful Life: The Burgess Shale and the Nature of History* (New York: Norton, 1989), p. 51. See also Scott, *Seeing Like a State*, p. 390, n. 37.
19. The term comes from Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origins and Spread of Nationalism* (New York: Verso, 1991); but see also Eric J. Hobsbawm, *Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality* (New York: Cambridge University Press, 1993).
20. Scott, *Seeing Like a State*, pp. 11–22.
21. *Ibid.*, p. 4.

22. يقدم سكوت مناقشة جيدة لهذه الحالات. وللمزيد عن حركة الوثبة الكبرى في الصين انظر:

Jasper Becker, *Hungry Ghosts: Mao's Secret Famine* (New York: Free Press, 1997).

23. Appleby, Hunt, and Jacob, *Telling the Truth about History*, p. 307.

24. يحوي هذا الفيلم الذي عرض عام 1983 ظهورًا رمزيًا لزميلي بجامعة ييل جون مورتون بلوم.

25. Oliver Sacks, *The Man Who Mistook His Wife for a Hat and Other Clinical Tales* (New York: Summit Books, 1985), p. 23.

الفهرست

الحقائق التاريخية 53-54

-ق-

-ك-

-ل-

-م-